رواية

مكتبة نوميديا 200
Telegram@numidia_Library

ماما ميركل

عماد البليك

ماما ميركل

الكتاب: ماما ميركل

المؤلف: عماد البليك

تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع -دبي

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-23-395-4

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة

"يمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلّا بإذن خطي من الناشر."

مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution

دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي

@medadpublishing

@medadpublishing

medadpublishing1

www.medadpublishing.com

e-mail: info@medadpublishing.com

جميع ما ورد في محتوى الكتاب يعبّر عن آراء الكاتب، ولا يعبّر عن رأي مداد للنشر والتوزيع

رواية

ماما ميركل

عماد البليك

"الهجرة البشرية شيء غامض، ويعتقد الناس عادة أن معناه الانتقال الدائم للبشر من أوطانهم إلى ديار جديدة، ولكن حسب تفسير أكثر شمولاً تعني الهجرة البشرية أشياء كثيرة، بدءاً من انتقال عمال الزراعة الموسميين من مكان إلى آخر داخل الدولة نفسها وانتهاء بإعادة توطين اللاجئين من دولة في دولة أخرى، حيث تخبو الرغبة أو الحاجة للانتقال مرة أخرى"

مايكل بارفيت
مجلة ناشيونال جيوغرافك
المجلد 194، 1996

* * *

"تحمل جيناتك (موروثاتك) كتاباً للتاريخ، وهذا الكتاب يعود إلى أزمان ساحقة، حتى قبل أن تبدأ الكلمة ومحتوى الكلمة، قصة عنوانها: الهجرة"

سبنسر ويلز
عالم وراثة

كنت أريد أن أكتب رواية عن المهاجرين، اللاجئين، جالساً أمام البحر، ذلك الذي حمل الآلاف إلى مصائرهم سواء الموت المحقق أم الحياة والنجاة في عالم آخر.. بالأحرى كنت أريد أن أكمل روايتي الجديدة، متى تنتهي الرواية، لا أحد يعلم، وقد يحدث ذلك في لحظة غير متوقعة سلفاً.

كان معي جهاز لابتوب ماركة آيسر، بعد أن استبدلت جهازي توشيبا، الذي صحبني لحوالي العامين. ككل الأشياء وكلل الأمكنة التي يمكن لنا أن نبدلها، كما نرغب في تبديل أوطاننا والبلدات التي ولدنا فيها ولأسباب قد لا نفهمها بالدقة، فما الذي يدفع الناس إلى الهجرة، هل هي الحروب.. أم الظروف الاقتصادية، أم أحياناً ما يعرف بالاغتراب النفسي، عندما يفكر الإنسان أن حياته في مكان ما تفتقد للراحة والهدوء، وهو يبحث عن بيئة آمنة تحقق له أن يقترب من حقيقته.

الاقتراب من الحقيقة! تبدو عبارة غامضة ومضللة، فأي حقيقة تلك التي ينشدها المرء في عالم يفتقد للنقاط الواضحة والمضيئة، قد يحدث أن يمر الكائن بإلهام معين، من نوع ما، غريب لا يمكن وصفه، أو يمكن تحديده.. لكن تظل هذه الحالات ليست هي القاعدة. دائماً يصبح الدنو من المعاني مدعاة للجنون أو الهوس، حيث تصبح حقيقة الأشياء عسيرة على الذات، لا يمكن تحملها. قلة من يفعلون ذلك وفي النهاية يصبحون أنبياء.

الطيور. النوارس، تتمدد كسلى على الشاطئ أمام المياه الزرقاء، والملوحة تفيض على الرمال، تغطس فيها الأقدام العارية.. العديد من البشر يتجولون في الصباح الباكر.. من شتى بقاع الأرض. هنود وعرب وفلبينيون وأمريكيون.. ليس لي أن أحدد من أين جاء كل واحد منهم بالضبط، ولي أن أتفحص فقط ملامحهم، القصة التي يمكن أن ترويها الوجوه، فوراء كل وجه حكاية مستترة يمكن أن تضمها دفتي دفتر، كتاب.

نمت متأخراً بالأمس. بالأحرى فأنني نمت في صباح اليوم، قبل الفجر بساعتين واستيقظت ورأسي محاصر بالصداع القوي، وفي ذهني قرار واحد بأن أذهب إلى الشاطئ.. لا يبعد البحر كثيراً عن بيتنا، حيث شقتنا في الطابق الرابع من المبنى الذي نعيش فيه منذ ثماني سنوات في المدينة التي جئتها مهاجراً مع زوجتي. غير أني نادر ما أذهب هناك، ليس لي علاقة كبيرة بالطبيعة وقد لا تثير انتباهي منذ سنوات، فمع تقدم العمر يصبح الإنسان يرى كل شيء تقريباً من داخله، ولا

يكون محتاجاً لأن يطل إلى الخارج إلا في حدود الملل الذي يمكن يصيبه جراء المداومة على فعل الأشياء التي يحبها.

أما حبي أنا فهو الكتابة. لا أفعل أشياء أخرى مهمة. يمكن لي أن أتسوق أو أمشي على آلة رياضية في غرفة بالبيت، وأفعل ذلك مرات متناثرة وأنا أسمع للموسيقى، أغنيات كالتي تغنيها فرقة "أبا" **ABBA** التي اشتهرت في السبعينات من القرن الماضي، كأغنية "الرابح يأخذ كل شيء **The winner takes it all**".. أحس أن فيها ككثير من الأغاني الغربية في تلك الفترات نوعا من الحكمة الدفينة التي يمكن لها أن تمنح للحياة بعدا إضافياً، في سبيل ذلك المعنى الغائب الذي نبحث عنه.

نعم يأخذ الرابح وقد يكون سيئاً، كل شيء، دون أن يقدر على أخذ الأمل، فالتعلق به يفتح الأشرعة المغلقة ويقدم للكائن الحيوية والوجود الأبدي.

كأن الرجل صاحب الوجه العريض والنظارة السوداء الذي يمشي على الممر بجواري، يتفوه بذلك، بجبينه المتعرق وأنفه المفطوس. يبدو أنه أفريقي لست متأكداً، لا أحب أن أكلم الناس دون أن يكلموني، غير أن اللهفة تأخذني لأسأله هل أنت من أفريقيا؟ تحديداً من السودان؟ ثم أنسى الفكرة، فالنتائج قد تكون مخيبة مع الغرباء، ما أكثر اللؤم والغباء.

تبدأ الطيور في الحركة، أو هي غابت دون أن أنتبه لذلك، أين ذهبت فجأة وإلى أي اتجاه سارت، وهل تفكر مثلي في أن تكتب رواية عن الهجرة واللجوء، رواية تسميها "ماما ميركل" تيمناً بتلك المرأة التي أنقذت آلاف اللاجئين السوريين وهم يعبرون البحار إلى أوروبا، قدمت لهم حياة وأمل جديدين ونسجت لهم مستقبلاً ووعداً وأمنيات قابلة للتحقق، صارت في ظرف وجيزة بطلة واستحقت منهم هذا اللقب.

ولكن هل قصة الهجرة الإجبارية واللجوء، حكايات الموت المجاني والهروب والابتزاز والحروب والعنف، هل يهمني ذلك. لماذا أكتب عنه؟ هل أنا متقاطع معه؟ أحس به؟ أم أن طبيعة مهنتي وعملي في الصحافة فرضت علي ذلك، فيومياً وأنا أجلس في مكتبي ليلاً أقرأ عشرات الأخبار هذه الأيام عن اللجوء وعن القوارب التي تدفن المئات في البحر، تلك التجارة الدنيئة، ومنذ شهور قلت لأحد زملائي:

"إنه بيزنس جديد، ما أن يفرغوا من فكرة حتى ينتقلوا لغيرها. قبل سنوات وجيزة

كانت هناك القرصنة في سواحل الصومال والآن يتاجرون بالموت في البحار" لا أهتم كثيراً بنظرية المؤامرة، وأراها سخيفة.. أفكر في الوقائع والحياة البشرية من منظور واقعي يتعلق برغبة العيش والصراع الذي لا يتوقف عند نقطة، جموح الكائنات نحو الخلود الزائف، والحصول على الأموال الطائلة. يفعل الإنسان أي شيء ممكن وغير متوقع ليحصل على المجد والمال ويصبح مشهوراً حتى لو بفكرة غبية.

ما زلت أتذكر ذلك الشاب الذي قدم للمحاكمة قبل سنوات في باريس على أنه قرصان كبير جاء من مقديشو وعرف كيف يطوع نفسه ليصبح مليونيراً في ظرف وجيز. ولم تكتمل فصول المحكمة لأن الملف أغلق، فوراء قصته كانت ثمة شركات عابرة للحدود ورؤساء دول كبيرة وشخصيات لا يجوز المساس بها لأنها مصنوعة من طين الطهارة الفائقة..

استحضر صورته فهو يشبه طفلاً أفريقياً على غلاف أمامي لمجلة مطبوعة منذ خمس عشر سنة، حملتها معي إلى البحر في جيب حقيبة اللابتوب، وكما توقعت ويحدث ذلك مرات. وقد لا يحدث. كان هناك مقال بالمجلة يتحدث عن الهجرة، لأكتشف أن ذلك المشهد الذي نعيشه اليوم ليس جديداً. هذا طبيعي، فالبشر يهاجرون ومنذ الأزل وإلا لما قامت الحضارات التي شهدها العالم إلى اليوم ولما كان من تطور على وجه الأرض، فهذا التلاقح في الأفكار والهموم هو الذي حقق الإنسان الجديد ووهب للإنسانية الحيوية لتستمر في المقاومة، حتى بقاء الناس في مكان واحد وحرصهم الشديد على التزاوج من الأقارب ومقاومتهم للأمراض نفسها لسنين طويلة كان سيحولهم في نهاية الأمر إلى حيوانات من جديد ثم ينقرضون ذات يوم، بفعل الوهن والتبلد الذهني والشلل. وهذه قاعدة طبيعية معروفة.

شاطئ البحر ها هو أمامي بالناس الذين يتحركون عنده، يروي قصة هذا الحراك البشري الذي بات أسرع وأقوى في عصرنا هذا، وكما كتب مايكل بارفيت مرة في "ناشيونال جيوغرافك": "الهجرة شيء عظيم وخطير وساحق.. ترى تجليات لها في سفر الخروج والإلياذة ومعركة أجنيكورت ومع سفن القراصنة الفايكنج في أعالي البحار قاصدين آيسلندا وسفن نقل العبيد والحرب الأهلية الأمريكية وسيل من اليهود اللاجئين يعبرون أراضي محتلة لدول أوروبية أثناء الحرب العالمية الثانية".

ويرى مارك ميلر مؤلف مشارك في كتاب "عصر الهجرة" الذي كان أستاذاً في جامعة ديلاوير يدرس العلوم السياسية، أن ما يدهشه حقاً "مدى أهمية ما تمثله الهجرة، إما كسبب أو كنتيجة للأحداث العظمى في العالم.. إذ أنه من الصعب حقاً أن نفكر في أي أحداث عظمى لم ترافقها عمليات الهجرة".

لكن النزوح قد يكون سلساً وبرغبة الإنسان وقد يكون بالقوة والإجبار، كما في قصتي عن "ماما ميركل". تلك الحكاية الطويلة التي شارك فيها أبطال مجهولون كما أتخليهم أمامي، لا تعرفون عنهم الكثير أو لم تسمعوا بهم إلا هنا، أنا متأكد من ذلك، لأنهم ببساطة من نسج خيالي، لا يشبهون إلا الناس الذين وجدوا في لحظات غفوتي ويقظتي وأنا أفكر فيهم وأصنعهم مع وحشتي ورغبتي ككائن أن أحقق متعتي من خلال ما أتصوره وأكتبه. الدقة تستدعي القول إنه صحيح هم من خيالي، لكنهم يمكن أن يوجدوا في خيالكم أيضاً أو في الواقع.

ليس لي من ادعاءات أن هؤلاء الأبطال سيكونون استثنائيين. هناك دائماً أناس أهم على الهامش لا يمكن أن يدخلوا في الكتب بسهولة، هم موجودون لا تراهم الأعين أو ترصدهم القصص الإخبارية السمجة التي تقدمها بعض الفضائيات، هل الإشكال يتعلق بالقصة أم الناس الذين يتم تقديمهم فيها أم بالحبكة في مجملها، يخال لي أن السبب يعود إلى صانع القصة فهو غير موهوب وتاجر يريد أن يربح كتجار الموت من وراء معاناة أناس آخرين.

قبل ليلتين شاهدت فيلماً أعده شخص ما، يسمي نفسه شاعراً، تارة مخرج أفلام سينمائية، مرات يعرض نفسه على أنه ناشر له دار نشر في أوروبا وأحياناً تنتقل هذه الدار إلى دول الخليج. يتكلم إنجليزية ركيكة ويصر عليها وهو يتحدث لقنوات غربية، لا أعلم كم يدفع لهم لكي يستضيفونه، من الواضح أن المذيعة تعاني كثيراً لكي تفهم ما الذي يقوله بالضبط. شكله يشير إلى أنه وقح ليس له أي علاقة بالشعر ولا الفنون.. أنتج الرجل فيلماً عن اللاجئين وسوّق له في مهرجانات أوروبية يتنقل به من بلد لآخر ثم رحل به إلى بيونس أيرس، بعض المثقفين الأرجنتينيين لا يقلون سماجة عنه. هذه الادعاءات موجودة في كل مكان فهي ليست حكراً على العرب.

في الحوار التلفزيوني أنقذ "الكابشن" المكتوب بالإنجليزية ركاكته، كانت إشارة واضحة من القناة أن ما يقوله الرجل غير مفهوم.. وهم لا يمتلكون الجرأة لكي يخبروه بذلك. قال:

"لا أعتقد أن فكرتي كان دافعها مادياً أبداً.. لا أفكر في هذا مطلقاً.. أنا إنساني إلى أبعد حد.."
تسأل المذيعة الطويلة جراء الكعب العالي وهي تقف أمامه يسيران معاً في حديقة، مكان ما به نافورة:
"ما سر الضجيج.. لماذا نجح الفيلم؟"
يبتسم.. يخبرها بمتعة عالية:
"الحبكة.. الدراما.. كيف تحول المأساة لقصة تذرف لها دموع الضحك."
"أنت شاعر؟"
"ألا تعلمين ذلك.. أنا أكتب الشعر بالعربية، وأحياناً بالإيطالية."
"جميل.. جميل."
أغلق التلفزيون.. أعني الفيديو.. فأنا لا أفضل الشاشة كثيراً منذ أن اخترعوا موقع اليوتيوب.. أحاول أن أتخلص من صورة الرجل، يحاصرني، أخشى أن ينام معي في الظلمة، فهو قادر على التسلل بوجهه الذي لم أحتمله مع أحد أصدقائه الذين يشبهونه بلحاهم الصغيرة المصبوغة.
في الصباح التالي، اتصل بي الناشر يسألني:
"ما أخبار روايتك الجديدة؟.. شاهدت غلافها اليوم على الفيسبوك؟"
أخبرته:
"تعلم أن هذا غلاف افتراضي.. أنا دائماً أصنع أغلفة افتراضية لأعمالي تتغير في أغلب الأحيان عندما يتم نشرها.."
رد عليّ بانفعال:
"نعم أعلم ذلك، إنها تساعدك على الاستيهام.. ولكن أعني متى تفرغ منها؟"
"أنا في اللمسات الأخيرة.. ولكني قد أعيد كتابتها.."
يقاطعني:
"من فضلك"..
"مم ما....
يقاطعني:
"يا صديقي.. لا تضيع الوقت نحن في عصر السرعة لا شيء ينتظر هل تسمعني جيداً.. هيا أمامك أسبوع لا تتأخر."
كنت أفكر في العقد الذي وقعناه قبل عامين لروايتي الأخيرة، دون أن أعلم ما

الذي حدث، كم باع ولمن وكيف؟ تجربتي مع الناشرين سيئة، أغلبهم يبدون ملائكة في البداية ثم يتحولون لمجرمين، قتلة وتجار قوارب تسير على البحر.. تجارة الموت ليست حكراً على أولئك الذين يقتلون الشباب ويبتزونهم بل هي سمة غالبة لعالمنا اليوم.. لا أحد تقريباً بمنجاة منها في هذا العالم الوضيع.
هل أكرر التجربة معه أم أبحث عن ناشر آخر، وقبل ذلك يكون علي أن أكمل الرواية.. أم أرمي بها غير مبال كما أفعل مرات كثيرة، عندما أنتهي من عمل ثم لا أعود أحفل به دون أن أفهم لماذا أفعل ذلك؟!
هذه المرة سوف أكلمها كان ثمة ثقة كبيرة تمتلكني، وأنا أفكر في إغراء الموضوع باعتباره جزءاً من تكويني، إحساسي، أن تعيش سنوات طويلة جداً، نصف عمرك تقريباً، خارج بلدك. لكن عزائي أن التاريخ الإنساني في حقيقته معركة طويلة، هجرة مستمرة، نزاعات أبدية ورغبات دفينة في الانتقام.. تدريب مستمر على الموت والخديعة.. أن يغش الإنسان نفسه بأمور قد لا تحدث وتوقعات كاذبة في أغلب الأحيان. ودائماً تظل الحياة افتراضات لا تتحقق إلا في حيز محدد ولأناس قلة.
تحاصرني العبارات والكلمات وتحن أصابعي لملامسة "الكي بورد" لأكتب ذلك وجملاً أخرى يصرخ بها أناس يسكنونني من الداخل، هؤلاء الأبطال الذي يرغبون في الخروج من جوفي، من سجني. يرغبون في أن يخرجوا من مصائر وورطات حقيقية وجدوا أنفسهم فيها بسببي، أنا المسؤول عنهم ويجب ألا أتخلى عنهم أبداً. يجب أن أكون "بابا ميركل" الذي سوف ينقذهم.
ومن ثم تمضي ليلة أخرى وأنا غير قادر على الكتابة، يحاصرني ذلك الصداع الذي غادرني منذ شهور مع وجع في الأذن، قال لي الطبيب:
"السبب هو الموسيقى التي تسمعها، حاول أن تقلل منها"
لم أستجب للنصيحة وانتهى الألم، إذن لا علاقة بالموسيقى بذلك. واليوم يعود الألم أكثر قسوة وتبريحاً. يعطلني عن التفكير بهدوء حتى أنا أمام البحر لا أعرف كيف أتمتع بما حولي من مشاهد، إذ لا أرى سوى تداخل لهلام من المناظر التي سبق لي رؤيتها كثيراً جداً، وهذا ما يجعلني أشعر بالملل لأغادر إلى البيت، لأبقى ذلك الإنسان الذي حدثتكم عنه الذي يرغب في أن يرى الأشياء من داخله فقط.

أولاً

غاغا تغني وجه البوكر

"تحرروا من انتظاراتكم! كونوا أحراراً!".

مغنية البوب ليدي غاغا

-1-

المكان: المستشفى الجامعي في هامبورج، إبندورف – ألمانيا
الزمان: غير معروف بالضبط!

وكذا لا تعرف الفتاة الفاقدة الوعي من اسمها، وليس لديها في ذاكرتها أي شيء مؤكد عن الماضي إلا في حدود تداخل الحقيقة بالخيال، الوعي باللاوعي. إنها تعيش في تلك المساحة المفقودة والغائبة بين كونك جزءاً من هذا العالم، أو كونك تنتمي لعالم آخر ليس له من مكان إلا في مخيلة محددة. هي أنت.

في المستشفى الأكبر في هامبورج، يوجد أطباء معروفون على مستوى العالم، قليل منهم يهتم بالسياسة فأغلبهم يركز على مهنته كطبيب، ومن هنا فإن هذا الصرح الطبي يحقق نجاحاً تلو الآخر.

تستطيع أن تتخيل أكثر من ثمانين عيادة تعمل بقوة جبارة، معاهد بحثية، أناس يشتغلون لأجل المستقبل، كما وصفتهم مغنية البوب الأمريكية ليدي غاغا وهي تزور الموقع قبل سنوات عندما جاءت لتحيي حفلاً في مسرح دار أوبرا توي.

في الواقع لم يحدث أن زارت ليدي غاغا هذا المستشفى، فما حدث أن الفتاة تتخيل ذلك في غيبوبتها المستمرة منذ ثلاثة أسابيع، تستيقظ منها أحياناً لثوان ربما دقائق معدودات ثم تعود مرة أخرى إلى ذلك العالم البرزخي، حيث كل شيء حر إلا هي. فالعالم من حولها يتحرك ويصنع أشياء مدهشة وغريبة بعضها غير منطقي، لكن وحدها الفتاة مقيدة تجد نفسها داخل بيت زجاجي أحياناً أشبه بسجن يصعب الخروج منه. ومرة تخرج لكنها لا تعرف أن تتصرف بشكل حر كالآخرين.

في اليوم الأخير قبل استفاقة نهائية من الاستفاقات المتقطعة والغيبوبة الطويلة، التي تشبه غيبوبة الحياة عموماً، فقد رأت الفتاة ليدي غاغا مجدداً هذه المرة كانت تلاعب المستشارة الألمانية انجيلا ميركل، لعبة البوكر، يبدوان كما لو أنهما جزءاً من مشاهد في أغنية "وجه البوكر" أو "فيس بوكر" التي نالت صيتاً واسعاً منذ عرضها لأول مرة في 22 أكتوبر 2008، وقتها كانت الفتاة لا تزال تعيش في مدينة حلب السورية. وكانت احتمالات الحياة مفتوحة باتجاه مستقبل جميل. لم تكن ثمة أي إشارات إلى أن

القدر سوف يجعلها وخلال زمن مقبل تفقد كل عائلتها وتكون وحيدة في مواجهة الفراغ والمجهول، والإحساس بالعدم ليس لها من أحد سواها والسيدة ميركل.
كانت الفتاة واسمها رندا سليمان، تعيش في الحي القديم من المدينة التاريخية قريباً من القلعة التي مثلت جزءاً من ذاكرة طفولتها، إلى اليوم الذي غاب فيه كل شيء. دخولها في تلك الغيبوبة لسبب هي نفسها لا تعرفه إلى اللحظة. وهي تعاين حولها لترى ملائكة بيضاء، فتيات في عمرها تقريباً يقمن بالعناية بها بشكل دقيق وبمحبة فائقة، لم يكن يتطلب الأمر ذكاء لمعرفة ذلك. وهناك كان يقف طبيب بسحنة عربية، بسماعته المتدلية من عنقه وهو يرمقها بنظرات تحمل طابع الشفقة على إنسان نجا من الموت، لقد كانت رندا قاب قوس من النهاية، الموت ذلك القدر العجيب الذي لا أحد يفهمه بدقة.
الجميع يتحدثون لغة غير مفهومة بالنسبة لها، فلم يحدث لها أن تعرفت على اللغة الألمانية، وفي البداية وهي تجهل المكان والبلد ومن حولها، لم تعرف اللغة ماذا تكون؟ كان لديها إحساس إنسان خرج إلى الحياة مجدداً من رحم الغياب، من جهة مجهولة وبعيدة؛ ليس لديها المقدرة الكافية على استرجاعها أو تلمسها، إنها حالة تقلقها ولا تقلقها.. لسببين أولهما أن المرء في مثل هذه الدرجة من فقدان الذاكرة يكون قد نسي من يكون هو أو أنه إنسان بالفعل. والسبب الثاني إنه إذا أدرك انتماءه لعالم البشر بمقارنة نفسه وشكله بمن حوله، فسوف يبدأ في التفكير في أمور متفرقة خاصة المشاهد الأخيرة التي رآها قبل أن يخرج من رحم الغيبوبة. ستكون لديه رؤى حاضرة وأخرى غائبة، ما يمكن القبض عليه، وما يعجز عنه. في النهاية سوف يكون للوقت أن يوضح الأمور الغامضة وقد لا يحدث ذلك أبداً.

-2-

المكان: حلب القديمة.. قريباً من مصانع ملابس الأطفال تحت الأرض
الزمان: ربيع سنة 2009

في ذلك العصر الذي أزهرت فيه الورود الربيعية، خرجت رندا بصحبة والدتها من منزلهما باتجاه المصنع الذي يمتلكه ويديره والدها السيد سليمان القيسي، كان عليهما أن تسيرا ليس لمسافة طويلة وهما تقطعان أرضية مبلطة مبللة، وكان من الواضح أن عدداً من رجال النظافة يعملون على جعل الشارع الضيق يبدو كما لو أنه من أزقة الجنة، وكان هناك رجلان يعملان بكل همة ونشاط وهما يثرثران في قصص ليس لرندا أن تركز بدقة ماذا يقولان.

صورتهما مازالت حاضرة، وهما يفرغان من عملهما ثم ينطلقان إلى مقهى صغير لتناول سندويتشات المارتديلا وشراب المندرين. يتلذذان بطعمه وهما مستمران في الثرثرة، تتخيلهما رندا كما لو أنهما شريكان في الفيديو كليب لأغنية "وجه البوكر" أحدهما يشبه أحد الشباب الذين يظهرون في الأغنية بجوار ليدي غاغا، وجه صبوح ويبدو أنه في العشرين من عمره ليس أكثر. تذكرت هذا الوجه الآن وهي ترى وجه الطبيب الذي يقف أمامها يتأملها ويعلمها بأنها بخير والحمد لله، لكن عليها أن تبقى ربما لستة أشهر أخرى هنا حتى تستعيد عافيتها.

كان تريد أن تفهم ماذا حدث بالضبط؟ ولكن لم تستعجل فقدرتها على التركيز ما زالت قاصرة، كما أن وعيها بمفردات الحياة كانت أيضاً بطيئة. هي فهمت أن هذا مستشفى وأن ابتسامة هذا الشاب رائعة وأنه ربما يشعر بإحساس خفي اتجاهها، ربما هي الشفقة أو شيء آخر. ليس هذا وقت الإجابات والقناعات المكتملة.

لدقائق وهي تعاني ألماً مبرحاً في ساقها اليسرى، دون قدرة على أن تمد يدها للتحسس أو الهرش عليها، فقد كانت اليدان مثبتتين على وثاق بحافتي السرير الطبي. كانت تفكر في سر هذه الابتسامة الساحرة، هذا الفتى المشرق الذي جعلها تنسى الألم، وتقارن بينه وصورة قديمة في حياتها، واضحة وجلية أمام عينيها وفي داخل جمجمتها المتضررة هي الأخرى.

بصعوبة ميزت بعض الأشياء.. رأت نفسها في ذلك الصباح الباكر تنهض وتشغل جهاز الحاسوب الشخصي الخاص بها، وهي تعيد تشغيل الأغنية للمرة العاشرة وربما أكثر. هي مغرمة جداً بليدي غاغا وانعتاقها، قدرتها على التمويه الجسدي والتلاعب بالجمهور. والظهور في كل مرة بشكل جديد، تراها ساحرة أكثر من كونها مطربة رغم أن موسيقاها وأغانيها تشد الأعصاب.

تتخيل أن ليدي غاغا وبحكم أصولها الإيطالية أنها ربما انحدرت من عائلة مشرقية، ربما جاء جدها من هنا من حلب، إحساس ما يقول لها ذلك ولكنها ليست متأكدة من شيء طبعاً. دائماً ما تنتابها أفكار مثل هذه وهي تفترض افتراضات قد لا تكون سليمة، وتبدأ في ابتكار منطق لها من خلال عالمها الخاص.

راحت تسترجع بصعوبة تتحول تدريجياً إلى سهولة ورؤية واضحة، ذلك النهار.. ذلك الرقص الغريب الذي تمارسه غاغا وهي ترغب في إبداء مفاتن جسدها. ليست هي جميلة لكنها رائعة وشبقة. إنها تشعر فتاة مثلها بامتلاء غريب، ورغبة في أن تلمس هذا الجسد شبه العاري، لكنها تخاف من شيء ما. تخاف أن يدخل أحد إلى دماغها ويخاطبها هذا عيب، البنات لا يشتهين البنات. ثم تستغفر الله وتسرع لإغلاق الحاسوب وهي تحس بشيء من الضجر.

تسمع صوتها والدتها تكلمها بأن تستعد لرحلتهما معاً إلى المصنع، وهما نادراً ما تذهبان إلى هناك، لكن اليوم هناك مناسبة خاصة، سوف يزور وفد إعلامي من دمشق مصنع عائلة القيسي لالتقاط الصور التذكارية له في الاحتفال بعامه المائة.

نعم مرّ قرن كامل على إنشاء هذا المصنع تحت الأرض، ومرة فوقها. يتحرك مع الأيام والظروف والحروب وهو يحتفظ بتميزه عبر كل هذه العقود العشرة. لا أحد في الشام ولا في حلب أو اللاذقية عند البحر لم يجرب ملابس القيسي للأطفال، هذه العلامة المميزة. قمصان أولاد قطنية رائعة وذات ملمس خاص، وفساتين وتنورات بنات بألوان زاهية. كل بيت يفتخر بأن أولادهم يلبسون من القيسي.

خلال مائة سنة استطاعت هذه العائلة أن ترسم اسمها بجدارة في تاريخ سورية الحديثة، وكانت مثار فخر وإعجاب للكثيرين حتى أن وزيراً سابقاً في حكومة الأسد الكبير اقترح أن يدخل اسمها في المناهج التعليمية، كان ذلك الوزير تربطه علاقة بالسيد سليمان القيسي في سنوات الدراسة الجامعية، فقد تزاملا في جامعة حلب.

في كلية الفنون الجميلة والتطبيقية، كان القيسي معروفاً فمن يجهل شاب ينحدر من عائلة ثرية، غير أنه هو شخصياً لم يكن يبالي بما حوله من اهتمام ولا يحفل بملاحقة المحبات ولا الشباب الذين يبحثون عمن يقرضهم ثمن ليلة في الملهى الليلي، فقد كانت حلب مدينة ضاجة بالحياة يجد فيها المرء كل ما يدور بذهنه، تعتمد المسألة على قدرات الخيال.

كان القيسي ينفق وقتاً لا بأس به في الكلية غير أنه يقضي نصف اليوم تقريباً في المصنع مع والده وجده الذي مات في تلك السنوات.. ومنه تعلم أشياء كثيرة في حرفة كان ذلك الجد هو مؤسسها، بدأ خياطاً عادياً ثم صار نجماً بعد كفاح طويل كما يقص الحكاية ويعيدها من مرة لأخرى، فقد كان سعيداً بالمجد الذي حققه. وكانت لديه حكمة تقول "إن على الإنسان أن يفخر بما أنجز. فلم نخلق إلا لكي نحقق أشياء عظيمة، فإن فشلنا في ذلك فلا قيمة لنا تقريباً".

أجواء الكلية مرحة ومشبعة بالغموض، فالأساتذة يقدمون مقررات بالنسبة لسليمان لا تواكب الحياة العملية، هو مثلا يعرف كيف يختار جده أو والده ألوان القمصان وكيف يغير الموضة من عام لآخر بناء على اعتبارات معينة لا يمكن لأي أحد أن يفهمها. لكن ما يُدرّس في القاعات عالم آخر ليس له علاقة بالواقع، وهذا كان يشعره بالضرج مرات كثيرة فيهرب إلى القبو تحت الأرض ليخطط مع والده لملابس الموسم المقبل الذي شارف على الأبواب.

مرات كان يجد سلواه في فندق سميراميس الذي اشتهر بكونه ترتاده طبقة معينة من وجهاء المدينة، لنقل بشكل مباشر إنهم أبناء الأثرياء والطبقة التي استطاعت أن تبني مجداً ونجاحاً بلغة الجد القيسي. وقد اكتسب الحفيد محبة ذلك المكان من جده الذي كان يأخذه معه في صباه إلى بهو الفندق ليعقد صفقاته مع أناس قادمين من وراء الحدود، بالتحديد من لبنان القريبة ومن مصر وأحياناً السودان، وفيما بعد صار يصدر ماركة القيسي إلى دول الخليج، وكانت البداية من الكويت.

يجلس سليمان في البهو ذاته وهو يعاين المصابيح المتدلية من العرش، والمشربيات العتيقة في النوافذ الطويلة، يحس بفرح طفولي ينتابه ويتذكر جده. ربما مجيئه هنا مرتبط بالحنين، وقد يكون ثمة أسباب أخرى لأنه في هذا المكان بالتحديد لمح الفتاة التي سوف يبدأ في حبها تدريجيا إلى أن يتزوجها رغم رفض العائلة في البداية،

فالفوارق الطبقية كانت تحتدم، والأب الذي كان يقول أحياناً أنه يحب الماركسيين كان كذاباً وابنه يعرف ذلك، مرات يمارس رجال الأعمال والأغنياء أدواراً سياسية باهتة ولأغراض غير مفهومة، ولم يكن سليمان ليفكر كثيراً في طبيعة ما يفكر فيه والده بالتحديد، فكثير ما تحدث مثل هذه الأمور، اختراع أفكار معينة ثم التخلي عنها وقد يصل الأمر إلى تقديم محاضرة في أحد الأندية أو الصالات الثقافية في المدينة حول ذلك الموضوع. ربما ثمة منفعة متدثرة لم يكن للصبي أن يفهمها بالضبط، فـ "الحياة تحتاج التدريب" كما يقول جده.

أحب سليمان ناريمان والدة رندا، رأى فيها فتاة أحلامه، الكائن الذي سوف يملأ عليه حياته ويصنع بهجة أيامه. كانت نادلة في الفندق تقوم على تقديم الأكل والمشروبات الروحية في المساء لرواد البار الصغير المجاور للبهو، في البداية كان عليه أن يهتم بها ثم يكرمها فيجد أنها عفيفة لا ترغب في أن تأخذ أكثر من راتبها الزهيد الذي لا يعدو بضع ليرات.

وفي البداية ربما لم تكن تعلم أن هذا الشاب الوسيم، لا أحد يشك في ذلك، هو ابن تلك العائلة المشهورة، لأن سليمان لم يكن يحب أن يقدم نفسه بهذا الشكل الفجّ. ثم مع الأيام والمساءات المتتالية عرفت كل شيء، وبدأ اهتمامها به، دون أن تعرف هي بالضبط، هل كانت تحب مجده وثروته وشهرة عائلته، أم تحبه هو كإنسان بدا لها مختلفاً عن الشباب الطائشين الذين يأتون في آخر الليل بالتحديد، ولا يخرجون قبل أن يكسروا مجموعة من الكؤوس والأواني الزجاجية ثم يحاولون مشاغلة الفتاة بأي شكل كان وهي تهرب منهم باللجوء إلى غرفة صغير بجوار البار إلى أن يغادر السكارى.

عندما قدمها لوالده، بوصفه ابنه الوحيد الذي يرغب في إكمال نصف دينه، كانت دعاوي الماركسية والشيوعية وحب الآخرين التي يتكلم عنها في الأمسيات السياسية تتساقط. وكان قرار الوالد القيسي واضحاً لا يتطلب قاموساً لتفسيره: "لا يمكن لابن القيسي أن يتزوج من نادلة.." ثم صمت قليلاً ليكمل: "عاهرة".

حاول سليمان أن يقنع والده بأن هذه الفتاة ليست كما يمكن أن يتصور الكثيرون عن فتيات الفنادق، ليست هي فتاة ليل، هي بنت كافحت لأجل أن تعيش، ماتت والدتها وهي تعيش مع جدتها ولديها شقيق واحد تركهما وسافر إلى دمشق بحجة

أنه عثر على عمل هناك في أحد شركات الحواسيب والبرمجة ولم يسمعا عنه بعدها.
القصة كلها وهي تغلف وراءها أفكاراً بثها سليمان مثل أن الفقر والعفة يتجاوران وأن الحياة يمكن أن تدفع الإنسان لفعل أشياء قد لا يحبذها، كل ذلك لم يقنع الوالد الذي بدأ شرساً في ذلك اليوم وخرج من البيت غاضباً، وهو يكلم نفسه بصوت عال، دون أن يتبين سليمان ماذا كان يقول بالضبط.
تزوج سليمان من ناريمان، كانا زواجا سرياً طبعاً، ولم تترك العمل في الفندق حتى لا يشعر أحد بأن ثمة تغيير يجري في حياتها. لكن الناس كانت تراقب الناس دائماً، ففي الشقة الصغيرة التي كانت تقطن فيها وجدتها والتي تكفل سليمان بدفع إيجارها الشهري، كان هناك زائر غير مألوف يأتي كل مساء، في وقت متأخر دون أن يبيت. يجلس لساعات ربما قريباً من الفجر يقضي لعبة الحب ويفرغ شبقه مع النادلة، ثم يمضي إلى بيتهم قبل حلول الصباح، معتذراً بأن ثمة واجبات في الكلية يجب الانتهاء منها قبل حلول نهاية السنة، رسومات وتصميمات تحتاج وقتاً طويلاً وأن يبقى في استوديو الرسم. وكان الأب يشم رائحة المؤامرة والخديعة، ولم يتكلم إلى أن جاء اليوم الذي انكشف فيه كل شيء ووصله الخبر بعد أن تناقلته المدينة، ابن القيسي متزوج من عاهرة ويقيم معها في شقة جدتها ويأتيها كل ليل من أجل متعته.
كان أمام خياران إما الطلاق أو الخروج من المنزل، واختار أن يغادر.. دون أن يتكلم، وفي المقابل كان القيسي الأب يدرك أن الأمر قاسياً خاصة أن هذا ابنه الوحيد، لذلك أراد أن يلطف الجو بعد مضي بعض الوقت.. تحديداً بعد شهرين، حيث انتهز فرصة مساء كانت المدينة مشغولة فيه بأعياد الجلاء في 17 أبريل ليذهب إلى تلك الشقة ويطرق الباب، وفتحت النادلة ناريمان.
وجد أمامه فتاة كاملة المواصفات، كأنها من حور الجنة حتى أنه شعر وهو يلمس صفحة يدها أن نعومتها ليست عادية وكان وجهها يحكي عن طفلة ناضجة، وشعر بشيء من الخجل أن يداهمه نوع من الشبق البريء باتجاه زوجة ابنه، وقرر وقتها دون مقدمات كثيرة أن الله غفار وعليه أن ينسى لابنه ذنبه فهذا البنت تستحق، لتذهب الطبقية إلى الجحيم. وكانت ناريمان ذكية لتفهم أن صفحة جديدة سوف تفتح بعد قليل، أو هي فتحت الآن.

دعته للدخول، فاعتذر.. ما زال يشعر بشيء من الكآبة أن يكون في شقة قذرة، أنفته تمنعه من ذلك حتى لو أنه لعن التفاوت الذي تخلقه الثروة قبل قليل.. لكنه لو دخل لأدرك أن الشقة مرتبة ورائعة والفضل يرجع لسليمان الذي أنفق عليها الكثير من المال، ففي السابق لم يكن راتب النادلة يكفي لسوى الأكل والشراب وأدوية الجدة التي تعاني كثيراً من الأمراض المستعصية.

أخبرته أن سليمان ليس هنا، كانت جريئة لقول ذلك، لم تكذب أو تدعي أن هذا المكان ليس المقصود، دائماً كانت شجاعة. ولهذا أحبها سليمان، وهذا ما جعل القيسي الكبير يحبها فيما بعد ويتمسك بها كصفقة تجارية لا تتكرر.

خلال أيام قليلة كانت ناريمان قد تزوجت في عرس باذخ تحدثت عنه حلب القديمة كلها، كل الناس كانت تتناقل قصة النادلة التي أصبحت أميرة، وسرعان ما غفروا كل الماضي لأجل المرحلة الجديدة، بعد أن أصبحت السيدة تلقب بناريمان القيسي، بالإضافة إلى أن جمالها كان يترك لها أن تُنسِي كل من ينظر إليها أي فكرة سيئة باتجاهها.

-3-

المكان: مسرح دار أوبرا توي.
الزمان: مساء في الشتاء.. الزمان غير محدد!

ترتفع خشبة المسرح تلقائياً كمصعد متحرك، تظهر تدريجياً ليدي غاغا وهي شبه عارية تماماً لا تلبس سوى لباس البحر. يسرع مجموعة من الرجال يأتون من وراء الأبواب الخلفية في الخشبة ليغطوا جسدها بمجموعة من الورود. يكتشف الجمهور الذي أكثر من الصراخ وهو يزبد ويمارس اللهفة المجنونة، أن ذلك الورد ليس إلا فستان يضيء في اللحظة التي تنطفئ فيها كهرباء القاعة.

كانت السيدة ميركل تجلس في الصف الأول من قاعة المسرح، لم تبد أي مشاعر واضحة، يمكن القول إنها ابتسمت. وليس ثمة أدلة أن هذا الجسد قد أثارها، خاصة أن الجميع يتناقلون منذ أيام فيديو مسرب بالأسود والأبيض يدعون عبره أن المستشارة الألمانية مصابة بحمى المثلية، هي عاشقة لجسد الأنثى. تظهر ميركل في الفيديو القصير وهي تتحسس جسد فتاة ليست جميلة على أية حال، لكن الأمر لا يصل إلى حد خلع الملابس، كما يتصور البعض.

كالعادة ومنذ أن اشتهرت أغنية "وجه البوكر" لا تبدأ ليدي غاغا أي حفل إلا بها. تتماوج الفتاة الجالسة في الصف الأمامي ليس بعيداً عن ميركل، وهي تغوص في الكلمات والمعاني، وهي تسترجع ولكن بصعوبة جداً طفولتها البعيدة.. القريبة.. في تلك المدينة الشرقية.. قبل أن تحدث الفاجعة والمأساة وتدور رحى الحرب المدمرة التي أنهت كل شيء تقريباً. بين ليلة وضحاها انتهى حلم مدينة كاملة، لعب بها الأشرار وغاصت في الظلام، تحاول رندا أن تعيد بعض من تلك الذكريات لكن ذاكرتها لا زالت عاجزة عن العمل بالشكل الكافي.

تقف رندا على المسرح بصعوبة من على مقعدها المتحرك، تمنحها ليدي غاغا الفرصة لكي تقدم عبارة شكر لألمانيا وللسيدة ميركل، أن منحتها الحياة من جديد.. وبدرجة أكثر أن جعلتها جزءاً من هذا الحفل، فطالما أحبت غاغا وكان حلمها أن تسمع لها ذات يوم تراها أمامها على المسرح، والحلم الأبعد من ذلك مستحيل التحقق. أن...

كان رأسها يدور بسخافة وهي لا تعرف أن تتحكم في الأفكار التي يضخها الدماغ، وأحست بدوار قوي.. يبدو أنها سقطت على أرض المسرح دون أن تتزن في وقفتها. أخذ الطبيب الشاب عينة من دمها وبعد ساعة كان يتكلم مع زميلته الألمانية، يخبرها:

"ثمة ارتجاج في المخ.. هي لم تتعاف بعد.."

الطبيبة نظرت إليه بقوة، وهي تحمّله مسؤولية ما جرى، قالت:

"لم يكن سليماً أن تتخذ قراراً بأن تغادر المستشفى للحفل"

دار الطبيب حول الطاولة قبل أن يدلي سماعته قليلاً، قال:

"أعرف أنها تحب ليدي غاغا.. وحلمها أن ترى لها حفلاً"

قاطعته:

"لكن غاغا لا يمكن أن تعيدها للحياة إن ماتت"

يصمتان.. قليلاً.. تكلمه:

"يقولون إن المستشارة غاضبة جداً لما حدث.. اعتبرته تصرف غير إنساني.. وربما يجري تحقيق في الأمر"

أجاب الطبيب:

"هي التي قررت أنه يمكن استضافة الفتاة"

قال ذلك وقد شعر الطبيب الشاب ببعض الارتباك، هل تمزح الطبيبة أم تحكي بجد. ولم يعلق، اتخذ طريقه خارجاً من المكتب إلى ساحة خارجية، قبل أن يجلس على كنبة اسمنتية في الحديقة، كان الفجر يطلق أول نسماته الباردة والشتاء قاس جداً هذه المرة. يحس الشاب كما لو أن أمورا غامضة تنسج من وراء الغيب. إحساسه يأتي ممتزجا بحالة من الهياج النفسي الذي لم يعشه من قبل ربما ذلك الذي يسمونه الحب، فمنذ أول يوم رأى فيه وجه الفتاة في المستشفى، اقتربت روحه من هذا الوجه الملائكي، أحب أن يتلمسه. ومرات وهو يمرر يده على أي جزء من جسدها بحجة ممارسة عمله كطبيب يحق له أن يتحسس مرضاه، كانت قشعريرة تسري في جسده، ويحلق بعيداً.

يتذكر اليوم الذي جاؤوا بها ضمن مجموعة من المهاجرين الذين نجوا من غرق أحد قوارب الموت، حدث ذلك بعيداً في البحر المتوسط، وكانت رحلة طويلة إلى أن وصلوا

إلى أن هنا شبه موتى. أشرفت إحدى الجمعيات على إيصالهم لأن هذا المستشفى بالذات كان قد أعلن عن حملة إنسانية لمناصرة ضحايا الموت المجاني، كانت بعض الدول قد تخلت عن دورها الإنساني، البعض أغلق الحدود وأقام السياجات الحديدية المكهربة، وهناك من قرر لا لن نستضيف أحداً. أما هذه المرة فالقضية تتعلق بأناس على حافة الموت، إنهم قد لا يعيشون إلى الغد.

في غضون يومين لا أكثر كان أربعة شباب قد فارقوا الحياة، لأن وضعهم كان معقداً.. الغرق وحده لا يمكن أن يفعل ذلك كان الأطباء يفكرون في ذلك، فثمة مسألة أخرى مجهولة، فما الذي يفسر تعرض رؤوس البعض للتهشيم كأن آلات حادة استخدمت في ذلك، هل تعرض قاربهم مثلاً للاصطدام بصخرة جبلية فكانت هذه النتيجة، يبقى هذا احتمال، وفي عالم يفتقد للنخوة كما فكر الطبيب الشاب، يمكن أن تحدث أشياء غير متوقعة.

هي بالذات كان قد اهتم بوضعها جداً، ليس لأي سبب سوى ذلك الغموض الذي جره نحوها. لم يسبق له أن أحب من قبل، في المستشفى هناك عشرات الطبيبات الجميلات لكنه يميل للجسد المشرقي، لرائحة المدن التي جاء منها مهاجراً منذ سنوات وهو طالب يدرس الطب هنا قبل أن يصبح أحد المحترفين لهذا المهنة ويعمل في مستشفى كل شاب مثله يحلم بأن يكون واحداً من طاقمه.

دبر مجموعة من الحيل إلى أن أصبح المشرف المباشر عليها، ليس الآخرين بهذا الغباء، فقد علموا بحاله وتركوه يعيش حبه الأول مع فتاة لا ترى ولا تتكلم. قد تفتح عينيها لثوان أو دقائق ثم تذوب في الغيب المجهول مرة أخرى، يراها وهي تنظر حولها مثل طفل حديث الولادة يحاول أن يستكشف المكان حوله ويفهم ما الذي يجري في هذا العالم، كانت بريئة ولطيفة في نظره وما وراء ذلك ليس إلا ما يصوغه خياله حولها، فليس من تأكيد أبداً، كيف ستجري الأمور لو أنها استعادت الوعي وفهمت كينونتها.

فكر بشيء من الانزعاج، هل سيكون لها حبيب ينتظرها، أو تنتظره، وهل ستكون هذه الحالة التي تمر بها في صالحه بحيث يتم إعادة تشغيل الدماغ ليستقبل حياة

جديدة ليس فيها من تفاصيل الأمس. بخبرته ومتابعاته اليومية يعلم أنه ليس بمقدورها استرجاع كل شيء سريعاً، يتطلب ذلك ربما ستة أشهر على الأقل وقد يستمر الوضع لسنتين، وهذا يصب في صالحه، تكون قد تعودت عليه وتعلقت به. كان يملك ثقة مفرطة لا يعرف مصدرها أنها ستكون له.

-4-

المكان: البحر الأبيض المتوسط.. سواحل اليونان
الزمان: بداية الشتاء.. 2014

يقاوم قارب صغير الأمواج، تتهادى به ولا يعرف الاستقرار. تبدو رندا غير قادرة على التماسك في هذه الهنيهات الخارجة عن قانون الزمن. تنهمر دموعها باكية وهي ترى النهاية.. ليس لديها تصور عن اللحظة القادمة، ولا تظن أنها سوف تبقى بعدها في هذا العالم الأرضي.

بين الموت والحياة واليقظة المؤقتة تسترجع صورتها في استانبول وهي تودع الشاب مجد رفيق دربها، وهي غير متأكدة هل أحبته بحق أم لا، هل كان الإنسان الوحيد الذي وقف بجوارها وواساها في رحلة عسيرة عاشتها بعد ذلك اليوم الذي انتهت فيه حياة العائلة.

ليلة سوداء.. لا تشبه الماضي السحيق والذكريات.. دموع تنهمر وتهاويم وأشياء غريبة لا يمكن فهمها.. رأت نفسها تقاد بواسطة رجال ملثمين.. يحملون بنادق الكلاشينكوف وهم يرمون بها في خلفية سيارة لها غطاء كانت مخصصة في الأمس للكلاب البوليسية فمثل هذه السيارات مألوفة لها. أيام كانت تعبر بها أمام مركز الشرطة القريب من مسكنهم.

كيف قتلوهما... أباها وأمها، تناثرت العظام تختلط بالدماء.. بالدموع.. كان تاريخ عائلة يتوقف لبرهة أمام هذا الغضب الإلهي العظيم الذي يحمله هؤلاء الحاقدون في قلوبهم. تتحسس روحها لا تجدها.. لا تعثر عليها.. لا تقبض على أي شيء، سوى الفراغ.. لغة الموت والنهاية.. لغة السراديب التي كانت تشاهدها في الأشعار.. كانت غاوية للشعر وللغناء.. وكانت تحلم بأشياء كثيرة كأن تكون شاعرة وأن تصبح مغنية كليدي غاغا.. مطربة حرة، تتنقل بين الفضائيات في كل يوم تبدو بمظهر جديد.. تصل مطارات العواصم العربية والعالمية فيستقبلونها بالملايين..

تتشرذم الأحلام والظنون بشأن المستقبل.. لا تعرف كيف تفكر في حقيقة ما جرى أمام عينيها.. تكاد تصرخ ثم تسكت نهائياً.. إلى الأبد.. غير أنه أبد مؤقت فهي لم

تمت بعد.. توقف القلب بسكتة مؤقتة.. أخذها الشاب بلطف، يبدو أن له قلب وضمير رغم كل شيء.. فكرت في ذلك بعد أيام وهي تجد نفسها داخل خيمة عسكرية مزروعة وسط منطقة ليست غريبة عنها.. لقد زارتها أو شاهدتها ذات يوم ربما في الحلم أو في الواقع أو في التلفزيون.

تستجمع صوراً متناثرة في دماغها المشوش، تحاول أن توقف حزنها بأي شكل فليس للبكاء من طعم بعد ما جرى، كان يقف أمامها الشاب الذي سيرافقها في رحلة محفوفة بالمغامرة إلى استانبول من أجل العلاج.

أخبرها أن اسمه مجد.. وهي إلى اليوم والقارب يداهم المجهول.. لا تعلم تماماً هل هذا اسمه الحقيقي أم أنه اسم استعاري، زائف. كذا لا تدرك هل أن القصة التي رواها من محض خياله أم أنها تصور ما جرى معه بالفعل..

"اسمي مجد عون، تربيت في بيت عائلة فقيرة من حلب، لا أعرف كيف جئتهم، يقولون إنني لا أب لي ولا أم، مسيح جديد.."

"أنت تهزئ يا مجد، هذا شعر وليس حقيقة ما تقوله؟"

ترد عليه وهي تبتسم ابتسامتها الفاضحة التي لا يقدر الرجال على مقاومتها.. تتحسس أماكن مفضوحة من جسدها.. آثار العصي التي ضربت بها في ليل بهيم.. ملامح من بقايا خربشة على صدرها وظهرها.. ومنطقة الألم الكبير الذي دوخها.. هل تعرضت للاغتصاب فعلاً منهم وهم يتبادلونها طوال الليل... إلى الفجر وبعدها قاموا ليصلوا الصبح حاضراً، يتقدمهم الإمام.. الشاب نفسه الذي كان قد تولى قتل أبيها.. ومن ثم فجّر أمها برصاص سريع أسرع من الصوت، توالى من البندقة الطويلة.. ليس لها أن تتصور المشهد من جديد.. هي لا ترغب أن تعيد تلك الآهات.. تريد أن تعيش حياة جديدة.. ستتعامل مع الأمس كما لو أنه حلم باهت غريب..

ينهض مجد من على طرف السرير الطبي، يحركه قليلاً ليسند لها رأسها لأعلى.. كأنه يراقب حجم الألم والأحزان التي تسكنها.. لكنه لا يتكلم.. تستطيع أن ترى دمعة، اثنين، ثم كمية تذرفها مقلتاه ثم يغادر إلى الخارج.. حتى لا ترى دموعه.. الرجال لا يحبون أن يظهروا ضعفاء.

في المساء.. سمح لها الطبيب أن تتحرك في الفضاء الخارجي للمستشفى.. مشت

ومجد يمسك بيدها بلمسة حنين، في حين لم يكن لها أي مشاعر اتجاهه. لقد قام بمعروف وأنقذها من الموت، ولكن ما قيمة الحياة بلا أهل.. لم تكن قادرة إذن على الصمود في مواجهة لعنة الانتظار بلا دموع.. بلا أحزان.

بكت وهي ترتمي على أحضانه.. تستعيد صورة آخر يوم.. الساعة الأخيرة قبل دخولهم.. كان المسلحون قد حاصروا الحي السكني القديم.. أصوات المدافع القوية.. براميل النار. القيامة تقترب.. والسيد القيسي يرفض الخروج، يسمى ذلك الهروب..

"مهما يكن لن أبرح هذه الأرض.. هنا ولدت وهنا أموت"

يقاوم الأوجاع.. ربما الذكريات لعظمة هذا المكان.. والأحلام المنسوجة بلا نهاية.. يحاول أن يبدو شجاعا إلى النهاية..

ناريمان هي الأخرى كانت شجاعة بالمعنى الحقيقي.. في رأسها هلاويس متداخلة ما بين اليوم وأول يوم خرجت فيه من البار الليلي بعد أن قرر الوالد القيسي "لا وألف لا.. حبيبة ولدي لن تبقى هنا في هذه المزبلة"..

وأخذها من يديها وسار بها إلى البيت الكبير للعائلة.. ولم تمض سوى شهور حتى مات القيسي الكبير ليبقى سليمان في مواجهة الأقدار وتنمية ثروة العائلة، ومع الأيام ومرور الشهور كانت هموم الحياة والواجبات بإكمال الطريق أكبر وأقوى من الأحزان.. مرت ذكرى الأربعين لوفاة الأب.. وهو حزين وبعدها كان جالساً لساعات طويلة في المصنع، ليترك أمر الكلية التي لم يكملها.. ولم تكن ثمة مشكلة فقد وصلته شهادة التخرج في البيت.. عندما وصل عميد الكلية ذات مساء يطرق بابهم وهو فخور بأن يسلمه شهادته.

لم يكن سليمان مهتماً.. كانت خواطر كثيرة تتنازعه.. الرغبة في المضي واقتحام جنون السنوات.. تعظيم مجد الجد أن يصبح مصنعهم الأول على نطاق سورية.. لديه أفكار كثيرة وكبيرة، لا تنقصه العبقرية.. يتوقف عن التفكير مع العنف المدوي الذي يجعل كل شيء يسكت إلا الحجر الذي تناثر.. انهار سقف أحد الغرف بلا مقدمات.. تناثر زجاج النوافذ والخشب وتهشمت الدولايب والطاولات.. البلاطات الاسمنتية كانت قد غطت الكتب التي تبقت لسليمان وأغلبها لم يقرأها حيث وجدت

فيها رندا ملاذها كباحثة عن حقيقة وسط الشعر والأدب وبعض من الجزء الثاني من شخصية والدها الذي كان من الممكن أن يكون بيكاسو جديد.. أو فان كوخ لو أنه استمر حياً.

"كان يرسم في بعض الأحيان.. لكن ليس بالإمكان استعادة واحدة من رسوماته الآن.."

يسمعها مجد. إلى الآن لا تعلم تماماً طبيعة مشاعره، هل يحاول تكفير ذنب رفاقه المسلحين، الجرم الذي فعلوه بهم.. ومن ثم تلك الليلة البائسة.. أم أنه يُكّن لها دفق حقيقي.. هي الآن في أشد الاحتياج إلى من يأخذ بيدها وهي تجد نفسها بلا رفيق في هذا العالم. تنظر إلى وجهه بقوة.. فقد شكت في أمر ما، هل كان واحداً منهم؟ يقرأ مشاعرها، فالأمر واضح.. يرد عليها وهو يقترب منها في إشارة إلى رغبة منه لاحتضانها، يكلمها:

"لا يمكن أن يحدث ذلك أبداً.. لا يمكن"

ثم يبكي.. تراه يبكي.. وهو يعدها بأن يكمل حكايته ذات يوم.. عذاباته ورحلة شقائه في الدنيا، وهو يختصر لها الحكاية:

"بالنسبة لي شخصياً الحرب بدأت منذ عقود طويلة.."

"عقود طويلة.. وكم عمرك الآن لـ...."

يصمت قليلاً.. يفهم أن السؤال ليس مهما في حد ذاته.. يجيبها:

"المأساة بدأت معي منذ أن كان أبي..."

يكون عليهما أن يجمعا الأحزان والذكريات.. يبدو لها الآن مجداً كائناً مجهولاً مغلفاً بقدر مؤلم.. بحزن مثلها.. سوف تغفر له إن كان أحد تلك الوجوه التي غطاها الظلام.. وهي على الأقل بدأت في تصديقه، لا يهمها إن كان كاذباً أم لا. إن كان يخدمها لأنه أحبها أم لأنه يقوم بتنفيذ تعليمات القادة.. المهم لها أن ثمة من يهتم بها الآن.. يلملمان كل شيء.. الجراح واللحظات الهاربة.. ثم يعودان.. يتركها مجد لأنه لن يكون في الغرفة بالمساء.. فممنوع أن يبقى أحد سوى المرضى.. لا تعلم إلى أين سيغادر، وهذه المرة كغير المرات السابقة لديها حب استطلاع كبير لكي تفهم.. بدأت تشعر بأن هذا الكائن جزء منها.. وهذا ذاته قد لا يكون حقيقياً.. قد يكون جزءاً من مأساة تشبه الحلم.

-5-

المكان: قطار بودابست.. هامبورج..
الزمان: بعد منتصف الليل.. التاريخ غير محدد!!

لم تكن الشابة البريطانية كاثرين جونز قد استسلمت للنوم بعد، عندما فتحت العربة المخصصة لنقل المرضى المغمى عليهم وتم إدخالهم.. وهم مغطون كأنهم قد استسلموا للموت. وكان عليها أن تقاوم النعاس إلى الفجر لتقوم بمهمتها كممرضة تعمل ضمن الفريق المتطوع المكلف بنقل المجموعة إلى ألمانيا للعلاج.

لأن كاثرين تحب عملها جداً فقد شعرت بهمة ونشاط كبيرين، مع تعبئة عربة القطار بالمرضى، ولم يكن لها الوقت الكافي للاستغراق في باقي التفاصيل التي انهمكت فيها مع زميلتها السودانية التي كانت تجلس بجوارها قبل قليل، واختفت لدقائق وستعود قبل أن يتحرك القطار، فقد ذهبت لشراء بعض الساندوتيشات لإحساسها بالجوع. كانت لا تعرف كيف تقاوم أفات البطن أبداً.

بعكس كاثرين صغيرة الحجم والتي تبدو كصبية، رغم أنها تجاوزت الثلاثين من عمرها، كانت ماليدا عمر، شابة ضخمة الجسم مربوعة، قوية جداً.. كأنها تستعد لدخول حلبة ملاكمة.. وكانت كاثرين تداعبها كثيراً على أن ذلك دليل كاف أن بلدها الذي يظهر في شاشات التلفزة على أنه مبوء بالمجاعات والحروب، غير ذلك..

"ليس لبلد جائع أن..."

تضحك ماليدا وتضرب بقوة على ردفيها الكبيرين، بعناية فائقة، قبل أن تكرر الأمر ولكن على قفا كاثرين التي تواصل هي الضحك. وتبدأ في الأعمال الجادة. تقوم ماليدا بتصوير وجوه المجموعة واحداً تلو الآخر.. ثم تسجل في جهاز اللابتوب الصغير بعض المعلومات، تأخذها من المتطوعين الذين رافقوا الرحلة.. شباب جاؤوا من عدة مدن أوروبية ومن قارات مختلفة من العالم.. سيكون عليها أن ترتب كل هذه الأفكار والصور اللاحقة التي سوف تأخذها لفريق المتطوعين وزوايا مختلفة من داخل عربة القطار تضيف لها صوراً سابقة للمحطة وعملية إدخال النقالات وعليها اللاجئين الذين نجوا بأعجوبة وإن كانوا لا يزالون في عداد الموتى، إلى أن يقرر الطب بشأنهم.

تشرف ماليدا على الموقع الإلكتروني الخاص بتحالف European league of Immigration Volunteers (التحالف الأوروبي للمتطوعين من أجل اللاجئين) الذي أنشيء منذ مطلع 2014 بهدف إعانة اللاجئين القادمين من آسيا وأفريقيا ودول الشرق الأوسط المتضررة من الحروب والأنظمة المتسلطة، وتحرر المادة على الموقع باللغة الإنجليزية بدرجة أولى ومن ثم الألمانية فالفرنسية حيث يتولى آخرون متطوعون الترجمة.

تراجع ماليدا الصور على الكاميرا الصغيرة، ثم تبدأ في وصلها بالجهاز.. وهي تكرر التوقف عند وجه الشابة العربية فسحناتها واضحة لا تحتاج لدليل غير أنها لا تحمل تأكيداً جازماً هل هي سورية أم عراقية أم من بلد آخر.. لديهم خبراء هنا يعرفون ذلك، يمكن لهم أن يفهموا من تقاطيع الوجه إلى أي بلد تنتمي، رغم أنه في بعض المرات تكون التقديرات خاطئة. فماليدا نفسها تبدو لمن ينظر إليها أقوى دليل على ذلك، فمظهرها الخارجي يشير إلى شابة ملامحها من غرب أفريقيا، بحسب ما حلل الأمر أحد هؤلاء الخبراء عندما انضمت قبل شهرين للعمل بالمنظمة، التحالف. أخبرها:

"أنت من غانا.. على الأكثر من ساحل العاج لو تحركنا غرباً"

ابتسمت كاثرين فهي رفيقة ماليدا وقد عاشتا سوياً برفقة محببة في لندن، فقد نشأتا في حي واحد.. بل في بناية واحدة في وايت سيتي غرب لندن، في شقتين متقابلتين من الطابق السابع.. ترافقتا كطفلتين، تتسابقان في السلالم والمصاعد بالبناية، وتشغيل إنذار الحريق أحياناً لتفضحان هدوء البناية الشكلي ليبدأ الزعيق وخروج البعض عراة لأن ذلك خير من مواجهة الموت. وفي أحد المرات تم اقتيادهما إلى الشرطة بأكثر من تهمة ثم أفرج عنهما بعد أن كتب والداهما تعهدين بعدم تكرار ذلك لأن البنتين لم تبلغا سن التكليف القانونية.

قالت كاثرين توضح للرجل العجوز.. كان يرتدي شورتاً أزرق وقميصاً مورداً.. وقبعة حمراء.. كأنه أرجوز في ملهي ليلي:

"هي من السودان..."

شعرت ماليدا ببعض الغضب المكتوم.. وردت:

"أنا بريطانية.."

تنزعج ماليدا مرات من إحساسها وصفها بكونها سودانية، رغم أنها تعلم أن كاثرين تداعبها ليس إلا، فهي لا تتقصد ذلك. ربما كان لها الحق في ذلك فهي لم تزر السودان أبداً، علاقتها به قائمة على افتراض.. شاشات التلفزة ومواقع الانترنت والصورة الإعلامية.. وبعض الأحاديث التي تتناول الماضي ما بين والدها عمر ووالدتها زينب التي لم تعد هي الأخرى إلى هناك منذ أن جاءت عروساً لعمر الذي يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية كمحرر أخبار متخفي. فليس له ظهور حقيقي في العلن ولم يحدث أن ذكر اسمه في التقارير الإخبارية، ليس لأنه يرغب ذلك، بل شخصيته الضعيفة جعلته يتنازل عن حقوقه في أكثر الأحيان أمام المدراء الذين يريدون الظهور بأي شكل كان على أنهم الصناع الحقيقيون للإبداع، حتى لو أن ذلك كان زيفاً. وكان البريطانيون يعلمون ذلك لكنهم يمارسون الصمت ما دام عمر لا يدافع عن حقه. وعمر لم يكن مهتماً بسوى راتبه الشهري.

أكثر من مرة ذهبت ماليدا إلى داخل مبنى الهيئة البريطانية مع والدها الذي يقابل باحترام مزيف، كانت الصبية الصغيرة لديها الذكاء الكافي لتكتشف ذلك غير أنها لم تعلق، لإيمانها بالمبدأ البريطاني.. الحرية الشخصية.. فقد تشبعت بقيم المجتمع الجديد الذي انتمت له، وهي لا تعرف سواه.. كما أن علاقتها مع مجتمعات السودانيين كانت ضعيفة جداً لأن والدتها كانت تفرض حصاراً باتجاه ذلك ولا تسمح لها بمصاحبة سوى كاثرين وأمثالها.

ربما كانت كاثرين أكثر الناس الذين يفهمون طبيعة شخصية ماليدا، كذلك نظرتها القاسية باتجاه والدها الذي تراه شخصاً انهزامياً ليس له من هدف في الحياة سوى أن يأكل ليعيش إلى الغد. رغم أنه مرات كان يعيد قصصاً عن أمجاد قديمة لم تكن كاثرين متأكدة وهي تسمعها مع ماليدا وهما في بيت عمر، إن كانت تلك الحكايات بجد أم ملفقة. كان الرجل الطويل والقوي الذي ورثت منه ابنته تلك الهيئة، ينهض ليقرأ قصيدة عصماء وهو يحرك ساعديه بقوة ويندمج في الأمس القديم. يتكلم عن النضال ونهاية عهد الظلم وانبثاق الفجر الجديد، ونهاية الديكتاتورية.. وكيف أنه سيحمل سيفه ويقاتل الأعداء بهذا البتار.

لا تفهم كاثرين المعنى ولا ماليدا التي لا تجيد اللغة العربية سوى بعض العبارات المتناثرة من اللهجة السودانية، غير أن الثائر القديم عمر الأزرق يقوم بترجمة القصيدة، كان

يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلكنة محببة للبريطانيين، تتكامل مع شكله الخارجي، وكان إذا ما ارتدى الزي الافرنجي بخلاف العمامة السودانية والجلباب وقد غادرهما منذ سنين طويلة، يبدو أشبه ببيليه ملك الكرة المعروف، الفرق فقط في الطول فقد كان الأسطورة الكروية أقصر قامة من عمر.

تقوم ماليدا بترتيب الصور ومن ثم تختار منها ما يصلح للنشر، لتحمله على الموقع الإلكتروني، في حين كان القطار يقترب من المدينة المضيئة بأنوار ملونة. كان ثمة إحساس لدى كاثرين أن ماليدا في هذا اليوم هي غير تلك الفتاة التي تعرفها، كان ثمة حزن كبير يملأها، هل هي هذه المناظر المؤلمة، فهذه أول مرة يشرفان فيها على رحلة مع أناس شبه موتى فعملهما في الفترة السابقة كان يقتصر على التجول في معسكرات اللجوء الثابتة.

قبل أن يتوقف القطار تماماً.. تقيأت ماليدا كثيراً.. كان لدى كاثرين إحساس مختلف هذه المرة.. غير أنها ليست متأكدة أبداً من دقته.. أمسكت ماليدا بأسفل بطنها، وهي تطلب من رفيقتها أن تعينها على الجلوس ثم الاستلقاء على الكنبة المبطنة، قبل أن تستسلم لما يدور في ذهنها من مشاهد غامضة عن تلك الليلة التي قضتها قبل ثلاثة أشهر، في الفندق مع الشاب السوداني الذي تعرفت عليه في البندقية ومن ثم لاحقاً في روما، لتنضج بينهما قصة مثيرة لا يمكن تعريف هويتها..

-6-

المكان: مركز الاستقبال.. جزيرة لامبيدوزا.. إيطاليا
الزمان: بعد منتصف الليل.. قبل حلول الشتاء 2014

قام سلاح خفر السواحل الإيطالي بمحاولات كبيرة تمخض عنها إنقاذ حوالي عشرين من الذين أخذهم البحر، قبالة سواحل الجزيرة، وهم الآن في طريقهم عبر زورق صغير متوسط الحجم، يمخرون عباب الماء باتجاه مركز الاستقبال المؤقت حيث يقيم حوالي سبعمائة من اللاجئين، أغلبهم من سوريا والقرن الأفريقي والسودان. كان رجال الأمن في المركز لطيفين جداً وهم يستقبلون المجموعة الأفريقية، في حين كان الشباب المنهكين قد رقدوا سراعاً على الأرض كأنهم يقتربون من نهايتهم. لقد مضت ساعات قاسية منذ أن تم إنقاذهم من القارب الغارق.

كانت ماليدا تسمع الحكاية من جعفر السوداني، شاب طويل يتمتع بأناقة كبيرة رغم بؤس حاله كما يظهر من شكواه المستمرة.. شكله يعطيه مظهر عارض أزياء، تتخيل ماليدا ذلك وهي تنظر إليه، يعطيها بشكل تام مواصفات الرجل الذي ربما فكرت أن تحبه ذات يوم. ربما لأنه بدرجة ما يكاد يشبه أحد زملائها في كلية جولدسميث حيث تلقت دبلوماً في الدراسات الاجتماعية والإعلام، ذلك الشاب الأسمر الأمريكي الأصل الذي جاء مع عائلته التي تعمل في استيراد الذهب من جنوب أفريقيا واتخذت من لندن مقراً لها.

لم يكن نيك مايكل في حاجة للدراسة، فلديه الكثير من المال، ويصرف على نفسه ببذخ، غير أن الحياة لم تتركه يعيش طويلاً لكي يحقق آماله، فقد مات فجأة في كيب تاون في إحدى الرحلات السياحية عندما انقطع حبل العربة المتحركة التي تحمل الناس من أسفل لأعلى جبال منضدة الطاولة التي تقع في أعلى نقطة منها الزاوية المميزة لرؤية رأس الرجاء الصالح. كان حادثاً مؤلماً، ولم تصدق ماليدا ما تسمع. لقد أحبته من طرف واحد، وهي تدرك أنه غير مهتم بها فلديه من يهتم به بدرجة أكبر منها.

ومضت ليال طويلة قبل أن تتخلص ماليدا من صورته في ذهنها، ساعدها على ذلك انشغالها بتحضير مشروع تخرجها حول أثر الميديا الجديدة في تشكيل رأي عام حول قضايا اللجوء للمملكة المتحدة، كانت القضية مثار انشغال كبير للرأي العام البريطاني، في ظل أوضاع اقتصادية متردية وتعرض اليورو لخطر التراجع المفاجئ. وقد ساعدها هذا البحث بالتحديد في أن تصبح دون تفاصيل كثيرة عضوة فاعلة في التحالف الذي تعمل معه الآن.

يتكلم جعفر ببطء.. وهو يروي كيف أنه قرر أن يغادر السودان إلى ليبيا في رحلة عبر الصحراء، ومن ثم كان الانتظار الطويل في سرت إلى أن تم تجهيز الرحلة إلى إيطاليا، وكيف أنه كان قد واجه الموت مع زملائه والساعات التي انفلت فيها خارج الزمن وهو يرى شبح عزرائيل وجهاً لوجه يقتلع روحه مثل جذع شجرة عن الأرض.

لم تفصح ماليدا عن هويتها للشاب جعفر، بريطانية بأصول سودانية، فهذه نقطة حساسة لها وتشعرها بالارتباك وقد لا ترغب في أن يعرف أحدهم ذلك. ورغم ذلك فهي قد انجذبت له، هذا الشبه الواضح بينه ونيك كان مزعجاً للحد البعيد، وهي تكلم نفسها إنه حتى إذا جاء الحب، يأتي مع هذا السوداني، فهي لا تحب أن تنتمي لهذا البلد. إنه قصة أخرى طويلة وغامضة. لا مجال للاستغراق فيها الآن. وعلى أي حال سيكون عليها أن تنسى هذه القصة لتبدأ في تسجيل القصة الإخبارية لنشرها في الموقع الإلكتروني. فهي المرة الأولى التي تلتقي فيها لاجئاً أفريقياً.

روى جعفر أن المافيا الليبية لم ترحمهم أخذت الكثير من المال، قبل أن تتم العملية فعلياً.. كان ثمة وسيط يأتي كل يوم يمارس الابتزاز يأخذ الدولارات التي مع الشباب ثم يمضي. كان هناك عشرة سودانيين آخرين معه وإريتريين وشاب واحد من جيبوتي ومن الصومال كثر لا حصر لهم.

"وكيف كنتم تحصلون على المال.. هل كنت توفر شيئاً؟"

تسأله، يرد بإنجليزية ركيكة:

"لا أبداً.. كنا نعمل بالنهار في الميناء ونحصل على المال وعلينا في الليل أن ندفعه لهذا الوسيط"

"هل كنتم واثقون أنكم سوف تصلون إلى هنا؟"
"نعم.. ولكن لم أتصور أن الرحلة ستكتمل بهذه الشكل المؤلم، بعد أن أفقد كل رفاقي التسعة"
يشعر ببعض الحزن، يبدو ذلك جليا في وجهه، لكن من وجه آخر يتجلى فيه فرح مغلف أن وصل إلى هذه الجزيرة، وهو الآن بعيداً عن أي تهديد، يواصل:
"كان معنا أطفال ونساء، لا أحد نجا، الأطفال والنساء الأسرع في الغرق، مثلنا يمكن أن يقاوموا.."
كان يتذكر البارجة الإيطالية وهي تحوم من بعيد في البحر، ترسل إشارات ضوئية، كان ثمة صرخات مكتومة، تحاول أن تقاوم لآخر نفس ممكن.. وكان خائفاً خوفاً شديداً، أن لا تراهم أو تصل.. كان بجواره صبي صومالي ربما لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بعد. أخيراً وصلت البارجة وانفتح الأمل من جديد.
"... كان ما تبقى من القارب ملجأ لنا.. في حين كانت فلاشات الموبايل هي التي أنقذتنا في الواقع..."
يكمل كأنه غير مهتم بأنه موجود:
"أمضينا وقتاً في البارجة إلى أن وصلنا الجزيرة، لا أعلم كم كان بالضبط!"
في روما سوف تلتقيه من جديد.. كيف وصل إليها هذا الشاب المغامر؟ إنه يبدو كشيطان، وهل ظل يلاحقها، لا تفهم بالضبط. وكانت سعيدة على أي حال ولم تهتم بأن تعرف التفاصيل، فالآن ليس وقت العمل ولا التقارير.. سيكون عليها أن تتفرغ قليلاً لروحها وحساسيتها الشخصية، ما تخبئه مشاعرها الخفية. لكنه أسرع لإخبارها:
"المافيا موجودة هنا أيضاً، لقد هربنا من المركز وتم نقلنا بسرية تامة في لنش صغير لكنه سريع جداً"
أيضاً لم تهتم ماليدا بتفاصيل ذلك، كانت تنظر إليه وهي تعيد صورة نيك كيف أنه مات، وتشعر بألم كبير تتخيل أن العربة التلفريك تسقط أمامها الآن للتو.. وتحس بانقباض قوي، قبل أن تغادر صالة الاستقبال في الفندق الذي يقيم فيه وفد المتطوعين. يتبادر لذهنها أن جعفر كان يعرف أين هي بالضبط، ولا تسأل أيضاً.
بمثل ما كانت تشعر بالانجذاب اتجاهه كانت لا تريد أن تقيم علاقة معه ولا أن تراه

مرة أخرى لأن ذلك مرير وصعب.. وانزوت سريعاً وراء أحد محلات بيع الملابس النسائية قريباً من الفندق، لتجده يحدق فيها من بعيد، كان يراقبها ويتلصص عليها بقوة.. وكان ثمة ما تقوله عيناه. وبدأت هذه المرة جريئة، أخبرته:

"مستر جعفر، ماذا تريد مني؟ لقد انتهى عملنا المشترك.."

"أريد أن أخبرك أن التقرير وصوري الآن تشغل الجميع في السودان"

قالت له دون أن تفكر، وقد ترددت بعدها كأنها أخطأت:

"لا يهمني.. لا أقوم بذلك لأجلي. بل لأجلك.. لأجل قضية"

ضحك الشاب بافتعال، كأنه يريد أن يخبرها أنها كاذبة.. قال:

"سأصدقك هذه المرة. ولكن ليس دائماً"

كان ما كان من انفعالات كاذبة يمارسها كل ضد الآخر. وفي نهاية يومين من اللقاء، جلسا سوياً في مقهى قريباً من الفندق. حدثها عن الوجه الآخر له.. أنه يبحث عن من يساعده للوصول إلى لندن، لهذا أرادها أن تخدمه. لم تفاجئ كثيراً. وأحبت صراحته، فقد جعلتها تثق فيه أكثر. لم تكن كأبيها كثيرة الشك في الأشياء من حولها، كان لديها الشجاعة لتجريب أشياء وأشياء والوصول إلى النتائج مهما بدت قاسية أو مهملة.

خلال أسبوع أجرت اتصالات لتساعده، وظفت معارفها وخبراتها.. وحبكت له الطريقة، دون أن تسأل نفسها لماذا تفعل ذلك. وانتبهت أن ذلك الموضوع شغلها عن عملها الأساسي فخلال هذه الأيام لم تقم بتحرير أي تقرير أو خبر جديد لموقع التحالف. كان ذلك يضايقها لكنها كانت مهتمة بما يتكلم به قلبها أن ثمة شيء رائع وراء الأفق ليس لها أن تحدد ما هو بالضبط، فقط عليها الانتظار.

أجرت مكالمة بكاثرين التي كانت في أثينا، منذ تفارقتا قبل أسبوعين تقريباً.. هي جاءت إيطاليا وسلكت صديقتها الطريق إلى العاصمة اليونانية لأن عليها أن تنجز مهاماً أصعب هناك. فالكثير من اللاجئين يصلون في أوضاع عسيرة يتطلبون العناية والظروف في اليونان لا تتطلب الكثير من الحكايات، كانت الأوضاع سيئة جداً. كان البلد الذي وهب العالم الفلسفة والحكمة يتضاءل أمام سطوة القروض المالية والمصارف التي باتت تحكم الحياة بديلاً عن الكلمات الطيبة.

"..أشعر كما لو أني أطير، أنا فرحة جداً"

سمعتها كاترين، ضحكت كثيراً، قبل أن تخبرها:

"أحياناً يكذب القلب يا ماليدا.. أنا أعرف قلبك أكثر منك"

كان ثمة ضجيج حول كاترين، متظاهرون يعبرون ساحة في منتصف العاصمة اليونانية. لا تسمع ماليدا جيداً، تنهيان المكالمة تبقى الأيام حبلى بالمفاجآت.. الجنون والقلق الأبدي الذي تفرضه طبيعة الحياة الإنسانية.. الأشواق والمجهول. كانت ماليدا تولد من جديد كأنه حب ينمو في القلب، يشرق ذلك الوجه الأسمر مرة أخرى من بين الهضاب الأفريقية البعيدة أعلى جبل الطاولة.

-7-

المكان: جزيرة كوس اليونانية
الزمان: فجراً.. قبل حلول شتاء 2014

كان الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يضع يديه على كفتي الرجل القوي في القارب السريع، يمسك به أحد الرجال، ويجره بقوة إلى أعلى، يبدأ في التنفس كأنه عاد من عالم آخر، فقد رأى عوالم غريبة حوله، يخال له أنه دخل الموت فعلياً. كان قد قضى ثلاث عشرة ساعة طافياً يتقلب فوق الماء طوال نهار وعصر أمس وليله، إلى الفجر عندما تم إنقاذه من قبل مجموعة السياح الذين كانوا على متن قارب بالقرب من الجزيرة. رأوه من على البعد، اختلفوا في البداية ثم اتفقوا أنه بني آدم.. جثة في الغالب. ثم اكتشفوه أخيراً أنه حي يرزق.

يفتح الرجل عينيه الصغيرتين إنه على مشارف أوروبا.. بل في أوروبا الحلم.. إنه لا يحلم.. إنه في الواقع.. يكلم نفسه، ينظر إلى المرأة التي تقف أمامه.. لا يعرف كيف يحدد ملامحه، فالرؤية لا زالت مشوشة. يكاد الرجل ينسى كل شيء.. فهو لا يتذكر من أين جاء؟ ولا اسمه؟ ولا بلده! ولكن لابد من الصبر عليه بعض الوقت.

هكذا أوصي رجل يوناني متقدم السن كان يشتغل خبازاً ومع الأزمة التي ضربت البلاد لا يعرف ماذا يفعل، سارع للتطوع في تحالف شبابي لإعانة اللاجئين، لأن بإمكانه أن يحصل على الخبز مجاناً، ربما ليس وضعه بهذا السوء. لكن أحياناً للأقدار أن تجعلك خائفاً جداً وأنت لا تملك المبررات لما تقوم بفعله أو ما تفكر فيه أساساً.

"إنهم يقدمون ثلاث وجبات في اليوم.."

"هذا كثير جداً"

يرد على السيدة التي أخبرته بهذا السر وعليه أن لا يخبر أحداً.

كانا يجلسان في مقهى قديم بالجزيرة التي جاءا إليها في سنوات الغرام الأولى، لم يكن ثمة أفق ضيق وقتذاك كانت السماء مشرعة للآمال الواسعة. الآن كل شيء مسدود ولا يحتمل. البلاد التي كانت رحبة باتت لا تطاق. يفكر الرجل وهو ينظر إلى حبيبته التي شارفت على السبعين، هو أكبر منها بخمس سنوات يعني في الخامسة والسبعين.

غير أنه ليس متأكداً فليس لديه شهادة ميلاد تثبت ذلك. فقط إذا سئل سيجيب بذلك. تقودهما كاثرين إلى المعسكر المؤقت الذي ستصدر السلطات قراراً بإزالته بعد أسبوعين، لا مكان للاجئين في بلد يتعثر فيه الرزق. يخبرها الرجل العجوز: "في الماضي كان هذا البلد جنة.. لكنهم خربوه!"

تريد أن تعرف الإجابة لكن لا وقت الآن للأسئلة الفلسفية ولا التدبر في الاقتصاد الذي يهلك العالم، أمامها واجب إنقاذ بعض الذين تم إحضارهم على الشاطئ إن كان هناك بقية أرواح تسكنهم.

يهمس العجوز لزوجته:

"إنهم يأتون إلينا.. وليس لنا من سبيل سوى قبولهم ولكن ماذا سوف نمنحهم إذا كنا على حافة الفقر"

لا تريد السيدة أن تسمع كاثرين هذه الأباطيل، تسميها أباطيل فهي ما زالت ترى صورة بلدها القوي الذي كان ذات يوم يدفع الملايين للألمان، الآن تنعكس المشاهد، هذه هي الحياة.. الأقدار.. ولأنها مسيحية مؤمنة فقد رضت بالقدر الإلهي ثم صمتت وهي تحرك شفتيها بهمس:

"فضلاً.. كفى"

يجرّون الآن الرجل المغمى عليه. الذين يتعلق دماغه بذكريات غامضة.. خليط من الأشياء غير المفهومة له. أين هو بالضبط.. نعم في أوروبا هذا هو الأمر المؤكد الوحيد. يسمع الحوار الذي يدور بين الفتاة التي تقف أمامه بالضبط وآخرين، وهي تحقنه بمادة مخدرة.. يسكن معها جسده ويتراخى دون أن يفقد الوعي..

"إنه عربي.. لابد أنه من ضحايا الحروب الكثيرة في بلادهم"

"يقولون إنهم صنعوا ثورات عظيمة في الأعوام الماضية، أين مضت بهم؟"

يكاد العجوز يتثاءب.. يحس بجوع شديد وأوجاع في مفاصله، بيد أن عليه أن يكمل العمل.. العمل الذي لا يدري ما هي طبيعته بالضبط.. لقد وقّع على الأوراق وأنه سوف يتطوع.. دون أن يفهم هوية هذا التطوع المطلوب. كاثرين تدرك ذلك، وهي قد مرت بشتى أشكال البشر من هذه النوعية وغيرها.. إنه الفقر والجوع يصنعان منك إنسانا آخر، يذهبان بالحضارة إلى الحضيض.. الجائع لا يتورع.

تأخذ العجوز جانباً تقوم بتهدئته بحقنة هو الآخر. في حين أن زوجته كانت مشغولة بتجهيز مجموعة من ساندويتشات الجبن والبيض بالخبز المحمص، لابد للفريق أن يتناولوا الطعام وإلا ماتوا.. لا شيء يقتل سوى الجوع.. في زمن غير هذا كانت لها مهارات كأن تكتب أو تغني أو تمثل في المسرح.. وفي طفولتها كانت بارعة في أشياء كثيرة.. تناثرت الأحلام مع الأيام.. وتتذكر الآن بدقة مسرحية "الجوع" التي قامت بتمثيلها في مسرح المدينة الجامعية المأخوذة عن رواية الكاتب النرويجي كنوت هامسون.

بطل الرواية كاتب يعجز عن أن يصنع حياته من خلال الكتابة، فهي لا تتركه يهدأ، لأنه يجوع.. في النهاية يقرر الإبحار في سفينة بحثاً عن حياة أفضل.. ألهذا السبب يهاجر هؤلاء الناس، أم أنها الحروب.. ومن قال إن الجوع ليس حرباً شعواء وقاسية؟ تستعيد صورة تلك اللحظات وهي على المسرح، وهي تصرخ مؤدية دوراً هامشياً في المسرحية، لأنها غير مقنعة بالنسبة للمخرج الشاب الذي كان هو زوجها الخباز لاحقاً.. الذي فشل هو الآخر أن يكون كاتباً فأصبح خبازاً ومزق كل الكتب التي كان يمتلكها ذات يوم.. كما قرر أن يغادر العمل في المسرح إلى الأبد، فبالنسبة له الفنون لعنة إذا لم تفلح في الاستفادة منها.. أن تعيش بحق من وراءها وإلا أصبحت مجنوناً.. الجوع تركه يصبح خبازاً.. وفي ظرف وجيز حقق ما لم يحققه من خلال هوسه المسرحي.

ربما لا أحد يتذكر تلك المشاهد المنسية من تاريخ الآخرين.. لا أحد سيهتم إن هناك رجلاً كان من الممكن أن يصنع تاريخاً من خلال التأليف والإخراج المسرحي، كان بارعاً بلا شك.. ليس لدى السيدة العجوز أدنى شك في ذلك. تلف السندويتش الأخير بعناية فائقة، وتتذكر أنه يخصها، تشرع في قضمه بنهم كأنها فريسة تأكل صيدها الثمين. كان المسرحي الفاشل ينظر من وراء الإغماءة التي حاصرته من وراء الحقنة القوية.. يبدو أن كاثرين قد أخفقت في تقدير الجرعة. يحملون اللاجئ مع رفاقه إلى غرفة دافئة فمع اقتراب الشتاء يلفح الصباح الباكر بنسمات باردة جداً.. ثمة لافتة مكتوب عليها "توفير الطاقة ضروري".. تتذكر كاثرين أن الشمس قد أشرقت ويجب إطفاء المصابيح..

"كل شيء الآن يخضع للتوفير.. ابنتي"

تقول السيدة العجوز، تقضم مرة ومرتين.. ذكريات المسرحية لا تغادرها.. تمتزج لديها

الآن مع الأيام الأخيرة قبل أن تقوم هي وزوجها بإغلاق المخبز وبيع شقتهما المتبقية للإقامة في فندق عتيق في أحد الأحياء الطرفية في أثينا.. ليس لهما ما يقومان به سوى الأسى والمضاجعة النهارية كأنهما يخرجان من بين سطور رواية "الحب في زمن الكوليرا" لماركيز.. يقوم العجوز بواجبه بعناية فائقة رغم أنه لا يتناول سوى وجبة واحدة في اليوم.

"ما تم ادخاره في سنين الشباب يعود إلينا الآن"

يضحك مع نفسه أمام المرآة في الحمام، وهو يتأمل سيدة عارية تقف أمامه ليس لها من ذلك الجسد الجميل في الماضي.. والآن يفتح عينيه ليرى كاثرين من جديد.. يشتهيها كما لو أنها تشبه فاسيليكي حبيبة عمره الأولى وإلى الأبد.. ينهض يعاين حوله ليرى أن الشمس الجديدة تشعره بحيوية فائقة، لا شيء في هذا العالم أجمل من فاسيليكي.. حتى لو كانت ثمة فتاة إنجليزية جميلة.. يقول لكاثرين:

"تبدين جميلة.. لكن حتى النساء العجائز جميلات أيضاً"

ترمقه فاسيليكي.. تضحك وهي توزع السندويتشات على اللاجئين داخل الغرفة.. يوجد أكثر من عشرة رجال الآن ينهضون، بعد أن عادوا للحياة.. اللاجئ الغريب الذي يجهل من أين جاء، بدأ دماغه في العمل، يتذكر أنه ذات يوم كان هنا في هذه البلد.. ليست هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى أوروبا.. بل أن هذا الوجه الذي أمامه ليس غريباً عنه.. يرغب في أن يكلم الخباز.. ليفصح له عن بقية القصة.. ثم يصمت لأنه إذا كان الدماغ مشوشاً فقد يتخيل أشياء لا وجود لها أبداً.

تشعر فاسيليكي بذكائها الحاد أن هناك ما يجري أمامها وعليها ألا تجهد نفسها كثيراً لأجل اكتشافه.. تناول الرجل الذي ربما كان في منتصف الأربعينات من عمره تقريباً الساندويتش.. يتذوقه بعناية كأنه يقرأ تراتيل توراتية.. الآن يتفتح الدماغ شيئاً فشيئاً مع تلاشي أثر الحقنة المخدرة.. يبتسم وهو يعيد النظرات باتجاه الخباز.. ثمة أشياء كثيرة يرغب في قولها لهذا الرجل، ولكن هل سيكون مقنعاً.. هل يمكن لذاكرة كل منهما أن تكون صحيحة وحقيقية.. ينهمك في الأكل.

* * *

هذه رواية بطلها الوهم، ليس من روايات أبطالها الوهم إلا وترسخ في الأذهان كثيراً، جداً، أحياناً يكون للوهم أن يؤسس خيالنا، بل يجعله شفافاً ورائعاً وقادراً على رؤية ما وراء الحجب الكثيفة التي تصنعها الأزمنة القاسية.

تنفس الشاب عميقاً في الصباح، ليس له من عمل محدد وهو يفكر في صديقه كيف مات؟ بالأحرى كيف انتحر؟ وهل انتحر حقيقة أم قتلوه؟ فهناك أكثر من رواية ملتبسة، الأمر الوحيد الذي يمكن له أن يفهمه جيداً أنه كان مضطرباً نفسياً في الأيام الأخيرة وهو يحادثه عبر الماسنجر بالفيسبوك في فترات متقطعة.

قبل أن يقرر مغادرة الخرطوم، لم يكن كذلك، يظن ذلك وليس متأكداً، فهو مرات كثيرة في السنوات الأخيرة بات مضطرباً كذلك، لا يعرف كيف يحدد بعض الوقائع بدقة، كما لا يعرف أن يسمي حالته هذه، كما لم يذهب إلى طبيب أو يفضفض لأحد عما يحدث معه، ويعتقد أن ذلك ليس له من سبب سوى الملل والإرهاق البدني، فهو يعمل لساعات طويلة خبازا في فرن ليلي، وينام أغلب النهار.

يخرج في الظهيرة إلى الدكان المرافق للبيت الذي يقيم فيه مع عشرة آخرين من أولاد البلدة التي جاء منها، من الشمال، يشتري حصته من السجائر ومرات زجاجة كوكا كولا، التي يحبها أكثر من البيبسي، فهو لا يحرك فيّه مشاعره القديمة، على العكس تذكره الكوكا كولا بأيام الجامعة وأعوام مضت، قبل أكثر من سبع سنوات كان طالباً مجتهداً يستعد للتخرج في كلية المختبرات ليصبح مساعداً لطبيب في أي مستشفى كان. في أي بقعة من هذا الوطن العريض، ولم يتحقق حلمه إلى اليوم. حصل على وظيفة مرة أو مرتين ولم يستمر فيها، قد يكون حظه هو السبب أو قدره. لا يعرف الفرق. ما يعرفه هو أن الراتب لا يكفي، وما يوفره له اليوم عمله في الفرن أكثر بركة.

لغة البركة تعني بالنسبة له، أن المال يكفي على الأقل لمنتصف الشهر ثم تستدين للنصف الثاني ويستمر المسلسل التركي. يكون عليك التدرب الكافي على هذا

العذاب الإجباري. كان يشرب الكوكا كولا هو وصديقه، يسيران معاً في ردهات الجامعة ودهاليزها.. يطأن الأعشاب التي فقدت نضرتها، يستمعان لأركان النقاش المضطرمة التي ينتهي بعضها بالسكاكين والمطاوي والمطاردات الليلة والقتل بعض المرات.

الظروف السياسية خانقة والحياة مملة لحد كبير، لا شيء تغير إيجابيا منذ تلك الأيام إلا القليل كأن يزداد شعره بياضا، لحيته باتت غير مشذبة أغلب الوقت، لا يهتم بها ولا شاربه الكثيف، ولا روحه، ذلك العالم الداخلي الذي يسكنه، لا يقف معه ولو لبضع ثوان ليسأله من يكون هو وماذا يريد بالضبط؟! يتذكر أنهما ضمن زملاء آخرين، لم يكونوا سياسيين ولم يهتموا بالسياسة، لكنهم كانوا يهتمون بالقراءة، مثقفين يعشقون الكتب والقصص والروايات والأشعار، ويقضون ساعات في التأملات الفلسفية والفكر، ترتفع الأصوات في داخلية الطلبة ثم تتلاشى مع آخر الليل قبل أن يستسلموا للموت، أي النوم، وفي اليوم التالي يكون عليهم أن يطاردوا أشباحهم في الحياة، بقليل من الجنيهات في جيوبهم والاعتماد على الأصدقاء المؤثرين، الذين لا يبخلون عليهم.

كانوا شلة من الأصدقاء، لا يعرف عددهم الآن كم كانوا، يمكن أكثر من ثمانية أو أقل.. هل يعدهم ليتذكرهم واحداً، واحداً. لا يرى ذلك ضروريا، فكل واحد سلك طريقه ولم تبق سوى تلك الخيالات في الدماغ العجيب. تبعثروا جميعا في المدن شرقا وغربا، وبقي هو وعيسى في المدينة الملعونة، الخرطوم كما كان ينعتها وهو يهجوها مرات بقصائده التي كان يؤلفها في الثلث الأخير من الليل ويسميها صلاة التهجد قبل أن يمزقها، لم يكن مقتنعا بموهبته أو أنه يمكن أن يصبح شاعرا أو مؤلفا روائيا أو فنانا.. كانت لعيسى مواهب متعددة في الفنون الإبداعية المختلفة، كان مرات يرسم ببهاء مبالغ فيه، وكان دقيقا في رسم الوجوه والطبيعة، وأحياناً يكتب قصصاً قصيرة يبعث بها لإحدى الصحف باسم مزيف، خشية أن يقرر المحرر الثقافي بالجريدة أن النص ضعيف فيكون ذلك سبة له فيخسر مستقبله مبكراً، فهو يردد أن الناس هنا انطباعيين يؤسسون على الضربة الأولى إذا لم تصب فأنت فاشل.

ثانياً

خيالات مالكوم إكس

"إذا لم تكن على استعداد للموت في سبيل الحرية، فعليك أن تشطبها من قاموسك".

"ليس هناك أفضل من الشدائد.. فإن كل هزيمة، كل حسرة، كل خسارة، تحتوي على بذورها الخاصة، دروسها الخاصة في كيفية تحسين أدائك المرة القادمة!".

مالكوم إكس

-1-

المكان: مدينة زوارة الليبية.. 120 كيلو غرب طرابلس العاصمة
الزمان: مطلع 2015

أحياناً نتخيل أشياء تكون قد حدثت فعلاً ومرات أخرى نبالغ في التخيل دون أن يكون لخيالنا صلة بالواقع أبداً. وهذا ما ينطبق بالضبط على مالكوم اكس.. وهذا ليس اسمه بل لقبه الذي اطلقه عليه رجال العصابة.. المافيا.. لوجه الشبه الكبير بينه واكس الأمريكي، الثوري المسلم الذي اشتهر في ستينات القرن العشرين. يتطابقان شكلياً في كل شيء تقريباً، بما في ذلك اللحية الصغيرة والنظارة السوداء والأنف الزنجي المميز.

يسير السيد مالكوم.. بخطوات وئيدة وهو ينظر إلى الأرض بجوار البحر، في انتظار الليل لانطلاق الرحلة.. فالأمور باتت جاهزة.. وعلى الوقت ألا يضيع في أمور تافهة.. يؤمن بالدقة والالتزام ويحب المال كثيراً. تدرب على هذه التقاليد دون أن يتذكر أن له معلم معين في حياته.. لا أحد تقريباً. وحده خاض غمار الحياة إلى أن وصل إلى هذا اليوم. هو سعيد بأنه مهاب من قبل الجميع هنا، خاصة في السنة الأخيرة لقد أصبح المهرب رقم واحد في البحر الأبيض المتوسط.. يمتلك ثروة هائلة وحساب في سويسرا وآخر في بنك لندني باسم مستعار.. يسافر إلى أوروبا ويعود بجوازات سفر متعددة أغلبها مزيفة لكنها حقيقية تم استخراجها من الجهات المعتمدة.. في البلدان العربية والأفريقية كل شيء ممكن.. يمكن لك بالأموال أن تمتلك أكثر من هوية وأسماء متعددة ولا أحد يشك فيك.

فيما يتعلق بالخيال. كان مالكوم في طفولته يحلم بأن يكون زعيم مافيا ذات يوم.. ومنذ سن مبكرة كون نظرية حول الأخلاق وهذه المسائل التي تحد الناس عن الإجرام كما يزعمون. يقف محاضراً في الشباب الذين جلسوا القرفصاء على الأرض في المخيم الشتوي:

"ليس من أمل للإنسان في هذا العالم سوى الحلم.. فاحلموا.."

يطلب منهم أن يفتحوا أعينهم شديداً بقوة حتى يلامسها الضوء.. ضوء الشمس القوي فيحرقها لدرجة أنهم يكادون يصابون بالعمى. يرى هذا التدريب ضرورياً لكي تمتلك بصراً حاداً. ومن ثم يطلب منهم أن يغمضوا الأعين شديداً، جداً... يسمعونه يقول:

"الآن.. تخيلوا ما شئتم.."

يستمر قائلاً وهو يتجول بينهم:

"كل منكم يبحث عن حلمه.. أوروبا هي الحلم لكنها قد لا تكون كذلك.. الأحلام الحقيقية يا أبنائي تسكنكم.."

يمر على الشاب الأول.. يبدو أنه من اريتريا.. يسأله عن حلمه.. يروي الشاب حكايته:

"فقدت والدي في حرب التحرير.. الأوضاع ساءت بالنسبة للعائلة ولي قطعاً كان المستقبل مظلماً.. السياسة خربت البلاد وجعلتها اقطاعيات.."

يقاطعه مالكوم بغضب:

"هذا يحدث في كل مكان.. لا تتصوروا أن هناك عدلاً في هذا العالم.. أيها البلهاء أوروبا لن تمنحكم العدالة إن لم تكون أحرار بحق في دواخلكم.. العدالة تسكن الإنسان ولا يسكنها"

"ولكن..."

يقاطعه الفتى الإريتري، يتركه يكمل:

"لكن مهما اقتنعنا بها واسكناها في قلوبنا فلن نعثر عليها إلا إذا.."

"نعم إلا إذا توفر لها المناخ.. ليس كل بلد أو مكان يمنح العدل.. هذا صحيح.. ولكن أنت الذي تبحث عن المكان المناسب.. مرات لا وجود له إلا في دواخلك..."

يسود بعض من الهرج بين الشباب.. يهمس أحدهم، هل جئنا لكي نسمع محاضرات في علم النفس والروح أم أننا نريد أن نحصل على رحلة إلى إيطاليا بأسرع وقت.. يسمعه مالكوم، لا يهتم به ويستمر في الكلام:

"يا أبنائي.. الحقائق الزائفة في هذا العالم تكتسب معناها من خلال الطرق المستمر عليها كالأواني المتسخة لابد أن نجليها كثيراً حتى تبدو بهية ونظيفة.. ولكن سأحدثكم كيف يمكن أن تطرقوا على الزيف.. أنكم تفعلون ذلك باستمراركم فيه.. أن تجعلوه

أوضح شيء في هذا العالم.. وعندما يغمر الزيف الوجود سوف تظهر الحقائق بائنة وسط ذلك الطوفان من الفوضى والقلق الكاذب.. كالنقطة البيضاء وسط الصفحة السوداء"

هل كان مالكوم يحاول أن يستعيد صورة أخرى من صور صباه، بأن يصبح ذلك المعلم العميق الذي يدرب تلاميذ القرية على منهج تهذيب النفوس.. بطريقة مبتكرة.. كان مغرماً بشيخ القرية الورداني الذي عاش فيها محبوباً رغم تصرفاته الغريبة كما يرى البعض، لكنه مات وخلف أفضل ذكر، وأولاده اليوم قد أخذتهم الحياة إلى الحضيض لم يعرفوا كيف يحافظون على إرث أبيهم فالذكاء لا يورث. يحاول كل من الشباب أن يعرف هوية المهرب الكبير، ما هو طبعه بالضبط، هل هو رجل قاسي أم رحيم؟ وهل يحب المال والحياة أم هو زاهد؟ هل صحيح أنه يأخذ أموال التهريب ليوزعها على الفقراء أم أن ذلك شائعة لا غير.. تستمر الأسئلة ولا أحد يملك الإجابات.. يظل مالكوم وحده يملك السر.

في آخر الليل وقبل أن تبدأ الليلة، الانطلاق إلى الأحلام، يكون الشباب على أهبة الاستعداد لخوض معركة المواجهة مع الموت.. كما سماها مالكوم:

"الذي يريد أن يصل إلى الحلم عليه أن يكون شجاعا إلى النهاية.. ليس كل الأحلام تتحقق بالدعة.. لابد من أن نقهر الذات وان نستعد لندخل عالماً آخر في أي لحظة"

ينهض الشاب الاريتري، يتنفس بصعوبة أمام البحر، يلف رأسه بعمامة حمراء أهدته لها جدته العجوز التي دعت له الله كثيراً قبل سفره، وهو يخترق الطريق البري من أسمرا إلى داخل السودان عبر مدينة كسلا ومن ثم مع السماسرة في الصحراء إلى حدود ليبيا عبر جبل عوينات. الرحلة مرهقة طويلة لكن الأحلام تستحق.. ينظر أمامه يبدو مالكوم طويلاً جداً.. يبدو كائناً خرافياً.. يبدو جميلاً وقاهراً.. ويبدو شبحاً من عالم آخر.. يتخيل كما لو أنه رآه من قبل في مكان ما في هذا العالم، غير أن خبرته بالعالم محدودة.. لم يسافر كثيراً، فقط قضى سنوات في خدمة الجيش براتب هزيل قبل أن ينهك وأخيراً يقرر الهجرة.. اللجوء إلى العالم الجديد.

ما يحدث معه من تخيلات.. يحدث مع الكثيرين ممن يفترضون أشياء لا تحدث.. مثل مالكوم ومثله وأناس آخرون نتعرف عليهم في دروب الحياة..

-2-

المكان: مدينة زوارة الليبية..
بيت قديم وراء تلة صغيرة قريباً من البحر
الزمان: منتصف الليل.. 17 فبراير 2015

في أوقات فراغه يكون مالكوم قد فعل أشياء كثيرة يحبها.. يقرأ كتاباً قديماً أحبه منذ سنوات وعليه أن يفهمه بوجهة نظر جديدة.. يمارس اليوغا والتأمل في مصير الإنسان في هذا العالم ومصيره هو شخصيا إن قبض عليه ذات يوم. فربما تحدث أمور غير متوقعة، ربما تحصل وشاية تكون سبباً في نهايته، وما أكثرهم الوشاة في هذا العصر.. ما أكثرهم.. يكلم نفسه، ويعاين السماء من فوقه تبدو صافية.. ليس في الليل سوى السكون والهدوء.. رغم أن المكان تغير، فربما تسمع فجأة صوت رصاصة طائشة أو قنبلة تنفجر بلا مقدمات.. تغيرت الأرض الليبية كثيراً لم تعد هي. لقد فقدت الأمان والسكون، الطائشون باتوا في كل مكان.. العباقرة الجدد الذين يظنون أن بإمكانهم حكم العالم يقيدون الناس الأبرياء وينحروهم.

يشعر مالكوم بالتعاطف مع الأبرياء.. ثم يغفل عن هذه الفكرة، حيث يتذكر أن اليوم السابع عشر من فبراير يوافق تاريخ ميلاده. في السنوات التي مضت كان قد احتفل به.. والآن هو وحيد رغم كل الجاه والمال.. يفكر أن الثروة لا تصنع السعادة.. ربما الوهم في بعض المرات يكون أجمل من امتلاك الكثير من الأموال. فجأة.. يتذكر أن هذا التاريخ 17 فبراير يوم مميز.. كيف نسي ذلك؟ كيف أهمل أن هذا اليوم مهم بالنسبة لأهل ليبيا الذين نسوا وسط الصرعات والموت المجاني ثورتهم؟

كان يوم الخميس.. تدفق الناس في الشوارع.. قتل أكثر من أربعمائة شخص من الأبرياء.. نعم الأبرياء.. قتلى وجرحى ودماء.. موت وأحلام موئودة ووطن جريح.. وحكاية ديكتاتور يرفض أن يتنازل عن عرشه! يرى المرتزقة أمامه جاؤوا بهم من البلدان الأفريقية.. رجال أشداء وأقوياء.. يضربون ببطش لا رحمة في قلوبهم كأنهم لم تنجبهم أمهات أبداً.. ربما أرسلوا من الجحيم إلى الأرض مباشرة.. فيهم سودانيون وبعضهم من الكاميرون وساحل العاج ونيجريا ومالي والجابون.. يبحثون عن المال

بلغة البطش والتقتيل.. يالتفاهة هذا المال الرديء.. يرى عشرات الرجال يسقطون أمامه بالرصاص والهراوات التي تضرب بلا هوادة.
يحاول أن يهرب من وراء أحد الأزقة ليندس في مسجد تهدمت مئذنته، غير أن المرتزقة كانوا داخل المسجد. يهرب من جديد متخفياً إلى أن يصل غابة من الاسمنت، بنايات سكنية، أغلقت الأبواب بإحكام فالكل خائفون.. يطرق باب، بابين.. لا أحد يفتح بظن أنه من القتلة.. أخيراً تفتح له سيدة عجوز، في التسعين ليس أقل.. ترحب به، بخبرتها في الحياة تعلم أنه خائف.. أنه لا يريد الموت.. تقدم له الطعام وتدعوه للنوم بهدوء إلى اليوم التالي. وبقي معها لعشرة أيام إلى أن هدأت الأوضاع في المدينة.
السابع عشر من فبراير ذكرى تلك اللعنة التي أوجدته في الوجود.. يتذكر أمه وبعض من أهل القرية البعيدة.. يحاول أن يمسحهم عن ذاكرته دون أن يقدر، فصورهم باقية، قوية في الدماغ. عندما وصل إلى هنا، قادماً من الأدغال البعيدة.. التي لا يهمه اسمها الآن.. كان يحمل فقط جواز سفر مزور باسم لم يعد مهما كذلك.. فمالكوم اكس طغى الآن على كل الأسماء.. كان يحلم بالهجرة إلى أوروبا ككثيرين.. قالوا له إن الطريق من ليبيا عبر سرت سيكون سهلاً جداً، ثمة مهربون بارعون سوف يساعدونك في الوصول إلى هدفك. وقرر، سرق من الأموال ما سرق.. كيف فعل ذلك وهل نسي الأخلاق التي يؤمن بها، أم برر فعلته.. ليس مهماً.. لكن ومنذ زمن ليس بعيداً فقد ماتت فكرته التقليدية عن الأخلاق.. تلك السذاجات التي أوجدها بعض من بني البشر حتى يكون لهم السيطرة على الآخرين..
"إنهم يصنعون الأخلاق لكي يجعلوك في قفص لا تغادره"
كان يكلم نفسه، وصادف أن كان وصوله قبل أيام من تلك الليلة الشؤم التي صادفت عيد ميلاده.. فيما بعد نظر إلى المسألة ببعض من التفاؤل، فأن يكون يوم مولدك، متزامناً مع مولد ثورة شعب فذلك خير كثير. انتهت رحلته في بيت السيدة العجوز، شكرها دون أن يحمل ذكرى عميقة عنها.. لا يعرف تاريخها الشخصي ولم يهتم بذلك. كثيراً ما كان يركل الماضي ويسير إلى الأمام، تهمه اللحظة الحاضرة والسيطرة على المستقبل.. يسير في قوة وصمود لا يأبه للترهات.

عندما يريد الله أن يخدمك فلا أحد سوف يقف أمامه، لا يمكن القول إنه كان مؤمناً، فقط كان يرى الله قوياً وذا إرادة عندما تحدث معجزة.. ومرت شهور قليلة فقط.. سادت الفوضى في البلاد.. انشطرت ليبيا إلى دويلات.. الدماء صارت عنوان للأزمة.. المسلحون والمرتزقة أصبحوا يعيشون على الصراع، فهو ثمن العيش وراحة البال بالنسبة لهم.. كان ثمة فتيان صغار السن يقادون إلى الجماعات المسلحة ويزج بهم في الحرب الأهلية.. ليس لأحد أن يعارض أو يتكلم، وإلا كان مصيره القتل.. رصاصة تكفي لأن تخترق الدماغ وتؤدي به إلى الدار الآخرة..

كم من الأمهات فقدن الأبناء.. الآباء فقدوا فلذات الأكباد.. يسمع القصص ولا يحفل بها كثيراً، فمن يرى المآسي يتدرب عليها يصبح عنده الأمر أشبه بلعبة لا غير. كان يظن أنه عبقري في صنع نظريته عن الأخلاق، ليكتشف الآن أن الجميع تقريباً يتعاملون بهذه النظرية حتى لو أنهم لا يفهمون الخطة المحكمة له. بل أنه شخصياً ما زال عاجزاً عن تنفيذ ما يعتمل في رأسه من أفكار وآمال بعضها وقح وشديد البأس. ثم يأتي يوم تنسد فيه كل العواطف الجارفة، يصبح مالكوم إنساناً جديداً يخرج مغسولاً من البحر الأبيض، خفيف الجسم، بروح لا تعرف سوى النظر بعيداً.. يتعرف على الرجل الذي يلقبونه بالكاهن والذي سوف يأخذه إلى عوالم المافيا.. وقد كان الكاهن ذكياً جداً ليدرك أن مالكوم مفيد.. كان لقاؤهما صدفة في عالم مرتب من قبل الرب.. يشعر مالكوم بذلك، وهو يستمع بدقة للمهمة التي تم تكليفه بها.. وبعد يومين كان قد قاد عدة قوارب عبر البحر إلى السفينة الكبيرة التي سوف تسلك طريقها إلى السواحل الإيطالية في دراما محبوكة.. تنفيذ خطة إغراق السفينة.. سوف يموت البعض ويحيا البعض وهم من سوف ينتشلهم حرس السواحل الإيطالي والذين ذهبوا إلى ربهم فلهم هذا الرب.

يستمع للكاهن الذي يذكره بالورداني.. ثمه شبه بينهما ليس في الشكل هذه المرة.. إنما طريقة الكلام ونسج الأفكار.. فكر مالكوم كيف أن اللص والشريف قد خلقا من طينة واحدة. يقبض الثمن.. يدس الدولارات في جيب بنطاله دون أن يعدها ليتأكد أنها ثلاثة آلاف.. أو يفحصها ليتأكد هل هي مزورة أم حقيقية، فقد

انتشرت العملة المزورة بعد حدوث الفوضى. ينفض الكاهن جلبابه ويغطى وجهه بطرف لحافه الذي يشغل رأسه الكبير، يكون الشارب الكث قد توارى والعينان قد اختبأتا وراء النظارة السوداء الداكنة.. يتحرك الرجل مبتعداً عن المقهى كما لو أنه ليس موجوداً في العالم.. يكون مالكوم قد استسلم لأثر المخدر الذي كان الكاهن قد أوصى النادل الشاب الأسمر، بوضعه في القهوة.

-3-

المكان: سرت.. مقهى قديم في شارع جمال عبد الناصر
الزمان: يوم غير محدد من عام 2012

يتراخى الجسد.. يشعر مالكوم كما لو أنه كائن آخر أو أن روح كائن غيره تدخل فيه وأن روحه، هو، قد غادرت إلى فضاء مجهول. إنه المخدر يفعل في الجسد ما لا يفعله في الأرواح. وإذا تمت تعمية الجسد عميت الروح. يحاول أن يقف لا يقدر، وقد كان يشعر برغبة في التبول الشديد. يسأل الشاب النادل الأسمر عن الحمام، يشير إليه، يتخذ طريقه متثاقلاً إلى أن يصل، يخال له أمامه أنه يرى هلامات من البشر يتحركون في الفراغ على شكل ملائكة تسبح في الفضاء. له تصور عن الملائكة منذ صغره.. كما علمها في دروس الشيخ الورداني.. كائنات خلقت من نور، رائعة وملونة.
"نعم لها بريق وألوان كقوس قزح أحياناً"
يسمع الورداني يقول ذلك، وهو يضرب على الارض بكفتي يديه، ومن ثم يغسلهما على الطست الكبير. كانت تلك آخر أيام الشيخ قبل أن يرث أولاده الضالين ميراث والدهم فيتبدد. يدخل مالكوم الحمام، يتبول جالساً لا يقدر على الوقوف ولو لدقيقة، فرأسه لا يرحمه، ما الذي يجري معه بالضبط. ليس متأكداً ولا يعرف. وفي تلك اللحظات لا حقيقة في العالم، ولا أشياء قذرة وأخرى نظيفة يمكن الاهتمام بها، كل الأشياء قد تبدو رائعة أو العكس.
ينهض من على المقعد الأبيض، يغسل وجهه ببعض الماء الذي قد ينعشه لكنه لا يحرره من المخدر.. ماذا فعل هذا الكاهن العجيب، هل أراد التخلص منه، فبعد مضي نصف ساعة كانت هذه الاسئلة تشتغل في رأسه لتفضح له ما جرى، المؤامرة.. في اليوم التالي واجهه دون خوف، لم يعد له ما يخسره:
"هل أردت قتلي؟!"
كانت نظرات الكاهن هذه المرة عجيبة، لا يمكن فهمها بسهولة.. يفهم أن الإنسان مهما تدرب فثمة أمور كثيرة يجهلها ولا يعرف ما هي بالضبط. يقول له الكاهن.. يسمعه بدقة، فقد تلاشى المخدر نهائيا منذ منتصف النهار:

"أبداً.. هذا جزء من التدريب الذي يجب أن تخضع له لكي تثبت أنك أهلاً للمهام القادمة"

كان الكاهن يقول ذلك دون أن يعلم أن أيامه الأخيرة قد اقتربت.. فقد مرت أيام فقط.. ليدخل عليه المسلحون ويحملون رأسه إلى جهة غير معلومة.. لا أحد اهتم بالخبر في وسائل الإعلام، فأغلب رجال المافيا والمهربين الكبار تظل حياتهم مجهولة للعامة. ووجد مالكوم نفسه يتولى المهمة.. عقد صفقات مع المسلحين، أن يدفع لهم النصف مقابل ما يكسبه، لن يخسر شيئاً.. ومع الوقت كان ينظر إلى حلمه القديم بالسفر إلى أوروبا على أنه ساذج، لقد وجد نفسه هنا في هذه التجارة الرابحة.. فهو يستطيع أن يفعل كل شيء الآن.

-4-

المكان: روما.. قريباً من فندق ماجيستك.. شارع فينيتو
الزمان: شتاء 2014

يسير رجل تحت الظل المنبثق من أعمدة إنارة مزخرفة كلاسيكة، قريباً من الفندق.. ليس من بشر في هذا الوقت أو هم بالأحرى قليلون.. لا أحد من رجال الشرطة الذين كانوا يقفون عند إشارة المرور وهم في سيارتهم التي من المفترض أن تتوجه إلى مركز المدينة، فكرة عن الرجل الذي يسير وحيداً.

هل رأوه وهل فكروا فيه؟ ليس من تأكيد.. غير أن الرجل شكّ في أن ثمة من يراقبه، لهذا شعر بهواجس مفاجئة بدأت في مطاردته. لم يحدث أن شعر.. جونسون بارك بهذا الشعور المخيف من قبل.. تحسس جيبه كان لا يحمل جواز سفره حيث يبقيه في الفندق كالعادة.. فليس من عادته أن يخاف أو يظن في أن أحد سيشك فيه.. لكن يبدو أنه لن يسلم هذه المرة. قبل أن يدلف عبر البوابة التي تفتح تلقائياً في مدخل الفندق.. نظر للوراء، كان أحد الشباب الذين لمحهم في السيارة العسكرية قد اقترب منه، هل سيكلمه؟

راح جونسون يفكر في هويته كزنجي أمريكي، وهو يلعن اليوم الذي جعله يقوم بهذه الرحلة، لقد كان منذ البداية يشعر بأن الوقت غير مناسب.. أوروبا باتت الآن أكثر توجساً من قبل.. نعم يستطيع أن يعيش بأكثر من شخصية وأكثر من ظل، غير أنه في لحظة ما تسقط كل الشخصيات والظلال وتصبح شخصاً واحداً يكون عليه أن يواجه مصيره المجهول.. أن يجلس بين أربعة حوائط يعالج الوقت الذي يمضي بطيئاً.. بدأ ينسج تخيلات إلى أن اختفى الشاب، فبدأ يتنفس الآن بقوة.. كمن شارك في ماراثون لمسافة طويلة.. وأسرع إلى البار، يفكر في شراب زجاجة من الويسكي عله ينسى.

ارتبك أمام النادل الذي كان ينظر إليه بشيء من الريبة، ومن جديد صارت الهواجس تحاصره في هذه الليلة الملعونة، التي ذكرته بليلة 17 فبراير، واليوم نحن في ديسمبر.. يكلم نفسه.. يكرر بصوت مسموع. يرد عليه الشاب ذي السحنة الأفريقية الذي وضع الزجاجة بأدب. يسلم عليه وهو يمد يده:

"أهلاً سيد حمدان..."

هنا ارتفعت درجة حرارته فهناك من يعرف اسمه الحقيقي.. أين سيفر من عباءة جونسون ومالكوم وغيرها من الأسماء المزيفة. لا يرد على الشاب. الذي يبدو لحوحاً ويكرر التحية ولكن دون أن يمد يده هذه المرة.. أخيراً يجد نفسه شجاعاً ليمد يده مُسلّماً، ويرد:

"أهلاً.. ولدي.."

قالها بصوت هامس.. حتى لا يسمعه أحد.. رغم أنه لا أحد في المكان يهتم بما يدور حوله، الجميع سكارى يتراقصون مع إيقاعات الموسيقى المنبعثة من وراء الجدران.. رجال كبار السن يمسكون بفتيات جميلات وهم يرقصون.. شباب حليقوا شعر الرأس بحلقان كبيرة يتضاحكون وهم يضربون على أفخاذهم.. ليل لا يشبه أي ليل سابق.. تسكت الأذنان فجأة عن السماع، كأنهما يخرجان عن حدود العالم المعاش.. يسمع الشاب يقول له بشجاعة تتحدى شجاعته:

"إنهم يقدمون مكافأة كبيرة بمن يدلي بمعلومات"

فهم مالكوم تماماً ما الذي يعينه الفتى، أنه يريد ابتزازه.. يبدو أن الشاب واسمه زين وقد تذكره حمدان تماماً، قد وصل حديثاً إلى إيطاليا، ويبدو كذلك أنه علم هناك في الأدغال عن القصص التي تروى عن التغيير المفاجئ الذي حدث في حياته وأنه صار زعيماً كبيراً، فالأخبار لاشك وصلت الناس، رغم أن مالكوم يطبق على كل تفاصيل حياته من أن تتسرب، نعم يمكن أن لا تصل الإعلام لأنه ساذج.. لكنها تصل إلى الأهالي والأقارب والمغفلين الذين سيبدؤون في ممارسة هوايتهم المحببة، الحسد المستمر. رد على الشاب زين:

"نعم.. ماذا تقصد؟"

أطلق النادل ضحكات غير محبذة. لكن لا أحد يهتم، فالكل في سكرته يعمه.. يشعر جونسون.. مالكوم برجفة تعتريه، لا يريد أن يظهر خائفاً.. غير أن وجود طاقة أثيرية من القرية القديمة متمثلة في هذا الفتي تشعره بالضيق، فقد كان في أيام باكرة يلقبونه بالمتخاذل ومرات بالخائف وأحياناً البائس.. كانت صفات كثيرة تلصق به على أنه إنسان تافه حتى لو أنه كان محباً للورداني، وصيغت حوله شتى القصص والحكايات، ليس أقلها أنه جنس ثالث. هذا كله كان يعانيه، لقد تحرر من الماضي

وبقوة وأخلاق جديدة كوّنها، ويأتي الآن هذا الشاب قليل الذوق ليعيده إلى ساعات شؤم قديمة.

وقف ليغادر المكان قبل أن يسكب أي من الشراب في الكأس، وقبل أن ينتظر إجابة من زين. وكان الشاب الأسمر ينظر إليه بنظرات عجولة وغير مرتبة، قبل أن يمضي لخدمة زبائن آخرين. وصل جونسون غرفته في الفندق ليحمل أغراضه وحقيبته الوحيدة، مقرراً الاتجاه لفندق آخر في أسرع وقت.. وقبل أن يكتمل الهروب من هنا.. كان ثمة من يطرق على الباب.. تأخر في فتح الباب ونظر من خلال العين السحرية.. كان أمامه الشاب نفسه، زين. كيف عرف رقم غرفته؟ هل يكون قد تابعه؟

فكر مالكوم، ولم يفتح، استمر في وضع ملابسه من الدولاب في الحقيبة سريعاً، قبل أن يدخل الحمام ثم يخرج مجدداً، كان الطرق قد توقف.. فتح الباب ليجد أن الشاب ما زال واقفاً.. قبض علي يده بقوة وبشجاعته التي يجب أن تكون قال له:

"ماذا تريد بالضبط؟"

رد زين:

"تعامل معي كأحمق.. أريد أموالاً أرسلها لأهلي.. شهران هنا وراتبي في البار لا يكفي لتوفير أبسط أموري.. أفكر في.."

يقاطعه مالكوم، وقد شعر الآن أن الموقف في صالحه:

"لا تحكي لي قصتك كلها. أفهم الباقي.. كم تريد؟"

"لا أعرف.. فقط ما يكفي.. ثم أنني..

"ثم ماذا؟ أنا مستعجل.."

"أريد أن تساعدني في السفر إلى لندن. الأوضاع هناك أفضل بكثير للاجئين أمثالي.."

فكر مالكوم سريعاً كيف وصل هذا الأحمق، وهو لم يعلم به. ربما جاء في أحد رحلاته ولأن الأعداد تكون شبه يومية وكبيرة فهو لايعرف كل الذين يتم تهريبهم.. هذا طبيعي طبعاً. وربما لم يسلك طريق ليبيا وجاء عبر مصر أو إسرائيل.. وفكر أن يسأله ورأى أن ذلك غير ضروري..

قال للشاب:

"بالمال تفعل أي شيء ترغب فيه.. هذا ما أستطيع أن أقدمه لك"

ولأن مالكوم كريم.. سمع زين بذلك من قبل وأنه يساعد الفقراء، فقد فهم الآن أن ذلك حقيقياً وليس خيالاً، مع أنه شك هل هذا يتعلق به لموقفه المحدد وربما خوف الرجل من أية ردة فعل، أم أنه سلوك فطري عنده.. لم يفكر كثيراً بدأ يتحسس رزمة الأوراق النقدية، متلهفاً لعدها في مكان خال لوحده، وهرع إلى إحدى الحمامات في نهاية الممر، في حين سلك مالكوم طريقه إلى المصعد وانحدر لأسفل.

-5-

المكان: فندق ماجيستك.. شارع فينيتو
الزمان: التاريخ غير محدد!!

في بهو الفندق يجلس جعفر في انتظار ماليدا التي سوف تغادر غداً، في حين يأتي نحوه زين، كان يبدو سعيداً. إنه المال يجعل الناس أكثر سعادة، يؤمن زين بذلك كثيراً، ويتقدم محتفياً بالصفقة التي أنجزها، يخبر جعفر:
"هذا هو المبلغ.. ليس علينا الآن إلا السفر.."
لولا ماليدا لما تحقق أي شيء.. فهي كلمة السر في الرحلة التي سوف تأخذهما إلى بريطانيا، ولم تمض سوى أيام وجيزة إلا وسلكا طريقهما إلى هناك، إلى عاصمة الضباب كما اشتهرت بهذا الاسم كثيراً عند السودانيين. كان زين قد وصل قبل جعفر إلى روما، وهو الذي ساعد جعفر في التعرف على الأماكن الغامضة في المدينة، سحر ما وراء الأشياء، ورغم أن عمل زين في البار لا يعطيه الوقت الكافي إلا أنهما كانا يختلسان الأوقات المتسربة ما بين ساعات الانتظار واللهفة، في بلدان أوروبا. كانا فرحين بأنهما في العالم الجديد، يتنفسان وكأن هذا حلم.. على ناصية إحدى المطاعم الشعبية جلسا ليأكلا البيتزا بنهم، الوجبة الإيطالية الشهيرة، يختلف مذاقها هنا عن تلك التي تباع في الخرطوم، تلك مزيفة ككل الأشياء هناك وهذه حقيقية.
كان جعفر مشغولاً بالتفكير في ماليدا، وكان أيضاً يفكر في الإفصاح عن أمر ما لصديقه الجديد زين، السودانيون يمكن أن يتصادقوا بسرعة كما يمكن أن يفترقوا في أسرع وقت ولأتفه الأسباب. كان متردداً هل يخبره، وهل من الضروري على الإنسان مرات أن يخرج ما في صدره أم يكتمه لينفجر في ذات لحظة. ثم قرر أخيراً:
"لقد ارتكبت خطيئة ما يا صديقي!"
"خطيئة"
قالها زين بشيء من الاستغراب وعدم جدية. دائماً لا يأخذ العالم بجدية تامة، لديه الوجود أشبه بعبث، ومنذ صغره سخر من الحياة بطريقته الخاصة، وفيما بعد وعندما درس الفلسفة كعلم لا قيمة له في العالم النامي، كان يعرف أنه يضيع وقته لأنه لن

يجد عملاً كفيلسوف. ولكن على الأقل سوف يكون بمنجاة عن أي استخفاف به ككائن بشري، حيث بإمكان الفيلسوف أن يقنع الآخرين أنه موجود. فالفيلسوف يؤدي أحياناً دور الساحر أو البهلوان.

ينهمك في تفاصيل من حياته التي تركها في الخرطوم، وفي ذكريات الأصدقاء واللقاءات الليلية التي كانت تتم معهم حيث يتحلقون في منزل أحدهم ويشرعون في الشراب والرقص إلى الفجر وهم يغنون. يمكن القول إن زين كان يعيش حياة رغدة رغم أن جيبه خاوٍ، فقط كان يعتمد على قائمة هؤلاء الأصدقاء البرجوازيين كما يطلق عليهم. وكانوا يحبونه لأنه كان من خلال تفسيراته العجيبة قادراً على أن يمنح لحياتهم معنى.

اليوم يتكرر هذا الشيء. يريد جعفر أن يجعل لحياته معنى بأسئلة سوف يقوم بطرحها. لكن جعفرا لا يملك المال، ليقدمه مقابل الحكمة التي يوفرها له زين، بل يريد أن يأخذ المال من الآخرين، وزين يحب الثروة التي وجدها بعرقه وذكائه ولن يفرط فيها. يركز قليلاً مع جعفر، فهو لم يسمع بعضاً من عباراته التي كان تأتي وتذهب مع هواء عليل بارد.. كان الشتاء في روما قوي جداً. والرياح تضرب بعنف على الأبواب في المطعم. ربما سوف يغلق بعد قليل خاصة أن الوقت تأخر. اليوم زين إجازة، لديه يوم واحد فقط في الأسبوع.

"يمكنني أن أتزوجها إن هي رغبت"

يضحك زين يرد على جعفر:

"إذا كانت غربية فعلاً فهذا عادي.. ربما سيكون لديكما طفل وسوف تتزوجان.. قل لي هل هي مسلمة؟"

استغرب جعفر السؤال فمعظم السودانيين في نظره مسلمين، لكن زين كان يعني شيئاً آخر فقد سمع عن بعض السودانيين ممن هجروا دينهم في أوروبا.. فكرّ جعفر قليلاً، ردّ:

"لم يدر بخاطري أن أسألها هذا السؤال.. صدقني لا أعرف!"

"ليس ضرورياً.. المهم عليك أن تخبرها.."

"لا أستطيع.. ولا تنسى كونها سودانية فهذه مشكلة أنت تعرف تقاليدنا.. هذه جريمة شرف"

يقف زين يضحك بصوت مرتفع، يلفت انتباه الجالسين، يرد على صاحبه:
"هي لا تحب السودان ولا السودانيين فهمت ذلك منك.."
يسأل:
"وهل تعرف السبب؟"
"أيضاً لا أعرف.. لا أعرف سوى أنني أحببتها بحق"
"وهل تبادلك الشعور ذاته؟"
"يمكن.. مشاعرها تقول ذلك.. ولكني لست متأكداً!"
"صارحها يا صديقي.. قل لي كل شيء.. لا تُضِع الوقت. وهي تخدمك الآن بأن تسافر إلى لندن هذه إشارة مهمة يجب ألا تغفلها.. هذا يعني أنكما سوف تلتقيان هناك.."
يكمل زين بابتسامة فيلسوف:
"بل ساعدت صديقك أيضاً.. هذا عمل عظيم، ليس وراءه إلا شيء مثير.. أمر غامض كالحب.. الناس لا تعطي بالمجان"
يصمتان قليلاً، قبل أن يغادرا المطعم، يكونا قد شربا الكوكا كولا، هي أكثر إنعاشا من تلك التي كانا يشربانها في الخرطوم، كما يتخيل زين وكما أخبر جعفر الذي لم يكن مهتماً بسوى أمره الخاص وكيف سيحبّك القدر الأيام المقبلة، فهو الآن قد يكون أباً. تخيل أن تكون والداً في أوروبا ومنذ الوهلة الأولى، إنه جنون. وهما يتمشيان دون أن يكترثا للبرد القارس، يبدو أن كل منهما بات يفكر في أمر يهمه.. استمر الصمت لدقائق.. كان زين مشغولاً بالوصول إلى لندن، إنه يساعد جعفر ويدفع له المال كجزء من الصفقة التي أنجزها مع ماليدا، هو إذن.. أيضاً شريك في جريمة الحب التي تقع إن لم تكن وقعت فعلاً، إن كان للحب أن يصبح جريمة في عالم بلا مبادئ.
يتذكر أنه في سنوات الجامعة أحب فتاة برجوازية من الطبقة الارستقراطية، كانت رائعة بحق تشبه ماليدا التي رآها مرة واحدة مع جعفر ومن ثم لم يرها فقد غادرت الفندق، عندما جاءت إلى البار وشربت كأسين من الفودكا. تلك الفتاة القديمة.. كانت أقصر قليلاً، ليس لها ضخامة ماليدا وعنفها الذي يشير إلى أنها كائن شبق كما صوّرها جعفر له دون أن يمضي في التفاصيل. كانت جوليان قوية أيضاً ورائعة، أحبها بكل حواسه، رأى فيها حلمه وفتاة قدره الرائع، ظل يطاردها ما بين الأشجار

والمدرجات. هي تدرس القانون وهو يدرس الفلسفة، وهي تحب الألوان الزاهية والتنورات القصيرة والشعر المصفف بتجعد، قد تكون من مرتادي الكوافير يومياً قبل أن تصل الجامعة، توقفها سيارة عريضة مميزة يقودها سائق جنوبي، ولأنه لا يفهم في أنواع السيارات فلا يهتم بذلك. فقط سيكون مهتماً بجوليان، كم كلمها وحدثها بوصفه فيلسوفاً غير أنها لا تهتم بفلسفته وليست مشغولة كثيراً كأصدقائه البرجوازيين الآخرين بموضوعات جدلية، هي بسيطة جداً كما يتصورها الآن بعض أن انتهى كل شيء إلى النسيان ومات الحب من طرف واحد.

ذات يوم طاردها إلى أن عرف أين تسكن، في ذلك الحي الارستقراطي من المدينة.. بيوت فخمة من طابقين على الأقل.. سيارات ماركة مرسيدس بينز تجوب الشوارع.. محلات الهوت دوغ والبيرجر والآيسكريم.. شباب يتجمعون في الليالي وهم يقهقهون بلا هدف.. يعرف زين هذا العالم جيداً هؤلاء هم أصدقاؤه الكرماء. وجوليان لا تندمج مع أحد، هل تعاني مرض التوحد هذه العصبية، فمرات تكون شاردة الذهن وإذا حدثتها صرخت فيك.

في ذلك المساء، غامر ووقف أمامها وهي تنزل من السيارة.. كان الجنوبي لا يهتم بسوى عمله، ربما عنده مهمة أخرى، لم يدخل السيارة في الموقف الداخلي بالبيت رغم أن البوابة التي تفتح تلقائياً كانت قد ارتفعت تبجيلاً لمقدم السيارة وجوليان طبعاً. رأته واقفاً أمامها. استغربت، ربما فكرت هل هذا هو أم شبح له، خاصة أن الإضاءة كانت خافتة في تلك الشوارع شبه المظلمة رغم رقي الحي، ثمة تناقضات لا مجال للتفكير فيها الآن كاتساخ الشوارع وظلمتها مقابل بيوت فخمة ونظيفة وأنيقة من الداخل.

لم تكترث به وسارت باتجاه الباب الصغير ضغطت على زر، يبدو أنه من النوع الأتوماتيكي الذي يفتح ببصمة اليد. كل شيء ممكن في هذا البلد. التناقضات العظيمة.. الفقر والغنى.. الجوع والشبع.. المطر والجدب.. تلتفت للوراء، أيضاً لا تهتم.. وقبل أن تدخل جسدها العجيب، يكون زين قد ناداها:

"جوليان.. جول..

لا يضطر ليكملها تعود للوراء تمنحه أن يرى مؤخرتها البديعة، ويستغرق لثوان في تأمل ذلك الشيء دون أن يتذكر أين هو بالضبط! ثم يسمعها ترد عليه بلطف..

"نعم زين.."
"ألا تقولين لي تفضل معنا؟"
تبدو جادة تكلمه:
"زين.. لو سمحت بابا سوف يغضب إذا رآك هنا"
"بابا.. هل ثمة أمر خاطئ"
"مجرد وجود شاب مثلك بجواري يعني خطيئة لبابا.. أرجوك.."
"ولكن..."
"أي موضوع أجّله سوف نتكلم غدا في الجامعة"
ومن ثم أعلنتها بوجهه، الرفض الكبير.. وبقى الجرح لأيام.. شهور ثم مضى كل شيء.. قست الحياة.. صار الوطن طارداً.. الأصدقاء المترفون باتوا لأنفسهم، لا أحد يقدم العون لأحد.. الحصول على وظيفة حلم.. وجود الإنسان في وطنه صار علة وجرح. ينتبه زين على أن عليه الآن أن يركز في المستقبل، هو الآن حقق نصف الطريق إلى الحلم وبقي النصف الآخر.. وخلال أيام يكونا قد وصلا لندن في رحلة تشبه الحلم.. يفكر زين كما لو أن الحياة حلم عريض يكون على الإنسان أن يحتمل سخافاته إلى النهاية.

* * *

كان خبر انتحاره بحسب الرواية الرسمية التي تناقلتها وسائل الإعلام والفضائيات فاجعة بالنسبة لصديقه، يعني له ذلك أكثر من قلق وجودي كان قد شعر به سابقا، عندما تذكر كلمة الموت، النهاية الأبدية التي يلتحم فيها المحدود بالمطلق. ولأن الموت كان قضية شخصية وشاغلا لصديقه عيسى فقد استنفذ الكثير من زمانهم وقتذاك، حتى أنه ذات يوم سمع عيسى يكلمه: "إنني سأكتب روايتي الأولى عن الموت، عن رجل يعشق الموت ويحاول أن يصل إليه ليجربه، لكن الموت لا يحبه، يفر منه"..
كان يهزل، يسخر بطريقته المعتادة من العالم ومن نفسه:
"سأسمي البطل عيسى.. لن أجهد نفسي كثيراً في ابتكار اسم"
ثم يسرح عيسى نافثا دخان سيجارة البرنجي في سماء الغرفة المرتخية السقف،

الواقعة في ركن من الفرن بالحي المزدحم حيث أغلب الجيران من الجارة أثيوبيا، وهم زبائنهم الذين يأكلون خبزهم ولولاهم لما رزقوا. ومن ثم يرخي رأسه كالسقف، لا يعود يفكر بشأن روايته ولا لوحاته المهملة على الجدار، ولا الحامل الذي اشتراه قبل عدة أيام بفكرة أن يقيم معرضا خلال شهر، يعتمد على ثيمة الخبز والخباز، يخبره:

"الرغيف.. يمكن أن يصنع أجمل اللوحات يا صديقي.. ما رأيك؟ سوف أعمل على إنتاج عدة لوحات تدور حول هذا المعنى؟"

أما صديقه فقد كان يعلم أنه لن يستمر في التجربة إلى النهاية، إنه يسخر ويهزئ كعادته ومن ثم لا يثق في نفسه كثيراً. لو جرب لوصل، بيد أنه اليأس يقتل في النفس أي رغبة في رؤية الأمل. لم يكن كذلك عندما عرفه في أول سنة بالجامعة. يستمر مفكرا أنه مرات ينتابه إحساس بأنه لم يكن متشائما، ليس هو مجرد إحساس بل شعور حقيقي وصادق تماماً، فهو كان يتكلم عما يسميه بالشروط الموضوعية لكل شيء. يجب أن يحدث ذلك لكي يكون هذا:

"هذه هي قاعدة الكون منذ الأزل والإنسان يا صديقي ليس استثناء أبداً. الإنسان ابن هذه الطبيعة وابن الله هو يتربى على نواميس الأشياء التي حوله، ليس له أن يخترقها"

ما زالت بقايا الأدهنة والأوراق القديمة مكدسة في الركن نفسه، ينظر إليها في غبشة أول المساء، يتخيل عيسى يتحرك قريباً منها، يتحسس الورق، يتنفس وهو يشتم رائحة الدهان الأزرق. كان يعشق اللون الأزرق لأنه لون النهر.. النيل والحياة.. عشقه للنيل لا متناه ساعة يتجلى في مدحه بقصيدة، ولم يكن أيضاً له من تبريرات منطقية أو كان يحمل قناعة نهائية بما يحسه، دائماً ظل هكذا.

يبعد وجهه إلى الخارج مراقبا الشارع من بعيد عبر بوابة صغيرة غير مفتوحة تماماً، كان اثنان من رفاقه في الفرن قد أحضرا العشاء، الفول والطعمية بزيت السمسم والجبن.. سوف يأكلون دون أن يشبعوا، ويشربون الشاي ويتسامرون إلى أن يناموا في هذا اليوم، فليس لهم من عمل منذ يومين بسبب أزمة الدقيق، التي لا يعرف أحد مستقبلها ولا من أين انفجرت، لكل طرف رواية، التجار

يتهمون الحكومة وهي تتهم التجار، والمتهم الأول والأخير هو الدولار، فالبلاد تعيش وضعا مزريا زاد تعقيدا منذ أن انفصل الجنوب ولم يعد من مصدر للدخل، كانوا يسرقون حصة البترول ولكن على الأقل كان ثمة انتعاش طفيف، الآن غمر الجدب القاحل كل شيء، وبات الدولار عملة صعبة بحق ما يعوق استيراد السلع من الخارج.

قبل أن يسافر عيسى منذ أقل من سنة، كان قد عانى كثيراً في أن يتمكن من لملمة دولارات اشتراها من السوق السوداء من المبالغ التي يوفرها من أجرة الفرن اليومية، وحيث كان يتعب جداً مع السماسرة الذين يحرقون الأعصاب في المساومة، كان يقول "ليس لي من علاقة بهذا السوء لكنني مضطر". وجمع مبلغا في حوالي 1200 دولار للرحلة التي كان قد انتواها ولم يخبر صديقه كثيراً عن تفاصيلها إلا بضع شذرات، وواقعيا لم يكن الصديق يفكر في الأمر بجدية تامة وقتها، كان يعتبرها بعضا من سخرياته المتناسلة بلا توقف عن القدر وألاعيبه.

* * *

ذات ليل جاء ليودعني، بعد أن غاب عن الفرن لأيام، أخذ قطعة خبز من الطاولة قرصها بطرف أصبعه ثم لاكها، وهو يكلمني:

"إنه الجوع يا صديقي يجعلنا نهرب.."

ابتسمت وأنا أرد عليه، أضع الخبز في الفرن الملتهب:

"الجوع.. أم حلمك بالحرية والشهرة الذي طالما تحدثت عنه"

"آه... لابد من أن تأكل أولا لكي تكون حرا وتشتهر.."

كطيف عابر مضى، رسم في ذهني علامات استفهام عن خطوته القادمة وعن وجهته، بدا لي غامضا وبدأت أنا أكثر غموضا ومعقدا لأنني لم أسأله كعهدي في الماضي معه ونحن لا نخفي سرا. كان ذلك القلق المجهول يتمكن مني، وكنت أعاني التشتت الذهني والعصاب وليس لي من شغل سوى أن أجلس وحيدا، أو لا أتكلم مع أحد أثناء العمل.

* * *

ثالثاً

بيونج 727

"ابني ما زال حياً وأحداث سبتمبر مسرحية أمريكية".

محمد الأمير؛ والد محمد عطا المتهم
الأول في أحداث سبتمبر

-1-

المكان: هامبورج.. مكتب التحقيقات الفيدرالي
الزمان: مطلع مارس 2015

مضى وقت طويل.. تغيرت فيه أشياء كثيرة.. نمت قصة حب مثل شجرة وأزهرت طفلاً هو الآن في بطن أمه ربما في الشهر الرابع أو الخامس.. لا يحمل الطبيب الشاب تأكيداً على ذلك، وهذه هي المفارقة. ربما لأن تخصصه مختلف، فهو يسلك طريقه للتخصص في مجال المخ والأعصاب.. كيمياء الدماغ البشري العجيب.. يعمل بدقة لفهم هذه المعجزة البشرية كما تتجلى الآن في رندا التي بدأت تستعيد الماضي، وهذا بالنسبة له مؤلم وغير محبذ، فهو لا يرغب في ذلك، يريدها أن تنسى كل الأشياء القديمة وتبقى له هو وحده. لا تتذكر من أحد سواه.

لرجل لم يجرب الحب من قبل فهو مستعد لفعل أي شيء، وهنا تصبح التضحيات ممكنة. يمكن له أن يكذب ويغتال شرف المهنة، عندما فعلها في ذلك اليوم ووقّع على التقرير بأن حالة الفتاة تسمح لها بأن تغادر إلى المسرح لحضور الحفل.. فعل ذلك بسبب الحب، الذي كان يتحرك في قلبه، بل في سائر جسده، في أماكن غير مفهومة وغامضة يعجز طبيب أعصاب أن يفهمها.

كان المحقق الألماني رجلاً متقدم السن، قوي البنية، مفتول العضلات، بكرش متمددة كثيراً. استمر يدور حول الكرسي وهو يمط شفتيه بشكل عجيب، يمصهما ثم يتكلم بعدها:

"إذن أنت كنت تعلم بأنها.."

"نعم.. كنت.. ولكن!"

"...."

لا يتكلم المحقق يترك له أن يكمل.. لا يكمل الشاب، بل يسأل:

"دعني أفهم السبب الذي تحركون فيه هذه القضية بعد فوات الأوان.. هي اليوم معافاة تماماً بل هي زوجتي.. بل..

يقاطعه المحقق:

"نعلم كل ذلك.. لكن القانون هو القانون والحق هو الحق.. ليس لقضية أن تموت بالتقادم.. أنت عرضت حياة كائن للخطر استغليت موقعك كطبيب باسم شيء غامض اسمه الحب.."

كاد الشاب يضحك رغم الموقف المزعج، فالمحقق نفسه يستخدم مفردة (غامض) لوصف الحب.. يبدو أن ذلك الشيء غامض فعلاً. لم يتبادر لذهنه من قبل أن الناس يمكن أن تنظر إلى الحب على الأقل نظريا أو مفاهيمياً من زاوية واحدة. كاد أن يقطع التحقيق ليتعرف على تجربة هذا الرجل المفتون في الحب، تخيل أنه أحب امرأة بمثل مواصفاته، راح يتأملهما وهما يصرعان بعضهما في السرير.. ليس لهذه الصورة أن تزاح عن خاطره، ولا يعرف السبب الذي جاء بها..

يسمع المحقق يردد السؤال:

"ولكن.. ماذا.. أخبرني؟!"

لم يكن للشاب من مبرر واضح.. غير ما قاله سلفاً عن ذلك الأمر الغامض.. الحب.. ولم يكن ذلك قطعا مقنعاً للرجل.. يبدو أن فئة الغموض عنده أو درجتها تختلف تماماً. كما أن القانون لا يعترف بالعواطف ولا يحترمها.. القانون يدّعي أنه يقوم على العقل والمنطق.. ليس لديه من مساحة لتقدير أن ثمة مشاعر إنسانية وأشياء أخرى وراء العقل يمكن أن تكون مبررات لارتكاب أبشع الجرائم.

في السنة الثالثة بكلية الطب أنجز دراسة بحثية قصيرة كنوع من المتعة، قدمها لأساتذته ولم يُبدوا بها كثير اهتمام.. كان موضوعها يدور حول الطب والقانون.. ولكن من منظور يتعلق بعلم الدماغ البشري.. بالأحاسيس والمشاعر. الموضوع الذي يشغله الآن أمام المحقق.. كان سؤاله الذي يشغله هل من الممكن للإنسان أن يرتكب جريمة بفعل تأثير عاطفي معين؟ وهل يمكن أن يأخذ القانون هذا التأثير على أنه حالة محددة يمكن تشبيهها مثلاً بالجنون بحيث يمكن أن نتعامل مع هذا الشخص بوضعية خاصة. ما يحدث أن أغلب هؤلاء الذين يقعون ضحية التأثيرات العاطفية والحب يزج بهم في النهاية في السجون.. ثمة خلل في القانون الذي وضعه البشر. القانون ليس إلا نتاج فكر معين لا يُراعي الكثير من الظروف النفسية والاجتماعية. كان يصعب عليه أن يوصل هذه الفكرة للمحقق.. اكتفى بمراجعة ذاكرته وصمت.

تأمل الرجل من جديد.. كان بنطاله يتدلى من الوراء بشكل عجيب، يبدو مثل

مراهق يجاري الموضة.. يذكره ذلك بأيامه في كلية الطب أيضاً.. وقتذاك جاء من بلاده إلى هنا في منحة من قبل الحكومة، أرسلوه على أنه طالب متفوق وجدير بأن يكرم. اليوم لو عاد الزمن للوراء لما حصل على هذه المنحة والسبب يتعلق بطبيعة الأفكار التي يمكن أن يكون قد تبناها. إنهم يكرهون كل من يفكر فيهم على أنهم مجرمون. هو يفكر بهذا الشكل. لقد تحولوا جميعهم الذين يحكمون ذلك البلد إلى عصابات، مافيات تصدر الموت والقسوة واللعنات المتواصلة..
في شهوره الأولى في ألمانيا، كان كل شيء قاسياً ومرعباً. أن تأتي من عالم ثالث إلى عالم أول، هكذا تقول القسمة الضيزى، تستغرق الأمور بعض الوقت لكي تأخذ مواقعها السليمة في خرائط الدماغ. العقل يرتب الأشياء بدقة لكنه يحتاج إلى وقت. في البداية كان مرتبكاً من مسألة أقلقته كثيراً؛ التشبيهات التي كانت تطارده في الشوارع وفي المقاهي والحانات التي ارتادها لاحقاً. الغالبية ممن تعرفوا عليه ينظرون إليه كثيراً ثم يفصحون عن السبب:
"أنت تشبه محمد عطا.."
درس محمد عطا المصري الأصل في جامعة هامبورج للتكنولوجيا، ويوم انفجرت صورته في العالم، كان أهل المدينة الألمانية قد ركزوا فيها كثيراً، أحقا كان يعيش هنا؟! يصبح المرء مثيراً للاهتمام في اللحظة التي يفعل شيئاً ما يشغل العالم. بات محمد أيقونة في عقول أهل هامبورج، وارتسمت صورته في أذهان الآلاف.. وذات يوم يأتي شاب له نفس خارطة الوجه والفم المطبق، فذلك يعيد للذهن تماماً مشهد برجين ينفجران، تلك الدقائق التي غيرت العالم وكتبت للبشرية أن تعيد التفكير في أمور كثيرة.
سمع المحقق يكلمه:
"أتعرف أنك..."
رد عليه:
"نعم، وهذا كان يزعجني جداً.."
"جميل أنك صادق مع نفسك.. هل سبب لك هذا الأمر مضايقات من أي نوع كان؟"
"لا أبداً.. فقط حب الاستطلاع وأحياناً الكراهية.. لكنها لا تهمني كثيراً"

يطوي الرجل الملف أمامه بطريقة غير مريحة للشاب الطبيب، ينظر من النافذة وراءه بعد أن يستدير بالكرسي، ومن ثم يخاطبه:

"لقد كان ضرورياً أن نسمع لك.. ساعة نرغب فيك سوف نطلبك.. شكراً لتعاونك"

"ولكن هل لي أن أطلب توضيحاً عن سبب استدعائي إذا لم أكن مذنباً؟"

رد المحقق مبتسماً:

"أنت مدان ولكنك لست مذنباً.. ثمة اختلاف.."

يغادر المبنى العتيق، يتركه وراءه، متنسما برودة الظهيرة المنعشة، يشعر برغبة في أن يكون وحيداً لبعض الوقت، حتى رندا لا تهمه الآن وليس له من تفسير واضح لذلك، حيث يتطلب ذلك بعض الوقت لفهمه بالأحرى دراسة مفصلة عنه؛ طالما أن القضية تتعلق بعمل الدماغ، هذا الآلة المدهشة المكونة من دم ولحم وفيها تجري كل العمليات المريبة والمفهومة وغير المفهومة، إنه ذلك الشيء الغريب الذي يغير العالم سواء للأفضل أو الأسوأ.

-2-

المكان: هامبورج.. شارع ماريون.. الشقة 54
الزمان: 1998 – التاريخ غير محدد بالضبط!

رتب محمد عطا أوراقه ورسوماته وهو في غاية الاستعداد للمناقشة التي سوف تجري صباح الغد في الجامعة بخصوص دراسته حول معمار مدينة حلب، كان عملاً شاقاً تعرف فيه على مكونات المدينة التاريخية وأعاد تركيبها ذهنياً ليرى فيها مكاناً جديداً غير المكتشف في الراهن، فالمدن هي اختراعات بشرية يتاح لنا أن نراها وفق الهوية التي نتحرك بها، الاعتقاد الذي ننطلق به ومن هنا بإمكاننا أن نغيرها باتجاه رغباتنا. يعتقد محمد عطا أن حلب قد تشوهت بفعل مؤثرات العمارة الحديثة، عدا أحياء معينة كتلك التي تجاور القلعة، تلك المساحات التي يتضح فيها التاريخ الحقيقي وربما المنسي للمدينة. وفي ذلك الفجر وبعد أن رتب كل أوراقه، كان قد أعاد قراءة رواية "الوله التركي" لانطونيو جالا.. توقف كثيراً مع استقراءاته حول مدينة حلب وتاريخها.. العمق الذي تعيش فيه هذه المدينة.
استلقى محمد على الأريكة في الصالة الصغيرة، كان الهواء رائعاً، ترك النافذة مفتوحة، وهو شبه مغمض العينين. يتذكر سنوات من طفولته في كفر الشيخ، حياته القرية والفلاحين والناس الطيبين كما يسموهم، لكن هل هم طيبون حقاً؟ يضع الشاب الطبيب الكتاب جانباً، يفكر في أن ينام قليلاً فهو متعب جداً. غدا سوف يكمل بقية الحكاية عن محمد عطا الذي يشبهه شكلاً. وربما مضموناً ليس هو متأكد من ذلك. فمن خلال معرفته الأولية بعلم الدماغ يمكن لتأثيرات معينة أن تجعلك تعكس أفكارك سريعاً جداً لتصبح كائن آخر. هو لا يخاف ذلك، غير أنه يريد لأي تغيير أن حدث أن يكون له استعداد مسبق، وهذا أمر لا يمكن التحكم به.
كان الكتاب مكتوباً باللغة الألمانية وهو لا يزال غير مجيد لها، يتعثر في بعض المفردات وربما يصعب عليه فهم بعض العبارات والجمل، ويكرر المحاولة، لا يعرف اليأس. اشترى النسخة من مكتبة صغيرة تقع قريباً من موقع سكنه، وبعد يومين كان قد سمح لنفسه بزيارة شارع ماريون يأخذه حب الاستطلاع لرؤية المكان الذي كان يعيش

فيه الرجل الذي كان يشبهه. ربما لو رآه بعضهم هناك لشعروا بشيء من الخوف، أو صدقوا تصريحات والد محمد عطا للصحف الألمانية التي كان يؤكد فيها أن ولده حي يرزق، وأن الرواية الأمريكية عن ما جرى في 11 سبتمبر ليست إلا أكذوبة نسجها العقل الأمريكي. تخيل أن يرى الجيران محمد عطا حياً يتحرك بينهم. والغريب أنه لا أحد اهتم به وهو يسير في الشارع يقطعه جيئة وذهاباً وحدد من بعيد الشقة التي يسكن فيها عطا، دون أن يقترب منها كان يمتلكه شعور بخوف لا يعرف مصدره، وعليه أن يستجيب لقلبه في هذه الأمور كما تعود.

لم يفكر في العودة مجدداً. ولم تنته النظرات إليه ولكن في غير شارع ماريون خاصة بعد أن جاءت ذكرى سبتمبر وكانت بعض الصحف تعيد نشر صورة محمد عطا بجوار أسامة بن لادن في الصفحات الأولى ووراءها الصورة الشهيرة لتفجير البرجين وهما يتم اختراقهما بطائرات بوينج 767. يعود بعد أيام للقراءة مجدداً، وهو غير مشغول بهوية الكاتب، يكتشف أخيراً أنه صحافي ألماني مغمور، كسب سمعة وصيت بعد أن كتب كتابه هذا عن حياة محمد عطا. الكتاب اسمه فقط رقم "54" وكان يشير فيه إلى رقم الشقة التي كان يقطنها محمد مع رفاقه ممن عرفوا بخلية هامبورج.

يفكر الشاب الطبيب، أن الكاتب يبدو متعاطفاً مع عطا حتى لو أنه إرهابي أو فعل ما فعل من جريمة تاريخية كما يثبت ذلك. كأنه يشير إلى أنه إنسان عبقري بحق، يتوقف مع براعته في الهندسة المعمارية وكيف أنه كان مثار إعجاب في الجامعة التكنولوجية في هامبورج.

"كان شخصاً جاداً إلى مدى بعيد.. ولم يكن ما يدل على أنه سوف يكون مصدر شبهة ذات يوم، يكرس معظم وقته للدراسة والتأمل.. هو مسلم ملتزم يصلي أوقاته في مواعيدها ولا يفرط في ذلك. وهو أيضاً خلوق جداً، لا أحد من الجيران في ماريون قال إنه كان سيئاً بل كان يساعد الجميع، كم مرة وأكثر قام بمعاونة نساء كبيرات السن في أمور منزلية أو اشترى لهن الأغراض في غياب أبنائهن، وكم تبرع لتقديم دروس لأبناء الجاليات المسلمة، دون مقابل، في اللغة العربية والدين. هذا لا يعني إنه كان متطرفاً. حتى أنه لحيته لا تكاد ترى لو جاز لهذا الشعر الطفيف أن يكون علامة لأي نوع من التشدد المقصود"..

يغلق الطبيب الكتاب يكون قد نام، ولا يفتح الكتاب بعدها إلا بعد أيام وفي صفحة

أخرى غير التي توقف منها.. هذه هي طريقته في القراءة.. وفي ذلك اليوم لأنه كان مشغولاً بترتيب سكنه الجديد مع مجموعة من الشباب الألمان كما يقتضي برنامج الدراسة، حتى يحسن لغته الألمانية، فقد قرأ سريعاً جداً.. وكان دماغه شارداً، ما أسعده شعوره بأن علاقته باللغة بدأت تتحسن.

"لم يعرف عن محمد أنه كان مغرماً بالطيران في سن مبكرة، بل كان يخاف السفر بالطائرات.. هذه الرواية قيلت مرتين على الأكثر في تصريحات منسوبة لزملاء دراسة، وهذا كان مثيراً في أن يكون له هدف ذات يوم بأن يسافر لدراسة الطيران والتدرب على طائرات بوينج 727 الكلاسيكية.. وكان هذا النوع من الطائرات قد وضع خارج الخدمة ولم يعد يستخدم إلا لأغراض التدريب فقط.. وقد استخدمت طائرة 727 في الستينات من القرن العشرين بكثافة، كانت نجمة في سماء الطيران. استطاع محمد عطا بعقله الذكي والمتفوق أن يقود هذه الطائرة العتيقة في ظرف ثلاثة أسابيع فقط. يعني أنه أجاد كل شيء. مدرب الطيران الفنلندي الذي دربه قال إنه كان تلميذاً استثنائياً لم يمر إلا قلة مثله على مدى سنوات بعيدة. وذكر أنه عندما سمع اسمه لاحقاً في قائمة مفجري البرجين، أصابته رعشة، لم يصدق أنه ذلك الشاب المثالي. كان يعطف على ذلك المدرب ويقدم له أموال ليست هي رشاوى إنما نوع من الإحسان، وكان يكلمه إن ديننا يأمرنا بأن نقابل الحسنة بخير منها، وأنت تعلمني بمحبة وهذا يشعرني بفرح غامر وعلي أن أكافئك.. ويروي ذلك المدرب أن محمداً كان يبدو مترفاً ينفق المال بلا هوادة ولكن في أشياء غير محرمة، لم يره يعاقر خمرا أو يرافق واحدة من بنات الهوى، لكنه يؤكد أن معلوماته قد لا تكون مكتملة لأنها قائمة على ساعات محدودة من اليوم يراه فيها.. ربما يفعل أشياء في باقي يومه لا يعرف عنها، لكنه يستبعد ذلك"..

-3-

المكان: هامبورج.. شارع ماريون
الزمان: مطلع مارس 2015

يجلس وحيداً في شارع ماريون، يستعيد صورة تلك الأيام والشهور الأولى عندما وصل إلى هامبورج، صورة محمد عطا التي تسكنه إلى اليوم وملاحقات الأعين له. منذ زمن بعيد لم يأت إلى هذا المكان، ولا يعرف الآن ما هو السبب الذي دفعه لأن يكون هنا. رغبته في أن يكون وحيداً ومتوحشاً؛ التوحش ذلك البعد الثاني الذي يسكن الدماغ البشري، كم هو محيّر هذا الجزء العجيب من جسم الإنسان والذي يسيطر على كل حياته.

في السنوات الأخيرة بات التوحش علماً في حد ذاته يستهوي الكثير من العلماء والأطباء، هم في العادة يجارون الموضة. يوم طرح الشاب الطبيب أبحاثه حول الصلة بين العاطفة والقانون لا أحد اهتم لأنه ليس من موضة ليتم مجاراتها، أو ربما لأن الناس عادة تجاري الأفكار التي تأتي من الكبار على حد زعمهم. أما هو فكان مجرد طالب طب يتلمس طريقه ربما إلى اليوم، رغم إحساسه بأن لديه الكثير مما يمكن أن يقدمه للعالم. منحته ألمانيا الأمان والحرية التي كان يفتقدها، أي شعور الثقة بالذات بوجه محدد، لكنها سلبت منه التفوق الذي كان يشعر به بين أقرانه في مصر، الآن هو كائن ربما عادي. هل لأن أفكاره لم تعد ذات قيمة حقيقية أم لأنهم لا يهتمون إلا بالأفكار التي يرغبون فيها، مرات يتوقف ليقول إن الخلل كامن فيه.

يتوقف فجأة، ما الذي يشغل ذهنه بهذه الأفكار، لماذا هو متوجس من الغد، من أمر غريب يكاد يخنقه؟ هل هو الاستجواب الذي خضع إليه اليوم من قبل هذا المحقق المعتوه.. أكثرهم معتوهون هؤلاء المحققون وهو يعرف ذلك تماماً، كم فكر في هذا الموضوع وهو يقرأ وقتذاك عن محمد عطا، كيف أن روايات ذهبت إلى أن مجرد وجوده في هامبورج ليس إلا خيالاً، فلا أحد كان هنا بهذه الدقة التاريخية، الموضوع برمته لا يعدو خيال أحد هؤلاء المعتوهين. ولكن من يغالط التاريخ والمخابرات والأمن الألماني والأمريكي. أحياناً يرى أن كل القصة ملفقة، ومرات يصدقها، كيف

له أن يفهم عدم اهتمام سكان شارع ماريون به.. التحليل المنطقي والبسيط أن سكان المنطقة لم يعتادوا على هذا الوجه، لم يتم تركيبه كجزء من خيالاتهم، لكن ثمة ما هو خفي وراء ذلك يتعلق بالدماغ الجمعي، كما يمكن أن يسميه محمد. الغريب أن الاهتمام حدث في أماكن أخرى. وهذا قد يدل على أن صورة محمد عطا التي تم تركيبها في الأذهان هي صورة أوجدها الإعلام، فهل يكون والده على حق وهو يزعم أن ابنه قد هاتفه بعد يومين من 11 سبتمبر، وهل تكون تلك المهاتفة من الفردوس مثلاً كما يمكن أن يسخر أحدهم.

أحياناً تحدث أحداث كبيرة في العالم لا نلقي لها بالاً إلا في اللحظة التي نكون جزءاً منها، بقدر ما ثمة ما هو مهم إلا أنه لا يهمنا بمجرد أن يتحيز فينا ويشغل مساحة من وجودنا. قبل مقدمه إلى هامبورج لم يهتم بمأزق سبتمبر، لم يمثل له أي قيمة، ولا أحد قال وقتذاك بأنه يشبه محمد عطا، ربما لأن الجميع هناك نسخة مكررة من ذلك الوجه. كان مشغولاً بالدراسة في جامعة عين شمس، وكان يرغب في أن يتخصص في مجال علم النفس بالتحديد، غير أن البروفيسور نور، الذي كان قد اكتشف نقطة مشرقة فيه هو الذي رشحه للسفر للمنحة وقال له وقتذاك:

"مكانك ليس هنا يا محمد.."

كان البروفيسور نور رجلاً مقرباً من النظام، يقال إن له علاقات نافذة مع كبار الوزراء في حكومة الرئيس مبارك، وقتذاك لم تنفجر قنبلة الربيع العربي.. ولم يعد الإجرام هو الذي يسيطر على تشكيل كل الواقع السياسي والاجتماعي في مخيلة محمد.. سوف يقولون له إنك مخطئ يا محمد فليس الجريمة هي التي تشكل صورة العالم.. ولكن لن يهتم بذلك كثيراً، هو يعرف الحبكة جيداً ويفهم اليوم كيف يفسر الأشياء الغامضة بوضوح، لم يعد ذلك الشاب الصغير الذي يمكن خداعه، فتخصصه في عالم الدماغ البشري منحه الفرصة الكافية لكي يعلم ما لا يعلمه الآخرون. فالطريقة التي يعمل بها عقل السيسي في مصر الآن هي نفسها طريقة عقل مبارك ومرسي.. ليس ثمة اختلاف.. الجغرافية العربية لا تفرز جديداً إنها تعيد تدوير نفسها وإلى الأبد.. ما لم يحدث تغيير جوهري في الدماغ. الإشكال أن ثمة خلل جيني على ما يبدو.

يتخيل محمد أن الإنسان بمجرد أن يبدأ في صعود سلم الديكتاتور، يبدأ الدماغ في العمل بطريقة معينة، يفرز مركبات نوعية وبروتينات فاسدة غير مرغوب فيها تشكل

حولها هالات في نقاط معينة من المخ، ليتكلس هذا الدماغ ولا يعود يفكر إلا بطريقة واحدة هي التمادي في اللعبة إلى النهاية. قد تكون مناقشة هذه الأمور غير منطقية لهؤلاء العلماء الألمان المعتوهين كما محققينهم، "بيد أنه سوف يأتي اليوم الذي سوف تثبت فيه للعالم صحة نظرياتك يا محمد".. يكون قد كلم نفسه، ثم نفض وراءه، ليزيل قليلاً من الغبار أسفل البانطلون، لا يعرف مصدره بالضبط، فالشارع نظيف جداً. كل شيء نظيف هنا، إلا لوثات الدماغ التي يصعب غسلها.

يتخيل العالم المتقدم أنه أكثر تفوقاً في كل شيء. وأن السبب يتعلق بهم، بقدراتهم، بقدرتهم على خداع الشعوب البائسة، في حين أن المسألة هي بيولوجية بحتة. إنها متعلقة بهذا الصندوق الذي يسكنه الدماغ. ومع تقدم العلم الحديث يمكن لنا إجراء عملية جراحية بسيطة لنعدل كل شيء.. يتخيل محمد أن جراحة تستغرق ثلاث ساعات في مخ زعيم عربي يمكن أن تجعله أكثر رأفة ومحبة لشعبه. لقد أجريت أبحاث من هذا النوع على الفئران، وتظل هذه الأبحاث طي الكتمان. هو يعلم بذلك وأنها لن تخرج إلى الملأ لعدة أسباب، فالوقت المناسب لم يحن بعد، ففي الغرب قانونهم يقوم على كلمة اسمها "الوقت المناسب" كما أن أي اعتراف بهكذا أبحاث يعني اعترافاً بأناس على شاكلته وهذا يهدد علماء كباراً في هذا البلاد، لن يسمحوا لمتدربين صغار جاؤوا من التخلف بأن يكونوا عظماء.

لا يعرف محمد حدود منطقة ولا أوهامه، فمرات يتخيل أن نظرته للعالم هي التي تقيد ذلك. تماماً كما كان محمد عطا ينظر للأمر بوجهة نظر ذلك الكاتب الألماني. "كان كائناً وديعاً جداً.. ملتزماً وأخلاقياً، هذه الصفات الرائعة هي التي قادته لتدمير نفسه، لأنه في المقابل كان يمكن أن يكون متهوراً ولا يفعل أي شيء.. ربما يتعلق ذلك بجدل فلسفي.. غير أن الواقع له قرائنه الأخرى التي قد لا ندركها"..

يعلم محمد أن كثيراً من الكتابات من هذا النوع ليست إلا تحليلاً مزاجياً للكاتب، حيث يحاول أن يسقط إشكالات خاصة به في شكل كتابة يحكم بها على العالم الماثل. والموضوع يعود مرة أخرى إلى الدماغ، تلك الكيمياء التي تحكم كل العالم. هذا السر الخفي الذي لم يتم اكتشافه بعد. يهرع محمد ليغادر شارع ماريون يكون قد تأمل المباني العالية ذات السطوح الحمراء في الحي الذي من المفترض أن عطا كان أحد سكانه ذات يوم، لا أحد يملك الحقيقة المطلقة. يعاين بدقة للشقة المفترضة

"54" التي نسج عليها الكاتب الألماني قصته، ينتابه أحساس قوي أن الاقتراب من هذا الموقع قد يكشف له أسراراً ما غير أن السؤال الذي يظل يراوده: "ولما هو مهتم بالأمر، لماذا؟"..

يتحرك ببطء إلى أن يصل المنطقة المحددة، ثم يقترب رويداً كمن هو يمشي داخل حلم غامض، كابوس.. يترآى له أن ثمة من سيحس به وسيصرخ، ربما الآن سوف يبدأ الاهتمام به لتنسج قصة أخرى في وسائل الإعلام أن محمد عطا حي يرزق بل يقيم في الشقة نفسها، لماذا ضللوا العالم إذن؟ ثم تبدد هواجسه مرة واحدة، عندما يطرق قليلاً على الباب، لا يوجد جرس يمكن الضغط عليه.. لا أحد يفتح.. لا شعور بأن هناك كائن يقيم بالداخل، حتى لو أشباح تسكن المكان.. هل أغلقوا هذه الشقة إلى الأبد منذ ذلك اليوم الذي جرى فيه ما جرى، في هذه المدينة التي أصبحت للمهاجرين بلا منازع.. كما يصورها الكاتب الألماني، وهو يتحدث عن قصص مئات الطلبة العرب الذين جاؤوا هنا، بعضهم كان أخلاقياً وطيباً وبعضهم الآخر كان يفتقد للرزانة والحكمة.

قبل عامين كما يذكر محمد جرت محاكمة أحدهم بتهمة محاولة اغتصاب فتاة في العاشرة من عمرها، قيد إلى المحكمة وحكم عليه بالسجن عشر سنوات وفي النهاية تدخلت قنوات دبلوماسية من بلده نسبة لوضعه الاجتماعي، ليعاد إلى بلده دون أن يكمل دراسته، ويبدو أنه لم يكن مهتماً بالموضوع برمته. يأتي بعضهم بغرض المباهاة وإظهار أنه يمتلك الثروة والقدرة على فعل كل شيء، أما الفقراء أمثال محمد فليس لهم من سبيل سوى الانتباه للعلم وتعويض فقدانهم في الطفولة بمحاولة تدريب هذا الدماغ العجيب على أن يفعل المستحيل إن استطاع.

يستمر واقفاً لقرابة ثلاث دقائق، أخيراً تفتح صبية الباب، تبدو في العاشرة من عمرها أيضاً.. كأنها استدعاء لما دار في خاطره قبل قليل، ثم يقف من وراءها شاب مهندم بسحنة ألمانية واضحة، توقع دماغ محمد أن يرى وراء الصبية شاباً عربياً وقد خاب ظنه، يبدو أنها شقيقان فالشبه كبير بينهما.

يعتذر محمد قائلاً دون أن يفكر كثيراً:

"يبدو أنني أخطأت. فأنا أطلب شقة أخرى هنا"

يرد الشاب:

"ليس من مشكلة.. يحدث هذا كثيراً.. وعلى أي حال حتى لو لم تكن مخطئاً فمرحباً بك.. أتعرف أن محمد عطا كان يقيم هنا، الكثيرون يأتون لكي يروا هذا المكان"

أصيب محمد بالشغف، لم يتوقع أن يكون الأمر بمنتهى السهولة، بعيداً عن أي سيناريوهات نسجها دماغه. أزاح التفكير في شأن الدماغ بصعوبة، سمع الشاب يستمر في الحديث:

"كم من الصحفيين بالذات وصلوا إلينا.. والسيدة ميركل زارتنا أيضاً"

"أسمح لي بأن أسألك هل أنتم مستأجرون أم ملاك؟"

"نحن نملك هذه الشقة؟"

"هي لأسرتكم إذن؟"

"نعم.. بابا وماما ماتا قبل خمس سنوات في حادث مروري في أريزونا الأمريكية.. ذهبا هناك لإجراء أبحاث علمية"

قال محمد بامتعاض:

"نعم.. نعم"

فهم الشاب الألماني أن استطراده في الكلام عن تفاصيله الخاصة لا يهم الشاب الذي يقف أمامه، رد عليه:

"علي أي حال.. إذا شئت الدخول تفضل.."

وأومأ له بأن لا سبيل للانتظار الطويل.. وفكر محمد ماذا سيرى وماذا سيحصل، أو ماذا سيستفيد من إقحام نفسه في المكان، وقد يسجل له ذلك شبهة ذات يوم.. في علم المخ يمكن لوجودك في مكان ما تعرض لأثر معين من شخص بكاريزما معينة، يمكن لذلك أن ينعكس عليك.. ثمة احتمال ولو ضئيل.. يقرر أخيراً:

"شكراً.. ما حدث أنني أخطأت.. كنت أبحث عن شقة أخرى يسكنها شباب من مصر"

ضحكت الفتاة، قالت:

"من زمن طويل لا يسمح بسكن المصريين هنا في هذه البنايات!"

رد محمد سريعاً:

"ربما كان في البناية الأخرى"

وهرول سريعاً هارباً بأفكاره التي قد لا تكون منطقية أو لها مبرر.. طوال سنوات

مضت في هذا البلد تعامل مع قصة محمد عطا كفزورة وتجاوزها مع الزمن، فلما يهتم بها الآن.. هل هو هذا المحقق المعتوه.. ربما.. ليس من تأكيد!! ما أثار استغرابه وانتبه له الآن بعد أن ابتعد عن شارع ماريون.. لماذا لم يثير شكل وجهه أي شغف أو استغراب لدى الصبية وشقيقها، هل بات لا يشبه محمد عطا، وبحث سريعاً عن مرآة في واجهات المحلات التجارية ليتأكد من هويته. بدا له وجهه معتماً كما لو أنه كائن آخر، كما لو أنه ذلك المحقق المعتوه في صباه. أسرع لمغادرة الحي، شعر بشيء من الإحباط لم يجد له تفسيراً.

-4-

المكان: شارع بيترشتراسه.. بناية قديمة
الزمان: مطلع مارس 2015

يصل محمد متعباً فقد مشى كثيراً، غير أن رهقه الأساسي كان مترتباً عن دماغه الذي لا يهدأ. كانت رندا في انتظاره تقضي الوقت في تعلم اللغة الألمانية مستعينة بموقع اليوتيوب وجارات لا يبخلن عليها هن في سنها تقريباً غير أن أغلبهن غير متزوجات. في المساء وساعة يتأخر محمد في المستشفى تكون معهن، يأخذنها في الكرسي المتحرك إلى الحدائق المجاورة وأحياناً إلى نهر الألبه. لا يبخلن عليها، يبدين اهتماماً بوضعها الصحي الذي بدأ يتحسن بوضوح، فمنذ أن جاءت للإقامة هنا مع محمد كانت تبدو هزيلة البنية وغير قادرة على استدراك الأشياء من حولها. كائن تائه بلا ذكريات، فقط لديها أمل بأن وضعها سيصبح أفضل في الغد.

كان محمد يمنحها كل شيء. الوقت والحنان والألفة. وهي تسترجع تلك الأيام القديمة من طفولتها. كأنها لم تكن أبداً. مرات تصبح الحياة مجرد افتراضات لما عشناه، حيث يبقى التخيل هو الأقوى. التخيل لما كان ولما سوف يصبح. مع مرور الأيام باتت تعيد صورة عشقها القديم لليدي غاغا وبدأت تتذكر الأغنيات التي أحبتها، لاسيما "وجه البوكر" عندما تنتهي الأغنية بعبارات "مام ماما ماه".. تطلقها ليدي غاغا وهي تخرج من المسبح شبه عارية، ومعها يختلج رندا إحساس بأن وضعها غير الطبيعي بدأ يختلف، الشعور القديم بأن ثمة شيء خاطئ. العشق الحرام. مرات كان تظن ألا علاج من ذلك الشغف الغريب بجنسها، وهي تراجع صور البنات اللائي كن زميلات لها في المدرسة، وهي تقضي الوقت في غرفتها في تذكر صورهن وأجسادهن، وتمارس الخلو لنفسها وهي تمسك بهن، تجد متعة كبيرة، ما لا يمكن تصوره من الجنون الذي يمكن أن يحس به أي كائن وهو يخرج عن نطاق وجوده الجسدي.

اليوم لا يعود هذا الشعور موجوداً، فما الذي جري، فهؤلاء الفتيات الألمانيات.. جميلات جداً.. أجسادهن أحلى وأنسق من أولئك اللائي تعرفت عليهن في الطفولة والصبا لكنهن لا يثرنها أبداً. ويبدو لها هذا اللغز غريباً ترغب في تفكيكه، تعلم

أن محمد قادر على حل المعادلة ولا تتجرأ على سؤاله، على أن يوظف خبراته في علم المخ والإدراك ليصور لها ما حدث معها، وإن كانت تظن أن لذلك علاقة ما بالارتجاج الذي تعرضت له. هي لا ترغب في أن تفضح تاريخها، وعليها أن تنسى الماضي كما نصحها محمد أكثر من مرة:

"فليس لك من تتكئين عليه في هذا العالم سواي"

يحدثها بجدية تامة، وكان بالنسبة لها يبدو ذلك واقعياً جداً، فلا أحد بقي من أسرتها ولا حاجة لدماغها أن يسترجع تلك الآلام التي عبرت بها.. حتى مجد الذي ظنت أنها أحبته فقد تركها وذهب لسبيله، هي إلى اليوم لا تفهم المبررات التي جعلته يقوم بالواجب اتجاهها وينقذها من موت محقق، ومن ثم يذهب بعيداً بعد أن بدأ في التأثير عليها بما لا يمكن تصويره، هذا الغموض الذي يسمى أحياناً حباً. تقارن بين محمد ومجد، كلاهما تعامل معها بشفقة وحنان كبيرين، غير أن أحدهما كان قاتلاً على ما تظن.. ليست متأكدة تماماً.. إلى اللحظة ليس بمقدورها أن تتأكد من مجد وطبيعته هل كان يتعامل معها انطلاقاً من موقف يتعلق بالتكفير عن الذات أم كان ينفذ تعليمات سادته أم يحبها حقاً؟

في المستوى الآخر فإن محمد انطلق من الشفقة، هي متأكدة من ذلك قد تكون هي أول حب له كما يدعي، ولا يوجد ما يجعل ذلك صحيحاً أم لا.. ليس من ضمانات في هذا العالم، هذه هي الحكمة التي تعلمتها من محمد نفسه وهو يشرح لها الكيفية التي يتكيف بها المخ البشري مع العالم من حوله منذ الطفولة المبكرة إلى أرذل العمر.

هاهو يقف أمامها، يبدو ليس كعادته، لقد خرج مبكراً بعد أن تم استدعائه عبر الهاتف، أخبرها بأن الأمر يتعلق بالمهنة وهو خارج. ورأت الكذب في عينيه وقتذاك، وهي الآن في انتظار أن تفهم بعد عودته. لهف النساء لفهم كل شيء لا حدود له..

"هيا كلمني ما الذي جرى معك؟"

يسرح بعيداً في تفاصيل ما حدث معه اليوم.. أمور كثيرة فعلها لا مبرر واحد لها، إنه ما يسمى بالجنون في العرف الطبي، في اللحظة التي يتخلص العقل من صناعة المبررات المنطقية يكون التفسير الملموس لما يجري هو الجنون.. لا غير.

سألها:

"هل فكرت ذات يوم يا رندا أنني كائن غير عاقل"

ابتسمت بخفوت، ردت وهي تضحك:
"دائماً كنت كذلك..."
كعادتها مرات تحاول أن تجعله يواجه حقيقته، وهو لا ينزعج من ذلك.. بل يحبه كثيراً.. فطالما بحث عن المرأة التي تجعله يرى صورته الثانية التي يحاول أن يزيحها عن خياله.. استطردت تسأل مجدداً:
"لم تخبرني ما الذي حدث؟"
هل يقول لها مجرد عمل، هي تعرف أنه لم يذهب للمستشفى. الرجال الشرقيون ميالون للكذب لا يعرفون أن يكونوا شفافين واضحين. الأمر أيضاً يتعلق بنظره بكيمياء الدماغ، تماماً كعقدة الديكتاتور. ويمكن لعملية جراحية إذن أن تعالج الوضع وتعيد الرجل إلى الصفاء والصدق، أن يقول كل شيء دون أن يكذب أبداً. وقرر ألا حاجة لهذه العملية، أوضح لها:
"حققوا معي.. لا زالوا يتذكرون يوم خروجك لحفل ليدي"
فهمت الوضع، وقد شعرت بشيء من الانزعاج.. ولم تتكلم، انتظرت أن تسمع منه أكثر..
"المهم.. فقد تم إغلاق الملف.."
قالها دون أن يكون متأكداً.. تماماً...
كان سؤال واحد يقلقها:
"وهل يؤثر ذلك على مستقبلك المهني؟"
كان صعب عليه أن يجيب على السؤال بدقة. يمكن أن يقول لا.. غير أن الإجابة غير واضحة مطلقا.. من الصعب التكهن بالطريقة التي تعمل بها أمخاخ البشر لاسيما إذا اجتمعت في غرفة واحدة لمناقشة أمر معين. كان واضحاً، رغم القلق الذي سيطر على كلاهما، أن الإجابة هي:
"لا أعرف يا حبيبتي"
"...."
"على الأقل الآن لا يوجد من مهدد.. وإذا حدث فهناك حلول.. لا تقلقي.. لن يكون من خطر"
قال ذلك وهو لم يفكر ومنذ أن خرج من مكتب التحقيق أن ثمة مهدد، ولم يدر

بذهنه أبداً هذا الموضوع، أما الآن فقد سرت حمى عجيبة في جسده، كأنه يهتز.. لم يكن يعرف الخوف في الماضي عندما كان بمفرده، لكنهما الآن شخصان، هكذا يرى الأمر. وعما قريب سوف يصبحون ثلاثة. التهديد يصبح أكبر، ودرجة الخطر ترتفع كما يردد رجال الاستخبارات.. تلك العبارة التي وردت كثيراً في سيرة محمد عطا.. يشعر بحاجة لما يطفئ قلقه، ويبدد مخاوفه، يقترب منها. رندا. يمسك بها ويضمها لصدره، يطفئ الإنارة ينام بجوارها إلى الفجر. لا يحلم بأي شيء. مطلقاً.

* * *

في آخر لقاءات الفيسبوك أخبرني أنه في انتظار قرار اللجوء، ويبدو مرتابا من تحقق ذلك، هل سيمنح أم لا؟ فالمعايير لا تبدو واضحة، وثمة تحيزات. أوروبا كبلداننا في بعض المسائل، الاغواءات العابرة موجودة كما التحيزات السياسية والعرقية، لا تسمع عن هذا الضجيج الذي يتكلمون عنه حقوق الإنسان، إنها لافتات فحسب.

لا أعلم إن كان ما يقوله صحيحا أم نتاج أزمة عابرة، ضيق، والغريب أن الموافقة على طلبه تمت، تأكد ذلك بعد انتحاره بحسب ما نُشر في الصحف وما نقلت فضائيات كالبي بي سي اهتمت بقصته في تقرير إخباري، سمعته جيداً وأنا جالس في غرفة الفرن، أتخيله معي، كأن الزمن لم يتقدم أبداً. ثم التفت فلا أعود أعثر عليه أبداً، لقد أخذ الموت جسده وقبلها الهجرة. لكن روحه وأطيافه لم تغادر هي تحوم هنا لاسيما في الليل.

ولأنني أثق في البي بي سي فقد اعتمدت على روايتها ولم أحفل بما قالته فضائيات أخرى بعضها حاول توظيف الموضوع برمته لمسائل مؤقتة، وحسابات سياسية لصالح جهات بعينها لا أعلم من تكون ولم اهتم بالأمر. كأن روجوا أنه ضحية جماعات العنصرية الذين يحاربون الإسلام في أوروبا، أو المسلمين وهذا غير صحيح بالنسبة لعيسى فهو لم يكن مسلماً ملتزماً ليكرهونه، حتى أنه لم يكن يصلي في أغلب الأوقات، كان له نفثه الخاص مع الدين، أقرب للمتصوف والعاشق الإلهي الكبير وكان معجبا بابن عربي والنفري والحلاج

وأئمة التصوف، دون تعمق كبير في قراءتهم كما يبدو لي، وقد كان ذلك منذ تلك الأيام التي جرت فيها نقاشات كثيرة بيننا في سنوات الجامعة. غير أنه من الصعب الحكم على أفكاره بشكل نهائي، لأنه مرات يمارس نوعا من التجهيل لذاته بحيث يقدم إفادات مزيفة تظهره على أنه جاهل أمامك، كان يجد متعته في فعل ذلك. في النهاية ما علاقة انتحار شخص بالعداء للإسلام، لا يبدو الموضوع مقنعا! إنها غوغائية وسائل الإعلام..

انتهى التقرير التلفزيوني وأنا استلم مكالمة هاتفية من صديق قديم لنا مشترك لم أسمعه منذ عامين، لا أدري كيف عثر على رقم هاتفي، يخبرني أن جثمانه سوف يصل غدا بمطار الخرطوم وعلينا أن نكون هناك لنلقي عليه النظرة الأخيرة، الوداع الأبدي، فربما لن نلتقي مرة أخرى في هذا الكون الغامض.

كان صديقنا هيثم بركات يقول ذلك وهو يضحك، كأنه يسخر من أمر ما لا أعلمه. ووجدت ذلك مخجلاً، وسألته بغضب:

"لماذا هذه اللهجة وصديقنا قد مات؟"

انتبه إلى أن تصرفه غير سليم، اعتذر وقال:

"لا أقصد.. ربما تغيرت في الفترة السابقة وأنت لا تعرف.. على العموم نلتقي غدا"

كان هيثم شابا طموحا وتجريبيا لحد بعيد، لم يكن موهوبا بدرجة كبيرة مثل عيسى، لكنه استطاع أن يصنع اسمه في وقت وجيز في حيز الجامعة بين الشباب لكونه صاحب محاضرات يقدمها عن تنمية الذات بين حين وآخر، وقد كسب من خلالها بعض المال عندما استعانت به إحدى الشركات في الخارج.. أعني خارج حوش الجامعة.

أتذكره بجسده الممتلئ وهو يذرع المدرج جيئة وذهابا، يحكي عن نظريات العقل الباطن والتأثير على الآخرين.. ويصفق بقوة وحرارة وهو يكلم نفسه ويواصل محاضرته.

نجلس أنا وعيسى في الصفوف الأخيرة غالبا، نكاد لا نصدق مدى التأثير

الذي بات يصنعه في الزملاء من الكليات المختلفة.. كأنه ساحر حقيقي.
لم أفهم سبب ضحكه غير المبرر، عندنا الضحك في حضرة الموت عيب.
وفي اليوم التالي فهمت منه ونحن خارج صالة المطار تحت الشمس الحارقة ننتظر وصول عيسى جسدا للوطن، أخبرني أنه مر بتجربة غريبة قادته لعدم التحكم في بعض تصرفاته، قلت لنفسي: "إذن لست وحدي".
لم يرو لي كل القصة، اكتفى بالتوضيح، أنه خضع للعلاج على يد أحد شيوخ الدين بعد أن قرر ذلك بنفسه، بناء على نصيحة قدمتها أمه لم يستطع أن يتجاوزها.
"قبل سنوات لم يكن ليحصل ذلك"
أخبرني وأكمل:
"لكنه اليوم حصل.. ولا أفهم ما الذي يجري معي"
ضحكت.. أنا الآن أيضاً أضحك في حضرة الموت، قلت له:
"نحن أسرى عصاب جماعي دون أن ندرك ذلك، هل سمموا هواء هذا البلد؟"
اكتفى بأن قال:
"ربما"
هبطت الطائرة، وصل صندوق بني اللون محمولا على سيارة سوداء عريضة كان يقودها ضابط أمن علمنا أنه من أقارب عيسى، سافر إلى النرويج حيث استلم الجثة وعاد بها. كان يقود السيارة بجنون وهو يخرج من البوابة إلى أن توقف بها، اقترب والد عيسى ألقى نظرة على الصندوق كأنه غير مهتم، لم تكن هناك نساء يبدو أنهن منعن من الحضور.
عرفنا أننا نحن الوحيدان، أنا وهيثم، فأين الأصدقاء والأقارب، ولماذا هربوا؟ يصعب الإجابة على بعض الأسئلة، كان هيثم مستغربا شعرت بذلك في تفاصيل وجهه ولم نتكلم عن ذلك، اكتفينا بالدهشة الداخلية.
قررنا أن نغادر من المطار، فالوضع لا يتطلب منا أن نتكلف الكثير لكي نسافر معهم إلى حيث سيدفن عيسى في مدينه على الحدود قريباً من مصر، المدينة

التي طالما أحبها دون أن يكتب عنها قصيدة واحدة ذات يوم على حد علمي، كان يعتقد أن الأشياء التي نحبها حقا لا نقدر على وصفها. فهل كان يكذب بخصوص حبه للنيل، تبادر الاستفهام برأسي وأغفلته.

ودعني هيثم سريعاً كانت معه سيارة حديثة، قادها وانطلق دون أن يعرض علي أن يوصلني لوجهتي. ولم أكن أفهم لما تصرف هكذا، هل ما زال مجنونا؟ فمن الواضح إذا كانت روايته الأخيرة صحيحة انه ذهب للعلاج عند شيخ دين؛ فلابد أن داهية نفسية صادته.

* * *

رابعاً

الساعات المعلقة

"أقصى الآمال تولد من أقصى الشقاء".

برتراند راسل

-1-

المكان: هامبورج محطة القطارات
الزمان: صباح في نهاية شتاء 2014

تتميز محطة قطارات هامبورج بقطاراتها ذات اللون الأصفر الممزوج بالأزرق.. الساعات المعلقة في كل مكان تقريباً بما في ذلك البوابة الرئيسية.. مكان مزدحم وغير مريح للغاية ربما لمن يصله لأول مرة. غير أن الذي يعتاد عليه يحبه فعلاً. أما كاثرين جونز فليس لديها شعور محدد.

هي المرة الثانية التي تصل فيها هامبورج على متن القطار، وهي مشغولة بالإرهاق المفاجئ الذي داهم صديقتها ماليدا عمر، لابد من نقلها إلى عناية مركزة بأسرع وقت. فالوضع الصحي لها يشير إلى ذلك، ومن ملامح أولية فربما يطلُّ طفل في المستقبل إن لم ترغب ماليدا في العكس، فهناك وقت كاف للتخلص من الجنين. لم تقرر ماليدا بعد، احتاجت إلى يومين إلى أن استفاقت لوضعها الطبيعي، وكان عليها أن تقرر. تعلم تماماً أن والدها السيد عمر لن يكون رحيماً معها بهذا الخصوص، حتى لو أنه بدا في بعض المرات إنساناً متحرراً، يجب عليها أن تسرع لاتخاذ ما يخصها هي لا غير. وإلا كانت النتائج كارثية.

تحاول أن تعثر على إجابة محددة بخصوص والدها أو والدتها السيدة زينب، تبدو الصورة أوضح بالنسبة لزينب فهي امرأة سودانية قحة لم تغيرها سنوات المهجر كثيراً، تتمسك بتقاليد الحناء ودخان المرأة قبل مجامعة الرجل وتكثر من الثرثرة بشأن أمور غير مهمة، كل ذلك لا يمنعها في مرات كثيرة من أن تبدي كراهية للبلد الذي جاءت منه، أن تصفه بأنه متخلف ولن يتطور أبداً.. تتكلم عن موروثات لا يمكن التخلص منها، وإذا ما واجهها عمر بهذا ردت ببساطة:

"تمسكي بأمور أراها من قبيل التراث الذي يمكن أن أفتخر به، في حين أن ما أتكلم عنه بخصوص نساء السودان أنهن يقضين وقتاً طويلاً في الحياة بلا هدف"

ولكن هل كان لزينب من هدف. تتذكر ماليدا أن والدتها قررت أن تعمل معلمة في أحد مدارس رياض الأطفال، تقول إنها تحب الأطفال جيداً. وبالفعل بدأت في

العمل ولكنها امرأة عصبية، لا يمكن لأحد سوى عمر أن يحتملها وفي النهاية.. يعني بعد أيام وجيزة لم تكمل شهراً، كانت قد عادت إلى البيت مطرودة من الروضة بعد أن حاولت ضرب طفلة، ولأن عائلة الطفلة سودانيين فقد تم محو الأمر بسهولة، لأن وصول القضية إلى الشرطة كان سيصبح مأزقاً لزينب، وكان مديرة الروضة السيدة البريطانية العجوز ذات الأصول الأفريقية قد تغاضت عن الأمر بما يشبه المعجزة، ونادراً ما يحدث هذا الشيء.

بعدها عملت في سوبرماركت كبائعة وتعلمت من التجربة السابقة، ولم يستمر الوضع هذه المرة أكثر من شهرين. يعني كان الوضع أفضل من المرة الأولى.. مع السنوات يمكن أنها أصبحت أفضل بكثير، غير أن الرحلة ما زالت مستمرة. تعبر ماليدا عن تخوفها لكاثرين.. تسمعها ترد عليها:

"أنت التي تقررين. أعتقد أنك ناضجة وقادرة على حماية نفسك قانونياً"

"قد يكون ذلك سليماً.. لكن هل سيحترم عمر القانون؟ وكيف سأدبر وضعي فليس لي من مكان التجئ إليه الآن؟!"

"بالنسبة للمشكلة الأخيرة يمكن أن تعيشي معي.. أنت تعرفين أنني أعيش وحدي منذ فترة.. أما بالنسبة للمشكلة الأولى فأعتقد أن عمر لو قام بأي عمل متدهور فسوف يخسر وضعه وسيذهب إلى السجن"

كانت ماليدا تسمع ذلك وهي غير متأكدة. لأنه لم يحدث أن مرت بتجربة كهذه من قبل، وفي النهاية قررت أن تتخلص من الطفل، هذا هو الحل السهل والنهائي. خاصة أن والد الطفل لن يكون مهتماً به، أخبرت كاثرين:

"يمكن لي أن أحتفظ به لو أن والده كان معي.."

"يمكنكما أن تعيشا سوياً.. ألم تقولي أنه ذاهب إلى لندن؟"

"نعم.. غير أنني لا أعتقد أنه سوف يهتم بالأمر.. وربما أنكر الطفل"

"إذا أنكر فيمكن معرفة الحقيقة"

"أعلم ذلك.. لكنني لست مضطرة لهذه الترهات"

في غضون يومين خضعت ماليدا لعملية قاسية في أحد العيادات الصغيرة في هامبورج، تم فيها إجهاض الطفل. كانت ساعات مؤلمة لم تتصور أنها سوف تعيشها ذات يوم وكان عليها ألا تفكر بسوى الخوف من المجهول من والديها بالتحديد.. وأن عليها

أن تغلق هذا الملف حتى لا يحدث أي مكروه أو أمر لا يمكن التنبؤ به. بعد العملية كان وضعها النفسي سيئاً للغاية، كرهت نفسها. في صباها كم تمنت أن تكون أما ولو للحظات عابرة، قد يتأخر هذا الحلم، ولم تتخيل أنه سيأتي سريعاً لتكون هذه هي النتيجة. كانت تعيش ارتباكاً وارتجافاً مستمراً، وطالما حاولت كاثرين أن تجعلها تنسى، وأن تركز على المستقبل، فما حدث.. حدث.. غير أن التجربة لم تكن بسيطة لكي تنسى بهذه السهولة.

-2-

المكان: مقهى غاليري كافيه.. قلب لندن
الزمان: مطلع 2015

لم تفهم ماليدا الأسباب التي جعلتها تفكر في الذهاب إلى قلب المدينة. إلى ذلك المقهى الذي اشتهر بأنه ملتقى للسودانيين.. كان ثمة خاطر غريب في القلب يدفعها للمشي إلى هناك، وهي تتثاقل مشياً فمنذ أن أجرت العملية الجراحية تشعر ببعض الخدر والثقل في قدمها اليسرى كما أن وزنها زاد قليلاً، ولم تكن لها الرغبة في أن تصارح نفسها بأن وضعها الصحي والنفسي يتدهور لتذهب إلى طبيب، ارتضت بأن تقاوم بأن تحاول الهرب من العالم، حتى أنها كانت لا ترد على مكالمات صديقتها كاثرين، وبالنسبة لها أصبحت قضية منظمة اللاجئين كأنها مضيعة للوقت.
تعرف أن قرارها ربما يتغير قريباً وفي ظرف معين، إذا ما استطاعت أن تقابل الشخص الذي ترى أنه السبب الحقيقي وراء كل ما تمر به.. قد يكون للإجهاض وقتل طفل علاقة بذلك. وهي تكتشف أنها حساسة كما تفكر بعقلية والديها، ليس من فرق كبير بينهم، أي هي وهما، قد يبدو الإنسان أحياناً مختلفاً لكن حقيقته تخبئ الواقع المتخفي أنه هو ذلك الكائن التاريخي الذي ينتمي للبيئة التي جاء منها في الأصل.
هي لا تؤمن بذلك فقط تعيشه في هذه القصة التي تشبه الحلم. فهي إلى اليوم مع اقترابها من المقهى غير مصدقة لما وقع. كيف أخذها ذلك الشاب الوسيم عارض الأزياء، وقرر أن يصطحبها إلى تلك الحدائق في العصر ومن ثم في مقاهي روما في المساء وعندما أجنّ الليل كانت معه وهي شبه مغمضة العينين لا تعي بما يدور في العالم، هل قضت معه الليلة في ذلك الفندق، في غرفتها هي التي دفعت ثمنها بنفسها، أم في مكان آخر.
تتذكر تماماً إن الغرفة كانت شبه مضاءة، عندما دخل جعفر إلى الحمام، وخرج، كان شبه سكران وقد أمسك بها من ردفيها الكبيرين، وهو يحاول أن يعتصر نهديها ويكلمها بغزل لم تسمعه من قبل.. اضطرت لكي تنسى اللغة وحدود المنطق مع انسياب موسيقى ساحرة في الغرفة، كان يحمل أسطوانة في جيبه من النوع الصغير،

وضعها في المشغل المثبت بجوار التلفزيون على الحائط. ورقص قليلاً.. أدركت أنها أمام راقص ماهر، لا تعرف تاريخه ولا ماضيه بالضبط، وإذا كانت في الماضي القريب.. إلى الأمس لا تحب بني جنسها من السودانيين فهذا الشاب له عبق آخر. إنه يشعرها بأنوثة لم تحسها من قبل، الشباب البريطانيون الذين حاولوا مرات إغوائها كانوا سذج، ومرة كان أحدهم سودانياً غير أنه كان غبي جداً، لم يعرف أي مقدمات كان يرغب في الإيلاج دون أي يقول ولو كلمة واحدة تشير على أنه تدرب من قبل على فعل الحب.

لم يكن شاغلها في تلك اللحظات، هل أنها جربت هذه اللعبة الممتعة من قبل أم لا، هل عاشت متعتها بجوار رجل أم لا، كانت مهمومة أو غارقة بالأحرى في حكاية واحدة.. جاذبية جعفر وذكوريته الطرية.. هو رجل من جنس لطيف، كائن ملائكي، صوته ناعم وخطواته وئيدة وهو يرقص كأنه لاعب محترف في سيرك.

حاولت أن تفهم قصته غير أنه كان لطيفاً إلا في الحديث عن الماضي البعيد:

"لن أقص لك إلا ما سمعتيه بخصوص رحلتي عبر الصحراء إلى ليبيا إلى هنا"

تقول بتنهد غير مفتعل، وهي تشعر بذروة الشغف:

"نعم سمعت كل ذلك.. أرغب أن أسمع ما وراء الحكاية.. قل لي ماذا درست هناك؟"

لم يكن جعفر صادقاً في بعض ما يقوله، وكان يمزج بين الأكاذيب والحقائق، يجد متعه في ذلك.. في حين أن ماليدا كانت إنسانة تعيش الحياة على أنها صدق لا غير.. ربما إلى ذلك اليوم الذي سوف يغير الكثير من قيمها ونظرتها للعالم.. تلك الليلة التي ولجها شيء غريب جعلها تعيش كما لو أن نيك بجوارها، كم تمنته أن يكون حبيبها الأول والأخير.. زوجها، الرجل الذي سوف تسعد معه، وعندما كلمت والدتها عنه مرة.. ابتهجت قليلاً ثم صمتت ثم قالت:

"أريد عرساً سودانياً.. يجب أن يوافق على كل شروطي؟"

وقد أخفت الخبر عن والدها، وعرف من زينب ثم جاء ليخبر ماليدا:

"كل قرار هو ملك لك.. غير أني لا أريد شابا لا يعرف الالتزام.."

لم تكن متأكدة من فكرة الالتزام ماذا يعني بها بالضبط، وقد تفاجأت بلون عينيه كانتا غير مريحتين أبداً.. وأسرعت لدخول الحمام تعاين لون وجهها وهي تبكي بلا سبب. كان هناك سبب طبعاً، غير أنه هذا الوالد الذي كان يضايقها في كثير من

الأحيان بإجاباته غير المفهومة ومرات تحس كما لو أنه ليست ابنته. تستيقظ في الصباح على صوت ناعم، تكتشف أنه ليس نيك.. وأن عوالم جولدسميث انطوت ربما إلى الأبد.. فقد مات نيك كأنه طارئ في هذا العالم، هل لم يكن مرغوباً فيه من قبل الرب ليذهب بهذه السرعة عن الحياة الأرضية، يسافر إلى أكوان مجهولة. فكرتها عن الموت غير واضحة، وحاولت أن تعززها في تلك الأيام التي تلت رحيل نيك بالقراءة دون أن تصل لأي نتيجة، صورة محددة أو فكرة عن هذا الغيب الغامض.

تغسل وجهها في الحمام، تتعرى تحت الماء الساخن، لتغسل عنها الطقس البارد وتفاصيل ليل غير واضح، ما الذي جرى بالضبط؟ ولم يكن جعفر في الخارج وهي تغادر الحمام شبه عارية.. في حين كان قد نسي باب الغرفة مفتوحاً.. تنقلت ببصرها سريعاً بين الجالسين في المقهى، كانت هناك أعين تراقبها، عيون السودانيين لا تتوقف عن التأمل في جسدها القوي والهائل.. غير أن الوضع لم يعد كسابقه يوم كانت فريسة لجعفر.

أخيراً عثرت على أحدهم كأنها رأته من قبل.. ليست متأكدة.. كانت نظراته مركزة فيها أكثر من الآخرين، واقترب منها ليسلم عليها، عندما نطقت بالسلام تأكد أنها هي فقد اقترب من وجهها ومن تفاصيله مع لغتها العربية الملكونة، لم يكن قد احتاج لأي عناء ليتذكر اسمها، ولو حدث غير ذلك لكان غبياً:

"أنت ماليدا.. كيف أحوالك؟"

أجابته بإنجليزية واضحة:

"من أنت؟ هل تقابلنا من قبل؟"

بدا أنها منزعجة.. ربما التجربة جعلتها تشعر بالانزعاج هذه المرة، هم يبدون في البداية بسطاء ومجاملين وطيبين وبعدها ينقلب كل شيء يصبحون شرسين في الغرف المغلقة ليلاً. لن تسمح له بأن يفكر فيها بأي شكل كان، فهي قد جاءت لهدف محدد هنا.. هي غير مدركة له بعد، غير أنها يمكن أن تشعر به يتحرك فيها مثل ذلك الجنين الذي أجهضته.. تشعر بالألم، ثم تكح وهي تعطس معتذرة لتسأل الشاب:

"لو سمحت هناك شاب اسمه جعفر"

يضحك زين بطريقة مهذبة نوعاً ما، يرد عليها:

"نعم أعرفه.. جعفر الذي التقيت به في روما أليس كذلك؟"

استغربت ونظرت في وجهه مليئاً، هل هو محتال أم أن حكايتها عرفها الجميع.. صمتت لبضع من الثواني قبل أن تسأله بانفعال:
"من أنت؟"
يرجع زين للوراء، وهو يحرك يديه بطريقة تدل على الاستسلام وعدم الرغبة في دخول معارك خاسرة، يتأمل وجهها من بعيد إنها كجوليان تماماً.. يحاول أن يمحو صورة جوليان ويركز فيها هي، ويسيطر عليه خاطر سريع وغريب، إذا كان قد فقد جوليان في ذلك الزمان، فهل يمكن أن يستبدلها اليوم بماليدا.. كانت في انتظار جوابه، وهي تفكر من يكون ذلك الشاب، لربما رأته من قبل والذاكرة هي المسؤول الأول والأخير، فقد تبدلت عن عملها المعتاد، لم تعد تعمل بالطريقة المفترضة، قبل شهور قليلة كانت تمتلك ذكاء حادا، وبعد تجربة الإجهاض، قتل ذلك الطفل، تشعر بالأسى والدموع تنهال لتفاجئها في بعض الأحيان بلا ترتيب مسبق.
سمعته يكلمها:
"أنا صديق جعفر.. لقد التقيتك في بار في روما.. أقصد أنني كنت أنا النادل الذي قدم لك الخدمة"
نظرت إليه مليئاً، لم تتذكر أيضاً، فقد دخلت أكثر من بار هناك..
"أي بار تحديداً؟"
"في ذلك الفندق...."
دار رأسها، يريد أن يعيدها إلى مأساة ذلك الفندق.. وجرحها الحاضر إلى اللحظة، لن تسمح له، أغلقت الحديث..
"شكراً لك.. على العموم.. كنت قد أتيت لأجل جعفر.. والآن.."
ولم تكمل.. حملت روحها بصعوبة وهي تتوكأ، فقد زاد الألم يضغط على أعصاب ساقها وهربت في زحام الشارع، لم تهتم بأن ثمة أحداً كان يسير وراءها أم لا، هل كان ذلك النادل يراقبها فعلاً أم أنها تتوهم؟! لم تهتم..

-3-

المكان: وايت سيتي، غرب لندن.. الطابق 7 من إحدى البنايات
الزمان: فبراير 2015

هل يمكن أن يصنع كأسان من الفودكا قصة حب، يتخيل زين أن غرامه البديل لجوليان بدأ في ذلك الليل عندما دخلت تلك الشابة العملاقة ليشعر بأن قلبه بدأ يرن قوياً، مثل جرس كنيسة في أعياد الميلاد في الخرطوم، ثم يزيح صورة الشارع والحياة هناك وكيف أنه كان ينحشر بين أصدقائه الذين يمزجون في حياتهم بين الطابع الإسلامي والمسيحي، إنهم بلا دين وربما هم عاشقون لكل الأديان، مثلهم مثل ماليدا، فهل لها من دين.

في طريقهما إلى لندن، واصلت المافيا عملها. دفعا المبلغ ووصلا بهدوء وسلام في انتظار إجراءات اللجوء السياسي، قدما على أنهما هاربان من جحيم وفوضى الحرب ومضايقات النظام في السودان، كتبا في الاستمارة، إنهما فقدا الأمل في حياة حرة وعيش كريم. قبل أن يكون ذلك كان جعفر يروي بعض من تفاصيل تلك الليلة وهو غير نادم، يكتشف زين أن جعفر ربما يكون من نوع الناس الذين يفعلون أي ما يشبع غرائزهم أو أهوائهم ثم يتركون الأمس وراءهم ويرحلون وقد فعلها مع ماليدا ليتركها تواجه الرياح وحدها.

"لا أعتقد أنها لها دين.. مثلما لا دين لي"

"أنت ملحد؟"

"شيوعي.. استغفر الله..

يضحك جعفر، كان قد بدأ أكثر هندمة، فقد اشترى ملابس جديدة في باريس، وعطر غال، أخبر زين همساً وهما يتجولان في المحلات بصحبة ممثل المافيا:

"أريد أن أدخل حياة جديدة.. يجب أن أحتفي بنفسي"

ابتسم زين وهو ينظر إليه في المرآة ذكره ببعض أصدقائه القدامى من البرجوازيين، قال لنفسه، هذا الشاب وراءه حكاية.. ثم مضى يختار هو قميصاً جديداً بدعوة من جعفر الذي ما كان يفعل سوى تقديم الدعوات للشراء والأكل وهو لا يدفع، فالذي

يأخذ الفاتورة ويقدم المال هو زين ولم يكن ثمة خجل من جانب صديقه. هل يكلم جعفر أن ماليدا جاءت لأجله؟ أم ينسى الأمر؟ وهل يخبره أنه ذهب خلفها إلى أن عرف أين تقيم بالضبط، وهل يقول له إنه ذهب لأجل خطة في ذهنه لا يعرف مصيرها، فهو يعرف أن جعفر لم يعد يهتم بها بعد أن عثر على رفيقة صومالية، تعمل عارضة أزياء.. كانا سوياً في أحد مكاتب تسجيل اللاجئين، عندما تعرفا ومن ثم عرضت عليه فكرة أن يعمل بهذه المهنة التي لم تخطر بباله، وعرضت ببال ماليدا. في ذلك اليوم في البندقية، وقبل أن يأتي ليل روما الوقح، أخبرته:

"ليس من عارض أزياء أجمل منك.. طلتك البهية"

لم يعلق، وإن بدأ يفكر جدياً في الأمر. واليوم تعيده هذه الصومالية النحيلة الطويلة إلى ذلك الاقتراح:

"أعرف وكالة للتوظيف سوف يعتنون بك.. هم متخصصون في البحث عن عارضي الأزياء الأفارقة"

"لكنني لم أمارس هذا العمل من قبل"

"ليس مهماً.. سوف تتعلم كل شيء.. لا أحد يولد عارفاً"

كانت حسناء شيخ برهان.. فتاة متحررة وقوية الإرادة، ليس فيها ضعف ماليدا كما رآها جعفر. فقد فكر لبعض الوقت إنها سوف تصبح متعة أو مطية سهلة له، غير أن ذلك كان صعب المنال. قد يكون للخبرة أثر، فهي متمردة ومتمرنة على عوالم الرجال المغامرين والعاهرين.. أخبرته:

"عالم الأزياء يبدو رائعاً من الخارج وفي داخله دنيا متعفنة"

"هل تريدن أن تزجي بي في العفن إذن؟"

ويضحك.. ثم تجيبه بمباغتة:

"أعتقد أن فيك من الشقاء ما يكفي ليجعلك تتعايش مع هذا العالم.. والمهم أنهم سوف يدفعون لك أموالاً كثيرة.. ماذا تريد غير ذلك.."

ثم غمزت عينها اليمنى وأضافت:

"كذلك سوف تحصل على شابات جميلات بلا مقابل"

كان ذلك استفزازياً بالنسبة لجعفر، فهي قد أدركت إذن ما يدور في دماغه الداخلي، غير أنها غير مهتمة بذلك. تدريبها جيد على الحياة وعدم خلط الأمور، وعلى أي

حال فهي التي ابتدرت الحديث معه في مكتب اللاجئين، كان بإمكانها أن لا تفعل ذلك.. إذا كان ثمة طرف لديه خلخلة في قلبه فسيكون هي لا هو. تأملها وهي تنهض من على المكتب الصغير حيث كانا ينتظران فتاة أخرى تقوم بأخذ صور للشباب والشابات الراغبين في العمل، ثم تسجل معلومات مثل الوزن والطول، وتسأل بعض الأسئلة الخفيفة، وبعضها كان محرجاً.. لكن لا مشكلة..

"هل لديك أسرة.. أعني هل أنت متزوج؟"

"لا..."

"هل لديك أطفال من علاقة غير الزواج؟"

"لا..."

كان يكذب.. ولا يكذب.. فهو لا يدري ما الذي حل بماليدا.. وبدا متماسكاً، كان قادر على احتواء الأكاذيب، وسمع السؤال التالي:

"هل تمارس الجنس كثيراً.. هل أنت كائن شبق، إذا لم يكن كذلك هل تمارس العادة السرية بشراهة.."

كانت الشابة الصومالية تسمع وهي غير مهتمة فهذه الأجواء عادية لها، وكررت الموظفة الإنجليزية عملها الذي اعتادت عليه وبات روتينياً، دون أي إحساس مخجل..

رد جعفر:

"ليس كثيراً.. لا اهتم بالجنس إلا..."

"... نعم ماذا؟، كل المعلومات الدقيقة هنا مهمة لأجل اختيارك في العمل.."

"إلا إذا وجدت فتاة أو شابة جميلة قادرة على إغوائي"

ابتسمت الفتاة لم تكن جميلة، وجهها شاحب وترتدي نظارة سوداء كبيرة تخفي وراءها غالباً ملامح لا تحب أن يراها أحد.. في ذلك الوقت كانت حسناء قد أدارت رأسها للوراء وهي تستمع لأغنية من سماعتي الهاتف الصغيرتين المتصلتين بالسامسونج جلاكسي الموديل الجديد. مضت أيام، وأيام.. ليكتشف جعفر أنه غير موفق للمهنة، لا يعرف الأسباب التي جعلته غير مرغوب فيه، لكن حسناء أوضحت له:

"إذا كنت ترغب فلا تيئس سوف نجرب من جديد ومع مكتب آخر.. هناك العديد من الشركات وكل شركة لها رؤية مختلفة قطعا.."

لا يعلم زين كثيراً عن مسار علاقة جعفر وحسناء، يراهما مع بعضهما مرات متفرقة

وفي أماكن مختلفة، ولم يشاء أن يتدخل في أمور لا يرغب جعفر في أن يتكلم عنها. غير أنه لم يجد بدا من إخباره في ذلك المساء بأن ماليدا كانت هنا قبل يومين. راقب جعفر، لم يكن في وضعه الطبيعي، قد يبدو مرتبكاً، وقال:
"وماذا تريد؟"
"كانت تبحث عنك.."
رد زين بابتسامة ساخرة.. ومعها ارتبك جعفر كثيراً، فقد تحرك ذهنه سريعاً في تفاصيل تلك الليلة في روما وطفله المرتقب، ولم يجد من كلام يتفوه به سوى قوله:
"أخبرها إذا بحثت عني مرة أخرى أو ادعت أنها تعرفني فسوف.."
قبل أن يكمل أسرع زين لإغلاق فم جعفر بأن وضع صفحة يده كاملة عليه، وقال له بعد أن أزاح يده سريعاً حتى لا يشعر أحد بالمقهى بما جرى:
"لا تقلق كثيراً.. لا يبدو أنها حامل.."
تنفس جعفر قليلاً، استرخى، وسأل:
"هل سألتها؟"
"هل أنت غبي؟ كيف سأسألها.. لكن وضعها الخارجي يفيد بذلك.."
تبادرت لجعفر فكرة أن يغامر بأي شكل كان لرؤيتها حتى يتأكد من ذلك، ولكن أن يراها دون أن تشعر به، أي من بعيد.. حتما سوف تعود في الأيام المقبلة.. قال لنفسه.. كان قد عاد للشعور بالخوف، حتى لو أن زين طمأنه.. ومرات فكر أن زين يقول ذلك ربما لأنه يفكر في أمر آخر، ألمّ يسرّ له وهما في باريس أنه أحب ذات يوم زميلة جامعية لم تلتفت له أو تلقي له بالاً، تشبه ماليدا لحد كبير.. قال لنفسه، هل يريد مثلا أن يباعدني بأي شكل كان ليفوز بها، وهو يعلم أنني لم أعد أهتم بسوى حسناء.. ومن ثم غالط نفسه، هل أنا أحبها حقاً حسناء أم أبحث من خلالها عن مستقبلي، أم ربما أتسلى بها لو استطعت هذه القاهرة والقوية والشجاعة.
انصرف جعفر، ليمضي في سبيله دون أن يتذكر ماليدا كثيراً.. في انتظار أن تطل ذات يوم.. ومع الأيام يمكن للإنسان أن ينسى حتى الأشياء المهمة والتي قد تكون سبباً في سعادته أو شقائه. كانت حسناء قد شغلته كثيراً، هذه العارضة المميزة التي احتلت صورها أكثر من مرة صحف التابلويد البريطانية، ماذا تريد منه؟ أو ماذا يريد منها؟ لم يكن له من جواب محدد. بقي زين يتذكر كيف أنه أخبر صديقه، ثم

تلاشت تلك الصورة ليراجع بدقة الشقة التي دخلتها ماليدا، وهو متردد هل يضغط على الجرس أم لا، وماذا سيقول لها، وإذا ما حدث أن كان هناك شخص آخر هل يخترع له أي كذبة ما، وما شكلها. ولم يقف ينتظر التوقعات. لا أحد يمكن أن يتصور المستقبل، فالحياة هي بيت المفاجآت.

وضغط على الجرس. كان لا يعمل. لا صوت له. قام بالطرق بخفة على الباب الخشبي، مرة، مرتين، ثلاث. أخيراً فتح الباب. لابد أن أحد راقب العين السحرية قبل أن يفتحه. فالناس هنا تتوجس كثيراً لا سيما بعد فوبيا الإرهاب والقتل المجاني، فالغرباء يجب الحذر منهم. وقف عمر بمواجهة زين، ولثوان لم يتكلم أحدهما ولو بالتحية.. ومن ثم سأل عمر:

"نعم أيها المحترم ماذا تريد؟"

"ممم.."

لم يعرف ماذا يقول.. كانت ماليدا قد ظهرت لتغلق الغموض:

"نعم هو صديقي بابا.."

ربما هي المرة الأولى التي تتكلم فيها ماليدا عن صديق يمكن أن يزورها في البيت، صحيح أن لها أصدقاء منذ أيام الصبا والدراسة، سودانيون وبريطانيون بالأخص ولم يحدث أن أحدهم دخل هنا، فتعليمات عمر صارمة. هذا الوالد الذي تراه ماليدا متناقضاً، كيف لرجل لا يصلي وكاره لحكومة في بلده يقول أنها تقيد حرية النساء ولبس السراويل أن يطارد حرية ابنته. كان الأمر مفاجئاً له ولم يعرف ماذا يقول.. ولدقيقة ظل الجميع صامتين.. أخيراً قال عمر وهو يرى نظرات ابنته:

"تفضل أيها الشاب.. أدخل"

كان زين جريئاً.. لا يعرف الخجل.. دخل. جلس في الصالون الصغير للبيت على كرسي بلاستيكي مغطى بالقماش، ومقابله كان محرر البي بي سي. ولثوان فكر زين أن هذا الوجه ليس غريباً عنه، ثم اكتشف الخدعة أن الرجل يشبه بيليه الأسطورة الكروية، وكان لابد من ابتدار النقاش بأي شكل كان، قال زين يسأل:

"حضرتك كنت لاعب كرة قدم؟"

ابتسم عمر وفهم المسألة، ولم يعلق.. اكتفى بالابتسامة، ثم قال للضيف:

"ماليدا سوف تخبرك"

شعر زين بالضيق للإجابة، فهو غير مرغوب فيه إذن، وحلل بسرعة مع نفسه أن هذا الأب ربما هو أحد أسباب خدعة الحياة السيئة التي تعيشها ماليدا، فمنذ أن قابلها في يوم كأسي الفودكا ومن خلال حكايات جعفر عنها لم يشعر بأنها سعيدة أبداً. كانت له قدرة قد لا تكون عميقة لكنها كافية في فهم مشاعر الناس ونظرتهم للوجود ومدى اندماجهم في العوالم من حولهم. قد تكون هي الفلسفة التي درسها في الخرطوم هي التي منحته هذا الشيء، وهذا مبرر ليس مكتملاً لأن الفيلسوف لابد له من استعداد مسبق، كان زين يشعر بأنه يمتلكه حتى لو أن توظيفه للفلسفة في الحياة كان سيئاً أغلبه.

حاول من جديد مع الرجل العصي أمامه، وهو يلمح ماليدا تعد كوباً من عصير التانج المشروب المفضل لبني جنسه، وضعته أمامه على الطاولة الصغيرة. أخذ الكوب الزجاجي الطويل ورشف منه سريعاً، وهو يمسك به قبل أن يضعه على الطاولة، قال للسيد عمر:

"الأوضاع في السودان ليست على ما يرام لا أحد يفكر في البقاء"

نظر إليه عمر، رد باقتضاب:

"لا جديد يحدث، هذا الواقع منذ عقود"

أحس زين بالحرج، وضع كوب التانج البرتقالي على الطاولة، أستأذن للخروج، قبل أن يقبض عمر يده بقوة، أمسك بساعده وهو يحذره:

"لا أراك مرة أخرى هنا أتسمع ذلك.."

كان تصرفاً غبياً كما بدا لماليدا وكادت أن تصرخ، كانت شكوك الوالد تتعمق وهو يراقب الأوضاع التي جاءت بها ابنته من رحلة ألمانيا، ثمة أمر خاطئ لم تكشف عنه، وكانت لديه خبرة كافية ببعض هذه الأمور ليفهم ما جرى. سألها مرة دون أن يسترسل عن سبب البطء في حركتها، لم تقدم إجابة واضحة، قالت:

"عملنا كثيراً في الشهور الماضية.. كما أن ماء البحار يقلق جسدي.. أكثر من مرة اضطررنا للدخول إلى البحر المالح"

من جهتها كانت زينب تشعر بذات الشيء. وكلمت عمر دون أن يحرجا البنت..

أغلق زين عينيه وهو في المصعد ينزل لأسفل من هذا الكابوس، لم يكن له أدنى تصور أنه سوف ينجو من هذا الوجه القبيح. لم يرى رجلاً بهذا القبح في حياته كما تصور الآن.. عندما يكون القبح بعداً نفسياً لا مجرد صورة نراها في الوجه.

-4-

المكان: هامبورج محطة القطارات، مجمع فاندلهاله التجاري
الزمان: نهاية عام 2014

عندما تطارد الإنسان أوجاع الماضي تتعطل كل أحلامه، ويبقى عقله جامداً لا يتحرك. كانت ماليدا تعيش هذا الإحساس، منذ ذلك اليوم الذي كانت تجلس فيه بجوار كاثرين في المجمع التجاري الملاصق لمحطة القطارات في هامبورج، وهما يقضيان بعض الوقت قبل أن يسافرا عائدتين إلى بريطانيا. لدقائق لم يكن ثمة حديث بينهما، وكاثرين تشعر بأن ماليدا لم تشف بعد حتى لو أنها نفذت رغبتها بأن تتخلص من طفلها. الشفاء المتعلق بألمها النفسي، فهي تعرف حساسيتها منذ أن كانا طفلتين. الأشقياء مرات يكونون أكثر الناس حساسية وقدرة على أن يصنعوا من أتفه الأسباب سبباً عظيماً للبكاء والقسوة على أنفسهم.

كانت تفكر كيف بإمكانها أن تقنعها بأن الذي حدث، حدث ويجب أن تفكر في المستقبل. لكن ذلك كان صعباً، لقد حاولت معها كثيراً في الأيام السابقة دون أن تحقق أي نجاح. رغم أنها استعانت بكل المقولات الجديدة في السياق الأوروبي والديني التي يمكن أن تقنع فتاة أن الإجهاض ليس جريمة بنظر الكثيرين. حللت مع نفسها أن ثمة ما يتعلق بخواص الإنسان التي يصعب عليه أن يتخلص منها، أمور قد يكون التحدث عنها في العلن صعباً ومحرجاً، كالفوارق الحضارية والخبرات الإنسانية. صحيح أن ماليدا تعلمت وعاشت في بريطانيا في حين أن وجودها داخل بيت عائلتها، تلك المساحة المربعة في الطابق السابع تكون قد لعبت دوراً في تشكيل أغلب خواصها غير المرئية، إلا في مثل هذه الظروف، عندما تطل هذه الصفات المورثة لتقلق حياة الإنسان.

لا تريد كاثرين أن تسترسل في هذه التبريرات سواء كانت سليمة أم لا، فالقضية الآن هي الحل، كيف يمكن الحصول عليه، ولم تتصور أن البؤس سوف يصل بصديقتها أن لا تثق بأحد حتى رفيقة الطفولة.

"أنت لا تهتمي بي يا كاثرين"

شعرت بالحرج، لم تعرف كيف ترد عليها، فكرت قليلاً قبل أن ترد:
"لا أريد أن أدافع عن نفسي.. لن أقول شيئاً"
تميل كاثرين عادة للهدوء، وربما لهذا السبب كان اختيارها سهلاً في اختبارات التمريض قبل ثلاث سنوات، لتقضي عامين في الكلية. قال لها الطبيب الذي قدم الاختبار.. "إنك مثالية"، وهي لم تفكر في معنى تلك الكلمة، ووقتذاك فرحت ماليدا كثيراً وقالت لها أيضاً.. "إنك مثالية بحق، فالرجل محق". فلماذا تتغير الآن، يبدو أنها ظروفها النفسية.
كانت ماليدا عصبية وشاردة الذهن، وغير راغبة في الأكل ولا الشرب، واضطرت كاثرين أن تجاملها، تناولت قليلاً من الطعام واتجهتا نحو القطار، لم يكن من أحد يتكلم في البداية واستمر ذلك لنصف ساعة. القطار يموج بالحراك. ورغم انشغال كثير من البشر بالقراءة أو ممارسة اليوجا داخل العربات تلك الظاهرة التي باتت موضة في السنوات الأخيرة، إلا أن هناك ضجيجاً خفياً كان يتسرب إلى دماغ كاثرين لا تعرف سبباً له، وفي النهاية فضلت أن تتخلص من التفكير في صديقتها وأن تسرح في حياتها الخاصة.
لكل إنسان شؤونه، وكاثرين الآن أكثر انتباهاً أن الشهور الماضية وعملها مع التحالف الأوروبي للاجئين شغلتها كثيراً. نست أمورا كثيرة خاصة، قضيتها كأنثى عليها أن تعيش، هل صحيح أنها تبذل حياتها وسلوكها كرجل كما تقول عنها والدتها في الماضي. منذ أن رحلت عن بيت العائلة واستقرت لوحدها قبل أكثر من عام، وبعد أن حصلت على وظيفة مؤقتة في مستشفى بوسط لندن، لم تعد تهتم بسوى عملها.. العمل ثم العمل.. لديها أحلام كثيرة مؤجلة، وعما قريب سوف تبدأ في الخطوات الجادة، كما يمكن أن تفكر في الرجل الذي يمكن أن يهتم بها. هل فكرت فيه من قبل، لم يدر ذلك بخاطرها كثيراً. ربما هو زميل في كلية التمريض، أو بالأحرى طبيب كان يدربهم على مهارات الإسعافات الأولية. بمجرد أن تصل إلى لندن سوف تزوره فكرت بذلك.
أغلقت عينيها في القطار، وأبعدت كتاباً كانت تحمله جانباً، لم تعد تفكر بشيء سوى ذلك الطبيب، في حين أنها شعرت بالنعاس، لتختلط مجموعة من الصور، أغلبها ليست لها علاقة باللحظة الراهنة.. هي لحظات قديمة من الطفولة كيف

قفزت فجأة بلا استئذان.. هذه الذاكرة تعمل بشكل مرهق، قالت لنفسها، وهي تفتح عينيها من جديد تستقبل صديقة طفولتها أمامها، دون أن تكون تلك الفتاة البشوشة والمرحة. إنها الأحزان تصنع من الإنسان كائناً آخر.
تراخى جسدها.. النعاس من جديد.. بلذة فائقة، تذكرت أن ثمة شخصين قالا إنها جميلة.. الطبيب الذي سوف تبحث عنه وذلك العجوز اليوناني.. ألم يقل لها.. إنها فتاة إنجليزية جميلة.. ولم تفكر بعدها هل هي جميلة بحق، أم أنهما مجاملان؟!

* * *

الرواية التي بطلها الوهم، كتبها عيسى وليس أنا.. كتبها في الفترة التي غادر فيها إلى ما وراء البحر المتوسط وهو يحلم بأن يعيش حياة جديدة، كنت متشوقا لقراءتها علني أفهم الأسباب التي دفعته لينتحر إن صدقت الرواية الرسمية لذلك، لأنني لحظات مع نفسي أتخيل أنه ما كان له أن يقوم بذلك. حتى لو أنه فكر في مواجهة الموت مبكراً في رواية كان يحلم بأن يكتبها، إلا أنه كان شجاعا على مقاومة الحياة وأكبر دليل على ذلك أنه كان ساخرا منها ومن موهبته. الذي يسخر من العالم لا يمكن أن يكون جبانا في المقاومة.
كان أسبوع قد مضى على وصول جنازته، دفن هناك بعيداً في البلدة شمالي البلاد، في مسقط رأسه، ويبدو أنني نسيته، كأشياء كثيرة لابد لنا أن ننساها مع الأيام، هكذا هي الحياة أحزان وأفراح ثم نسيان، فقبل سبع سنوات، كان أبي مثلا قد مات واليوم أنا لا أتذكر ملامحه جيداً، يمكنني أن أتتبع نظراته لي بعناية فائقة، كان يحبني جداً ويرى في أملا للأسف لم يتحقق. خيبت ظنه في أن أدخل كلية الطب رغم تفوقي العظيم في المدرسة، ثم كانت الخيبة الثانية عندما رسبت في السنة الأخيرة من المختبرات.
هل مات أبي لأنه حزن على مستقبلي؟ على تصوره لي بشكل محدد لم يكتمل وهو يحلم أن انتشل العائلة من براثن الفقر الذي ورثناه أبا عن جد؟ هل كان يفكر في ذلك يمكنني أن أتخيل ذلك، لكن لن أظلمه فهو الآن في قبره أتمنى له حياة هنيئة في عالمه الثاني.
مثلما نسيت أبي، أو لم أره إلا صورة في خيالي تبتعد وتقترب مرات في

الأحلام فقط، فهاهو أسبوع كفيل بأن ينسيني صديقي لولا أن هاتفا جاءني من جديد من صديقنا هيثم مرة أخرى.

"نعم هيثم ماذا تريد هذه المرة؟"

قلت له بغضب، فقد كان موقفه الأخير لا زال حاضرا يصعب علي نسيانه بسهولة. أحياناً أنا من الناس الذين لا يغفرون المواقف، وليس لي أن أتخلص من هذه العادة الكريهة، غير أن أبي كان يراها حسنة مع بعض الظروف وليس كلها، أي بعض الناس السيئين فعلا.

قال لي هيثم:

"أسمعني لا أريد أن أطيل عليك.. والد عيسى يبحث عنك!"

"عني؟ ماذا يريد مني؟"

"لا أعرف.. فقط يريد أن يراك شخصيا وليس مجرد مكالمة"

أخبرته أنني أقيم في الخرطوم جنوب، في حي الأحباش، في غرفة داخل فرن بلدي قديم، ولم تمض سوى ثلاث ساعات حتى كان الرجل معي، كنت انتظره أمام مدخل الفرن بعد أن كلمني بالهاتف وتعرف على وصف الموقع بدقة.

كان يحمل في يده مظروفا كبيراً، له لون أصفر مخطط، أخرجه منه رزمة من الأوراق، وهو يخبرني:

"هذه الأوراق سلمتها السلطات النرويجية لنا ومعها وصية من عيسى أن تصلك أنت شخصيا.. يقول إنك كنت أعز أصدقاءه، هل هذا صحيح؟"

"نعم.. نعم يا عمي"

قلت له عمي احتراما وتوقيرا. وكانت تلك أول مرة نلتقي فيها بعد لقاء المطار العابر.. لا أعرف إن كان قد سمع عني من قبل عن طريق المرحوم ابنه، غير أني لا أتصور ذلك من خلال الأسئلة التي راح الرجل يطرحها عليّ، عن علاقتنا ومن متى نعرف بعض بدقة.

شرحت له أننا أصدقاء منذ الجامعة وأننا درسنا معا، عيسى درس مجالاً مختلفاً عني كان طالب فلسفة ولم يجن منها شيئاً، وكان والده حزينا بدا ذلك من عينيه المتعبتين، وتذكرت فيه صورة أبي، الآباء في السودان يتشابهون في نظرتهم لأبنائهم سواء كانوا أحياء أم ماتوا.

قال لي:
"كان متفوقا ولكنه لم ينجح في دخول كلية مفيدة"
أبدى أسفه، ثم تذكر أن ابنه لم يعد حاضرا، كأنه نسي، قال بصوت مسموع:
"استغفر الله العظيم يا ولدي.. على العموم أنا ذاهب.. هذه الأوراق أظنها قصة طويلة كتبها يريدك أن تهتم بها.. أنا لا أفهم في هذه الأمور.. وعلي أن أرضي ضميري وأنفذ وصيته"
أعطاني ورقة صغيرة سطرت بقلم جاف أزرق، تذكرته عشقه للون الأزرق... قرأت بسرعة سطرين بعد التحية التقليدية.. وفهمت أن هذه الأوراق هي تجربة حقيقية عاشها يريد أن يقصها للعالم. تجربة سماها رواية، كتب على غلافها "ماما ميركل".
من الوهلة الأولى بمجرد أن وقعت عيناي على الاسم شعرت بشيء من الفرح، ان هذه عتبة مميزة لنص لا أعرف ماذا سيكون محتواه، فميركل تشغل العالم هذه الأيام بوصفها الأم التي أصبحت رحما لآلاف المهاجرين إلى أوروبا ممن لفظتهم بلدانهم في الشرق الأوسط ولشتى الأسباب من حروب وعنف وديكتاتوريات وبطالة وظروف اقتصادية سيئة.
"ماما ميركل".. قرأت العنوان من جديد.. وتحسست الورق كان كثيراً جداً.. والخط أحياناً يبدو مرتبكا، وهذا يعني أن الحالة النفسية كانت تتقلب مع الكتابة ومع الظروف الخارجية التي كان عيسى يعانيها في انتظار الحصول على اللجوء في النرويج. وتساءلت مع نفسي لما أخفى عني خبر هذه القصة، ولم يخبرني عنها. ولما كان يشغلني بقصص وحكايات جانبية ليست مهمة كما أتصور الآن. في الماضي وكما أخبرتكم لم يكن له تصور ملموس عن أنه سينجح ذات يوم في كتابة نص مكتمل، كان يكرر ذلك، فهل سيكون الوضع مع هذه الرواية، هل ستكون مكتملة أم أنها ناقصة؟ وهل فيها حكاية بجد أم أنها خواطر متناثرة، ليس لي أن أقرر ما لم أقرأ ما سطره قلمه؟ لقد كتبها بالقلم والورق، ولم تكن بالحاسوب كما تعود أن يكتب مرات هنا قبل سفره بعام، وكان يمتلك جهازا محمولا ماركة توشيبا ترك فيه ملفات كثيرة وهو يبيعه ضمن أغراض أخرى ليكمل تكاليف سفره.

لهفتي للقراءة، جعلتني أتعلق لبعض دقائق بأوقات متناثرة كنا معا ندردش على الماسنجر، وهو ينقل لي هواجس كثيرة متفرقة، خوفه المتكرر من رفض طلب اللجوء، وظنونه المتوجسة بشأن الأوروبيين الذين بات يراهم الآن عن قرب وليس في الكتب والفلسفات التي كان يقرأها من قبل، ومرة كتب لي ما معناه أن الفلسفة تكون في الحياة لا الكتب، "لا أعرف كيف أوصف لك المعني بدقة، فقط عليك أن تفهمني يا صديقي".

طويت قلقي بشأن ما مضي قليلاً، وبدأت اقرأ...

خامساً

جبال تور بورا

"الأزمة اليونانية تحتاج لفلاسفة أكثر ما تحتاج لرجال اقتصاد".

الروائي اليوناني

فاسيليس ألكساكس

-1-

المكان: سواحل جزيرة كوس اليونانية.. معسكر اللاجئين
الزمان: صباح في نهاية شتاء 2014

الرجل اسمه عبدالله وقاص بخشي، كان ملقباً بـ "تورا بورا"... قضى سنوات من عمره هناك بصحبة إخوانه المجاهدين، قبل أن يهرب ذات ليل عندما كانت الطائرات الأمريكية تقصف المنطقة بقوة بحثاً عن زعيم القاعدة أسامة بن لادن، وقبل أن يصل إلى هذه اللحظة وهو يراقب الخباز اليوناني أمامه، كان قد مرّ برحلة طويلة بدأت قبل خمسة عشر عاماً، على الأقل، هنا في أرض الفلاسفة.

أخبره الملا شريف أن من يريد أن يتعلم الحكمة فعليه أن يتوجه إلى هناك..

"اليونان أرض الحكماء.. ومن أفكارها ولدت الحضارة الحديثة"

كان يرغب في إكمال تعليمه في العلوم الاجتماعية أو الفلسفة، وكان زعماء طالبان المتشددين يبدون انفتاحا بشأن بعض البعثات الخاصة لعدد محدد من المجاهدين، كانت قاعدة الملا عمر "سنختلف مع الغرب وسنقاتلهم ولكن سوف نملك حكمتهم لنعرف كيف نقاومهم"

كان الملا عمر رجلاً منفتحاً احتفظ بغموض مثير، قالوا عنه إنه السياسي الأكثر غموضاً في العالم.. حاول الكثير من الصحفيين سبر أغواره ففشلوا. في إسلام آباد لطالبان بيوت سرية تقوم على خدمة أعضائهم، هناك استلم بخشي تذكرة السفر وجواز باسم مستعار.. وانطلق إلى اليونان.. وصل طبعاً.. وقضى حوالي العامين.. لم يفلح في دراسة الفلسفة اكتشف أن نظرية الملا غير دقيقة مطلقة، وأن فهم الآخر يتطلب معايشته لا مجرد قراءة مقررات كلاسيكية عفا عليها الدهر، وأخبر الرجل المسؤول عنه في التنظيم بذلك، ثم جاء الرد بعد أيام عبر الهاتف:

"الملا يبارك خطواتك.. أقضي الوقت المناسب لتكن حكيماً"

في ثنايا المدينة القديمة.. تعرف على السيدة فاسيليكي وزوجها، كانا كائنين لطيفين، يختصران حضارة عظيمة، قضا معهما وقتاً رائعاً، وعمل في المخبز لأيام معهما ليس حاجة للمال، فقد كان معه ما يكفي من خلال المبلغ الشهري المخصص له من

طالبان والذي كان يستلمه عبر وكيل في براغ، يقوم بتحويله إلى بنك في أثينا. كيف يمكن للإنسان أن ينسى، سرعان ما عملت ذاكرة العجوز. كانت أدق وأسرع من ذاكرة فاسيليكي التي عجزت عن التذكر، وأسرعا لاحتضان بعضهما بقوة..
"سيد نيكوس"
"سيد بخشي"
كان عمله في المخبز، لاكتساب خبرات الحياة والفلسفة في ميدان مباشر. ووجد في نيكوس مفكراً مغموراً، ربما أكثر من آخرين سمع عنهم أو قرأ عنهم في الكتب، وبدأ يفهم منه تحديدا لماذا أنه فشل في الاستمرار في دراسة الفلسفة في الكلية.
سأله:
"ما الذي جاء بك إلى هنا أيها الفتى.. لقد تضعضع هذا البلد؟"
ابتسم بخشي بصعوبة، كان يشعر بألم في مكان غير محدد، رد على نيكوس قائلاً:
"هذا البلد لن يشيخ.. إنها قصة طويلة يا أبي.. لكن وجهتي إلى بريطانيا أو ألمانيا"
منذ تلك السنوات يسميه الفتى، ويرد عليه بأبي.. وفارق السن بينهما يمكن أن يسمح بذلك، ربما أكثر من ثلاثين سنة.. هل يقص عليه كل ما جرى، كيف أنه هرب ذات ليل وكان ذلك ضرورياً، وهل سيسمع عنه باقي القصة كيف أنهما بحثاً عنه في الصباح ولم يجداًه وفي النهاية قررا أنه ينسياه.
قالت كاثرين:
"أنت لست عربياً إذن؟"
ردت فاسيليكي نيابة عنه:
"كل من يأتي من شرق المتوسط.. فيه من طباع العرب خاصة إذا كان مسلماً"
كانت فاسيليكي تستعيد هي الأخرى بسهولة، بعد أن مسحت غبش الذاكرة، تلك الأيام التي قضاها بخشي معهما، غير أن ما يحيرها اختفاؤه المفاجئ، ولم ترغب في أن تعيد إنتاج الماضي. سألته:
"ماذا فعلت في كل هذه السنوات؟"
تنفس الرجل بعمق.. بل تأوه.. الألم يستعصي عليه، ماذا سيقول؟ هل يقول إنه كان إرهابياً ألم يصنف بهذه الصفة في قوائم الحكومة الأفغانية ومن ثم في باكستان قبل أن يقبض عليه في بيشاور ويودع السجن لستة أشهر قبل أن يهرب في عملية

قام بها مجاهدون ذات فجر، وهم يطلقون النار على الحراس ويفكون زملاءهم عن الحجز. ثم ما حدث بعدها من اتجاهه إلى تورا بورا التي سوف يكتسب لقبها، رغم حنينه الكبير للعيش في بيشاور المدينة التي يحس فيها أن العالم له طعم خاص، تذكره بأحلام طفولته فقد جاءها مع أبيه مبكراً عندما كان يتاجر في العسل، يأخذه عبر الحدود إلى أفغانستان.

تتبخر كل الوقائع ولا يبقى سوى الإنسان وذاكرته وجسده، سوى الدماغ والأحلام والجنون.. وبعض من الفلسفة المقلقة.. ولم يكن قادراً على الإجابة على السؤال.. ماذا فعل.. سوف يضطر للكذب.. لأن اسمه الرسمي الآن ليس من المفترض بخشي.. ولكن لا مشكلة فهو يثق في عائلة نيكوس.. مضت سنوات ولم تتزحزح هذه الثقة، هو متأكد من ذلك، قلبه متأكد بالأحرى.

ما بين اليقظة والصحو ومع شدة الألم تتعاظم الثقة في الآخرين.. سوف يحكي كل شيء.. ولكن ليس الآن.. سوف يروي لقاءه مع أسامة بن لادن وكيف أن الرجل أحبه كثيراً، سوف يتكلم عن كيف عاش متخفياً لبعض الوقت بعد مقتل الرجل في بيشاور التي يحبها طبعاً.. وسوف يروي رحلته إلى إيران بجواز سفر مزيف، باسم عبدالله باهي، وكيف كسب بعض المال من عمله في صناعة الحلوى، ومن ثم هروبه لدبي وعمله في مجال الصرافة، كل ذلك جرى في أقل من عامين.. هي الحياة سريعة أحياناً لكن معبأة بالأحداث.

أخذ ما كسبه وذهب للعراق لكي يلتحق بأبي بكر البغدادي وجماعته وقبل أن يصلهم، وصلته رسالة من صديق لشيخه القديم الملا عمر، عليه ألا يخون الوصايا ومن الحرام أن ينضم لداعش. التزم الأمر الإلهي، ومن ثم سافر لسوريا وقضى أياما في دمشق، بجواز آخر قبل أن يتم القبض عليه من قبل رجال الاستخبارات السورية.. كان ضابط عجوز قد أخذه في الليل وحقق معه، وفي نهاية الليلة صارا أصدقاء، بحكمة ربانية بالغة، عندما صوّر له الضابط بعض من تلافيف ما بقي في ذكرياته من جبال أفغانستان أيام الحرب الروسية، فقد عمل ذلك العجوز هناك مع الضباط الروس.

قال له:

"سوف سأقوم بإطلاق سراحك، ولكن ذلك يتطلب أن تنتبه لنفسك.."

وأخبره:
"يجب أن تهرب سريعاً.. سأعطيك من المال لتخدم نفسك.. حاول أن تجد لك ملجأ بأسرع ما يمكن"
ثم كانت رحلته إلى تركيا ومن ثم إلى هنا، هاهو المخ بدأ يتحرك والألم يقل مع الحقنة الطويلة التي غرستها الفتاة ذات الملامح الجامدة، قد لا يكون له خبرة في وجوه النساء.. ربما لشيء غامض لا يفهمه، غير أن هذه الفتاة بجمودها تشعره بوقار مفقود في النساء اللائي درسّهن القران ذات يوم في ضواحي بيشاور وفي وسط الجبال.
يقرر الخباز العجوز وزوجته أن يأخذا بخشي معهما إلى أثينا، ويقررا كذلك أن يقوما بعمل اللازم لرعايته وتوفير أمر اللجوء له، إلى أن ينهض ويرعى حاله. كانا يعلمان أن وراءه الكثير من القصص ولم يأت الوقت المناسب لروايتها، وفي طريقهما إلى أثينا يستعيد عافيته يبدو صحيحاً تماماً، ذلك الشاب بعنفوانه القديم، بقوته وجسارته عندما كان يعمل بهمة ونشاط. كان الزوج يفكر على أن حضور بخشي في هذا الوقت بالتحديد يعني رسالة من الغيب لهما بأن تغييراً جوهرياً سوف يحدث في حياتهما، كان يكلم روحه دون أن يعلم بمدى صدق ما يقوله، ربما يستعين ببعض الأشواق القديمة فتمنحه الأمل. ولم يكن يعلم أن ذلك الرجل سيجر عليهما المتاعب الجمة.
كيف فات على الخباز أنه سوف يجعل إرهابياً يعيش في بيته، في الريف اليوناني، تحديداً في ريف أثينا حيث باتت الحياة مكلفة هناك لرجل لم يعد يملك مالاً كافياً. وإذا كان الخباز وزوجته لا يعلمان فسوف يصبح الأمر مفهوماً بعد حين. أما حقيقة بخشي والإرهاب فسوف تظل مدار سؤال لا يمكن تحصيل جواب له حتى في ذهن الرجل نفسه، فالإرهابي شيء غامض في تعريفه. يمكن لأي كائن أن يسمي الأشياء بالطريقة التي تخصه، المصلحة وقانون الحياة الذي يتبعه، أما بخشي فيرى أن التحييز دائماً يكون ليس لما تتضمنه القواميس بل الواقع، فهو كان يقوم بأعمال جليلة، في نظره كان إرضاء الرب أمرا مفرغاً منه، في حين أن رضا الله لا يمكن التأكد منه مطلقاً.
في المرات التي قبض عليه فيها وأطلق سراحه سواء في الماضي القريب أو البعيد، ليس

من دليل في دماغه على أنه كان يفعل أمراً خاطئاً، وهذا هو المهم. لهذا عندما يقرر أن يروي قصته لنيكوس سيصبح على الأقل صادقاً مع نفسه، لن يكذب وطوال حياته لم يتبن أي خداع مع ذاته:

"القضية تتعلق بالصدق وأنا كنت صادقاً.. لم أمارس الخداع.."

يقاطعه نيكوس:

"أنت خدعتنا يوم قررت الهروب منا دون إعلامنا.."

يشعر الرجل الأفغاني بالحرج، كيف سيرد، وسوف تسعفه مهاراته كفيلسوف:

"هذا حدث ذات يوم.. لا يجوز أن نحاسب الناس على الأخطاء القديمة"

ضحك نيكوس رد عليه:

"حتى الله يحاسب الناس على الأخطاء في عالم قديم.. أليس هذه القاعدة في الإسلام.."

لم يتكلم بخشي، ولم يكن لديه مبررات يسردها غير قانون الثقة الذي استند عليه في البداية وعليه أن يستمر في الاعتماد عليه. وهو يعلم أن العجوز سوف يغفر له، كان لا يحتاج إلى دليل لذلك وإلا لابتكر أي كذبة يسد بها الحرج.

-2-

المكان: تورا بورا.. الجبال الشرقية
الزمان: شتاء 2011

ترتفع الشمس قليلاً وببطء كما يتخيل "تورا بورا"، ومع ذلك الهدوء الصباحي تمنحه الدفء وسط جبال وعرة وباردة، ليس له من أحلام كثيرة تبقت في الحياة، فهو يعتقد أنه عاش حياة عامرة بالأحداث حتى لو أنها كانت قاسية ومريرة. يضع بندقيته ماركة كلاشينكوف جانباً، ليس من تهديد في هذا الأيام، لقد قتلوا الشيخ أسامة وما من جديد سوف يحدث في الوقت الراهن. فالبعبع الذي يخفيهم قد مضى.
يكون قد انتهى من تجهيز الشاي الأخضر على الجمر المتقد والذي يمنح لهيبه شعوراً بالدفء كذلك. دفء خاص أقرب من دفء الشمس، معه يحس عبد الله بخشي بذكريات التنور، ذلك المخبز في أثينا. يتنفس بعمق، فهاهو الزمن يمضي ويجره للعودة إلى هناك. لا أحد يحمل خارطة واضحة للمستقبل، فهو الذي يتولى الخرائط والاتجاهات يقودنا أينما شاء. يفكر كيف يمضي الزمن رويداً، مرات يكون عجولاً يأخذنا إلى أماكن مشبعة بالغفلة، ومرات جديدة يستغرق وقتاً طويلاً يعذبنا لكي نصل إلى محطات مشرقة. وبين ذلك يكون الإنسان باحثاً عن حكمة البقاء.
تشبه الطبيعة بعضها في كل مكان، فقط ما يختلف هو تلقي الكائن. الصحراء نفسها هي الجبل والنهر والبحر، ربما هذه حقيقة وقد تكون هي خبرة الحياة بعد سنوات يكون فيها المرء قد أدرك أن العالم ما هو إلا مجموعة مجازات يُركِّبها المرء وفق هواه، هناك من يستجيبون لإغراء المجاز ويكونون واهمين وهناك من يقف ليضع الحدود الفاصلة ويتحقق من وراء الوهم، إنه الفيلسوف.. ثمة صوت يكلمه من تلك المدينة الأوروبية العتيقة، يأخذه الصوت يذهب ويأتي، يتذكره حاضراً قوياً، دون إدراك أن المشيئة إن جاز لها أن تسمى سوف تقوده من جديد إلى هناك. إلى أرض الحكمة.
يسمع نيكوس يرد عليه:
"كنا حكماء ذات يوم.. لكن الآن ألمانيا هي أرض الفلاسفة والحكماء"
يرهف السمع، يحاول أن يميز حضوره أين هو؟ في تلك الجبال السامقات، في ذلك الشتاء الأفغاني بحيث تبدو أفغانستان بلداً غريباً عنه، حتى لو أنها أرض الأجداد.

الحروب تغير الجغرافية وتمحو كل الذكريات وتجعل التاريخ مأساة وتقربنا من اكتشاف الحياة بشكل جديد ربما هذه هي الفائدة الوحيدة لها إن وجدت. أم أنه هنا في الريف الأثيني؟! ليس من تأكيد، تتداخل الأزمنة، يعاني كثيراً، وهو ينفض الوجع عن عينيه، متأملاً السحب من فوقه يكاد يلامسها، يحن لأيام شبابه يوم جاء هنا لأول مرة هل كان يرغب في حياة أخرى، ربما. لكن ليس ممكناً العودة للوراء.

يتكلم بصوت عال يقبض على صوته الضائع في المسافة وبين الغابات المتبقية في المكان.. حقيقة الجغرافية هنا في هذه الأرض التي وصلها قبل يومين، أو ثلاثة.. إذن أنت هنا.. يهمس، ثم يشرع في تأمل الصباح الباكر، في حين كان العجوز نيكوس يؤدي تمارين رياضية، يقول إنها تعينه في البقاء خالداً في هذا العالم. كان قد عاد للقراءة والحياة باتت له أكثر شغفاً من تلك الأيام، يشعر بخشي بذلك وهو سعيد جداً بما يجري. غير أن السعادة ليست دليلاً على أن القادم سيكون جيداً.

خلال أسبوع حصل التفجير الكبير أمام الأكروبوليس بوسط أثينا، مات العشرات ضحايا ذلك اليوم الدامي، كان شيئاً مؤسفاً يصور فظاعة الإنسان وقذارته في هذا الوجود الذي بات سيئاً كما وصفه نيكوس.

"لم يحدث أن شهدت اليونان حدثا كهذا.. كم مرة يعلنون عن إحباط تفجير.. الآن نجد أنفسنا أمام الواقع المرير.. الفقر والبلاء والإرهاب.."

يسمع بخشي كلمة إرهاب، يصيبه جنون، يحاول معه أن يتخلص من نفسه ومن ذاكرته أن يصبح إنسانا آخر، هذا الشعور الذي يتحكم فيه، ليس له من أي دليل عقلاني يستند عليه بنظره سوى أنه ذلك الخوف الذي بات يقلقه أن ثمة خطر قادم.. خاصة أن حكاياته كانت واضحة أمام نيكوس، فقبل ليلة حكى له كل شيء منذ أن غادر اليونان وقبلها إلى اليوم.. هو يثق في حكمة العجوز، لكنه لا يثق في تصاريف البشر وقدراتهم على التلون أمام الوقائع، وهذا لا يتعلق بسن معينة.

يقرأ نيكوس ما يدور بذهنه، يخبره:

"أيها الفتى لا تقلق.. لا أحد سوف يمسك بسوء.."

"لكنهم يطاردون الملفات القديمة.. يطاردون تاريخك الشخصي لا أين أنت الآن؟ ما هي حقيقتك الجديدة؟"

"أغبى خلق الله هم الاستخبارات"

يمكن لهذا الكلام قد يكون مدعاة للإحساس بالطمأنينة لبعض الوقت، دون أن يمنح الدفء الممتد إلى الأبد، ويعلم بخشي من التجارب التي مر بها أن كلام العجوز قد يكون سليماً غير أنه ليس في كل مرة تأتي الرياح كما نشتهي.. ليس للدفء الأبدي أن يستمر ذلك الذي تمنحه الشموس الكبيرة التي تعطي للحياة صيرورة أخرى، جمالاً جديداً وتحرر الإنسان من الأوجاع التي ظل يحملها لسنين.

"الاستخبارات تفكر بعقلية ماذا يحمل دماغك؟ لا كيف تتصرف.. لهذا يخطئون في تحليل الظرفيات وفي القبض على المجرمين الحقيقيين"

يسمع بخشي ذلك من نيكوس يفكر أن هذا المنطق يمكن أن ينجيه، لأن عقله اليوم صاف وأمين ومميز باتجاه حياة صافية بحق. غير أن هذا المنطق نفسه لو أنقلب وتم تنفيذه فسوف يرتد عليه، فأين كنت بالأمس؟ أي خطوتك السابقة هو الخطر الحقيقي. فالطريق الذي جاء منه لا يبشر بخير.

شعر بتوجس وهو يسمع العجوز يضيف:

"الذي يفجر قنبلة.. كان بالأمس في مكان ما يتعلق بهذا الفعل.. كأن يشتري مواد يتم الاستعانة بها في صناعة القنابل. هذا هو المعني بالفعل أو التصرف.. أما الأفكار وما بداخل الدماغ، فلا تخدم في تشخيص الجريمة كثيراً، قد تكون مجرد تضليل.. المجرمون المحترفون يعلمون ذلك"

يفكر بخشي في مقولة سمعها كثيراً وسط المجاهدين تقول إن أكثر الناس هدوءاً وأخلاقية هم الأكثر شراً وهم الشجعان الذي يفجرون أنفسهم بلا هوادة.. إنهم لا يحملون أي فكر متطرف في حقيقتهم هم يحملون حب الله فحسب، يحاول أن يوجد علاقة بين فكرته هذه وما يقوله الفيلسوف العجوز غير أنه لا يصل لنتيجة، فدماغه بات مشوشاً لا يعمل بالطريقة المطلوبة.

كان كمن سكر كثيراً، وإن لم يجرب الخمر منذ عقد كامل وأكثر.. دار رأسه ولم يكن ما يسمعه من نيكوس يمر بأذنيه بل تأخذه رياح الصباح التي بدأت تهز الأغصان في الشجر وتجعل صوت الطبيعة غير متناغم كما كان قبل ساعة. كان للطبيعة في كل مرحلة من حياته صوت مختلف.. وكان هو إنسان آخر من مرحلة أخرى. كيف يمكنه أن يعالج ذلك في فكرة محددة يشرح بها صدره الضيق. كان العجوز يحس بألم الصبي فتركه وحيداً ومضى يمارس بقية رياضة الصباح في الغابة.

-3-

المكان: الغابات.. شمال أثينا
الزمان: نهاية عام 2014

مضت أعياد الميلاد هذه السنة بائسة، قد يكون الأثر الاقتصادي وربما هي أسباب أخرى، تتعلق بنفسية نيكوس، فقد تم استدعائه من قبل السلطات المحلية مرتين بسبب بخشي. هم كانوا يعلمون كل شيء، وهم أذكى منه كفيلسوف ينتمي لقرن منقرض.

فكر بهذا الشكل وهو يسلك طريقه وحيداً في الغابة التي صارت عاشقة للحرائق، وكان يسأل عن السبب الذي لا يجعلهم يستجوبون "تورا بورا" مباشرة.. أم أنه نوع من الحيل التي يمارسونها.. كما أن الوضع غير واضح تماماً.. فإلى الآن ليس من تهمة واضحة.. كما أن طبيعة الاستجواب تحذيرية أكثر منها لأخذ معلومات. رغم أنه من نوع التحذير المهذب. كان الضابط الشاب قد وضع ملفا كبيراً على الطاولة، ما زالوا يستخدمون الملفات الورقية لأنها لا تتعرض للقرصنة يوضح الضابط ذلك دون ما يدعو للشرح بتقدير العجوز.

ينظر نيكوس في فراغات المكان، يبدو شاسعاً ومرتباً لا يعكس صورة الأوضاع في الخارج، الضيق والتأزم.. إنها قدرة هذا الشعب على احتواء الأوجاع، حتى من قبل رجال الاستخبارات.. لكن هذا الشاب يبدو لطيفاً فما ذنبه؟ إنه يؤدي عمله وكفى، بل إنه فيلسوف بارع في القيام بواجبه، على ما يبدو، وإلا لما تدرج سريعاً ليكون مسئولاً عن مجموعة كبير من الرجال والنساء كبار السن الذين يحيونه بأدب واحترام لا يبدو مصطنعاً.

يكلم الشاب نيكوس:

"مهمتي أن أقرع ناقوس الخطر.. أنت تحتضن إنساناً له تاريخ عريق في الإرهاب.. وهذا وحده يكفي لإدانتك.."

يصمت قليلاً ثم يستطرد:

"لكن لا يوجد دليل يجعلنا ندين شخصاً بريئاً سواء تعلق الأمر بك أم به"

"هل لي أن استفسر؟"

"تفضل..

مد يده بترحاب، تكلم نيكوس:

"هل لذلك أي علاقة بشيء معين.. يحدث في البلد؟"

"لا ونعم.."

"لا يوجد لدينا دليل بأن السيد بخشي لديه علاقة بمفجري الأكروبوليس"

"إذن..."

"دعني أكمل سوف أخبرك.. الأمر يتعلق بعمل قائمة بأناس محتملين.."

غادر نيكوس المكتب وعاد بعدها، ولكن لا جديد. ليس من أي معنى واضح لحضوره ومغادرته، وكان قد أخفى ما جرى عن بخشي، بطلب من المحقق الشاب:

"دع الأمور كعادتها.. ستتعاون معنا عندما تتركه يمارس حياته المعتادة.. ولا تقم بأي ما يزعجه ليغادر عنك.."

-4-

المكان: الغابات.. شمال أثينا
الزمان: أول أيام 2015

تضرب رياح باردة في الأشياء والذكريات، ينهض العجوز نيكوس عله يحصل على شيء ما من الأمس يقبض عليه، يحن لتلك الأيام التي كانت بلاده قادرة على أن تتسيد العالم. ما لها اليوم تتعرض للإهانات، الألمان الذين كنا نهبهم المال هم اليوم يجعلوننا فقراء قصادهم يريدون أن يعالجوا أزماتنا بمزيد من الأزمات. هذه السيدة ميركل ماذا تريد من بلادنا، هل هو تنافس على الحكمة، على الفلسفة، هل هذه هي طبيعة الصراع لمن أراد أن يفهمها بحق؟

لا يفكر نيكوس كثيراً يمضي إلى الساحة الخارجية، يرتجف قليلاً، يشعر بحمى لا سبب لها، يتلفت بحثا عن بخشي لا يجده، يخال له أنه يبصر من بعيد رجالاً بزي البوليس يجرجرون رجلاً وسط الغابة، هل الرجل هو بخشي ليس متأكداً. يرى العجوز فاسيليكي وراءه، عرفت ما الذي يفكر فيه بالضبط، تكلمت معه باللغة التي يفهمانها سوياً منذ عقود، العيون والألم الذي يختزل الأمس.

فهم أن بخشي قد تم اعتقاله، وفكر أين ذهبت تطمينات المحقق الشاب، هل كان يكذب. كانت فاسيليكي تقرأ ما يدور بدماغه أخبرته:

"لقد أخذاه ومضيا به.. هما رجلان وكان يبدو غير خائف"

صمت نيكوس، لم يكن له ما يقوله، هل لديه أي إحساس اتجاهه لم يكن يعلم، لقد وعداه بأن يقدما له حياة جديدة، وهو وعد بأن يكون إنساناً مختلفاً، فما الذي يجري أو جرى. استغرق في التفكير بعيداً عن البحث عن إجابة لأسئلة معلقة في الفراغ، كان المساء يدنو وكأن النهار لم يمر في هذا اليوم، ويتخيل أن بخشي عائد ولم يعد، ومرت أيام. هل يذهب ليسأل عنه، وهل سيسأل عن إرهابي قتل العشرات من بني جنسه، لا لن يفعلها.

مضى المساء حزيناً وقاسياً، فالإنسان ساعة يكون له قلب تمتصه الأحزان وترهقه بغض النظر هل الموقف يستحق ذلك الحزن أم لا، وبعد أسبوع، وصل بخشي بصحبة

رجل من البوليس السري اليوناني، قال إن قراراً صدر بإبعاده عن البلاد وهذا أضعف ما يمكن أن يلحق به، كان سعيداً وقال لنيكوس:
"لقد قدمت لي الكثير وأشكرك.. جئت لأقول وداعاً"
نهضت الدموع من مقلتي العجوز وزوجته، رسما قبلتين على جبين الشاب الأفغاني، أخذه البوليس مقيدا من يديه وغابا وراء الأشجار مثل حلم بعيد. هل سيكون لهما لقاء مرة أخرى في هذا العالم ليس من أحد متأكد، وحده الراعي الأعلى يعلم ذلك. تذرف مقلتا بخشي.. يحس أنه مظلوم ليس له علاقة بما جرى وما سيحدث، يدرك أنه حتى لو تطهر الإنسان فإن رائحة الماضي لن تغادره سوف يتعاملون معه على أساس إنه إرهابي مجرم. ركب الطائرة إلى جهة غير معلومة. لم يخبروه، هل سيقاد إلى ذلك السجن المعزول وسط جبال تورا بورا، طالما سمع عنه وأنه محروس بجنود عتاة من الأمريكيين والباكستانيين الذين يخدمون الجيش الأمريكي. لا أحد متأكد من غده، وفي الطائرة نام. لم يستيقظ إلا على البحر أسفلهم. رائحة زمن مضى تعود من جديد ينتفض يخرج من داخله ذلك الكائن الغريب، يتملكه أمل بأن ينجو ولكن هيهات.

* * *

لم أكن قادرا على الكتابة، أو تدوين مأساتي. ربما لأنني أعاني القلق والتوتر والإحباط، وربما لأشياء أخرى لم أتعلمها بعد في حياتي التي لم تبدأ بعد. فدائماً، وما زلت أعتقد أن الحياة لا تزال معلقة في فراغ مجهول، هناك وراء أفق غائب. سوف يأتي نهار بشمسه المشرقة الضاحكة، ويحملني على عجل إلى أحلامي المنهوبة، لأراها تتحقق أمامي، أقبض عليها واقعا ملموسا.
هذا نهار جديد. لكن لا جديد. حتى الأسئلة التي كانت تشغلني في الماضي، لم تعد حاضرة. كل شيء تسرب عبر ثقوب الماضي الضيقة، وهرب إلى العدم، لأجد نفسي تصارع كوابيس الغيب، الأقدار المجهولة والمستقبل الغريب.
سمعت صوت يناديني من جهة غير معلومة، يشبه صوت النهر الذي عشت إلى جواره سنوات طفولتي. كنت وحدي أحاول أن أفهم معنى للعالم، من خلال تلمس الماء، لكن الحقيقة لا تكتشف ولا ترى من خلال الحواس المحدودة، هي غائبة وراء اللامحدود واللاممكن، ووقتذاك لم أكن أدرك بعد أن الإنسان

لكي يفهم الحياة على نحو أفضل يجب أن يتحلى بالصبر وأن يثابر من أجل أن يحقق معرفة خاصة بالعالم، من خلف ما يرى وما يُعتقد.
هذا نهار جديد. وكنت أعتقد ألا جديد في العالم، بعد أن ماتت الأحلام وغرقت في النسيان. لكن ما هذه المفردة التي تحاصرني. النسيان. فذاكرتي ومنذ ربع قرن منذ أن تفتح وعيي على الوجود، ظلت قوية براقة، قادرة على التقاط التفاصيل البعيدة جداً، تلك المتدثرة في سراديب الأمس وفي ردهات الغيب.
لا عليّ. لن أفكر طويلاً وأنا أكتب، فعلاقتي مع اللغة عابرة تبدو يسيرة وأحياناً مستعصية فاللغة تحتال على الإنسان مثلما يحاول أن يتلاعب بها، هي علاقة كمثل علاقتي مع كل الأشياء من حولي طابعها العبور وعدم الاستقرار النهائي والشك المستمر. وهل لرجل – مثلي – سيمضي إلى قبره وحيدا، غير أن يفكر بهذا الشكل؟ أن يرى العالم على أنه مجرد أحلام وذكريات وكوابيس ومغالطات. يكون عليه أن يصارع المتناقضات. انتصر أو انهزم. لا فرق عندي، طالما كنت مرهونا للأقدار التي تحركني كريشة في مهب الريح الشمالية الباردة ذات العواصف الليلية في بلدي البعيد.
أتذكرها الآن في هذا السجن الأوروبي وأنا انتظر تأشيرة الغفران بأن أمنح إقامة أبدية.. ها هي الريح تضرب النوافذ المهترئة في بيتنا القائم شمال الخور، أكون وحدي، ماذا أفعل. الله أعلم.
"هل كنت أرتب كتبي؟ أقرأ؟ أكتب؟ أرسم؟ أحاول تقليد وجهي؟"
لا أتذكر، هنا تهرب التفاصيل وتتعطل الذاكرة تماماً، ولا أعد واثقاً في أشيائي. يصبح النسيان بديلاً لكل الذاكرة البراقة.
يمضي الشتاء حاملاً معطفه إلى غابة الصيف اللعينة. أكون قد قررت السفر إلى مسقط رأسي في الشمال. ولكائن مشبع بمغنطيس الألفة، من الصعب أن تمضي الحياة في مكان آخر، غير الأرض التي دفن تحتها سرته.
كانت عمتي تقول أن عيسى سيموت هنا، حتى لو أنه سافر إلى كل بلاد الدنيا.
لم تكن عمتي عرافة أو من هؤلاء الذين يشغلون الآخرين بزعمهم رؤية العوالم المتخفية في الغد. كانت عجوزا عادية، نشطة، مثابرة في حب الخلود. عمرت كثيراً. لا أحد يعرف كم كان عمرها عندما خلدت للنوم ليلا وماتت، دون أن تثير أي حس أو خبر.

كنت قد عدت من المدرسة عابرا الخور المخشوشن ببقايا الحشائش التي نمت في فصل الخريف. لم أتقدم سوى خطوات تجاه الجسر الصغير الذي تعبر فوقه السيارات العتيقة في المدينة، عندما سمعت عويل النساء في الحي. أدركت أن ذلك الكائن الذي يخطف الناس ويهرب قد مارس جريمته في هذا اليوم المغْبر. لم أتصور أن عمتي زينب قد رحلت إلى العالم الثاني، ولم أتوقع ذات يوم أنها سوف تستسلم بسهولة لكائن خجول يأتي على استحياء، ولا أحد يرى وجهه أو يقدر حجمه ولا طوله.

هكذا كنت أتخيل عزرائيل، ملك الموت، الذي أخبرنا به مدرس التربية الإسلامية، وقال لنا أن لديه أجنحة يطير بها من أرض إلى أرض، ومن أرض إلى سماء، حتى يقف أمام عيسى حاملا سلة كبيرة من السعف، عليها أرواح عشرات البشر الذين قضي أمرهم. يكون خائفاً أن تكون الساعة الموعودة قد أزفت، ويقول للحق:

"هاهم عبادك، فرقهم ذات اليمين وذات الشمال، أنت أدرى بمصائرهم"

تخيلت أن روح عمتي الوثابة، قد قفزت من السلة ووقعت على الأرض، فإذا بها تضحك. كنت أنا الذي يضحك، والذي بكى في ذلك الفجر دون أن يراه أحد أو أحس به، إلا أن وقع معي كابوس قصير لاكتشف أنني نمت في مخزن قصي بالبيت الكبير، أيقظني ذلك الكابوس فزعا في الحال، وهرعت إلى حضن أمي، وجدتها نائمة تتقلب على الفراش الغارق في غبار الرياح الشمالية. لم أيقظها. نمت سريعاً واستيقظت في الصباح وقد نسيت كل شيء.

ثم مضت السنوات إلى أن وجدت أنني سوف أصبح رساما مستصحبا ذكرى عمتي وما تعلمته منها من حكم في الحياة.. عمتي التي أرادتني أن أموت وأدفن بجوارها.

في الصباح رتبت حقيبتي الصغيرة، وضعت داخلها عدتي التي استعين بها في تسجيل اللحظات الهاربة من الحياة، كنت أعمل رساماً في الشارع العام، أرسم للعابرين من البشر، بعضهم يرى في لوحاتي انطباعات جميلة ويسرُّ بها، والبعض الآخر يمرُّ من أمامي دون أن يلتفت إليّ، وآخرون يضحكون ويواصلون المسير في الشارع الذي يبدأ عند كلية الطب القديمة المبنية على الطراز الفيكتوري (نسبة إلى الملكة فيكتوريا) وينتهي عند القصر الجمهوري.

كنت أرسم وجوه الناس العاديين، وأرسم وجوه الملوك والرؤساء وأحياناً أرسم طفلاً من الأطفال المشردين.

مرة رسمت وجه (سيمون). هو بالأحرى صبي، نما شاربه مبكراً، في وجه بعينين صغيرتين وفم مقوس كأنما خُلِق لأكل التفاح.

وقف الصبي أمامي يراقب حركات الريشة المبتلة بالزيت الأحمر.

لدقائق مضت لم أحس به، وانتبهت إليه ساعة طق أصبعه قريباً من أذني على نحو متعمد، وسألني دون أن يترك لي فرصة لأدرك من يقف ورائي:

"هل وجهي يستحق الرسم؟".

فهمت مغزى السؤال لاحقاً، فالأطفال والصبية الذين كان (سيمون) زعيمهم في ردهات السوق، كانوا يحقّرونه بقبح وجهه، يحدث ذلك على الرغم من تشديد سيمون في التعاليم والإرشادات والرقابة الصارمة على تحركات المجموعة، لاسيما في الليل.

كان وجه سيمون قبيحا بالفعل، لكنه على أية حال صبي، وداخل كل صبي ملاك صغير، يمكن من خلال تأمل الملاك الساكن في الروح.. رؤية الوجه بطريقة مختلفة. تعلمت هذا الشيء من عمتي في صغري:

"عليك ألا تحقّر الناس من أشكالهم، حتى تكتشف ما الذي تخبئه دواخلهم، فالجسد تراب لا يكشف عن المعادن التي تحته، بعض الناس يخبئون ذهبا والبعض الآخر قلوبهم خراء".

أقنعت سيمون بأنه جميل، لكن الصبي لا يقتنع. كان عنيدا، وبوصفه زعيماً كما يعتقد، كان يتصرف بروح متسلطة، وكبرياء. نقطة ضعفه الوحيدة، كانت وجهه الذي لا يمكن ترميمه إلا بمجهود كبير لرسام قادر على اكتشاف المعدن الحقيقي المندس وراء العينين الصغيرتين.

بعد أن رأى ملامح وجهه الجديد بدأت في الظهور على البياض، ظل سيمون يطاردني لثلاثة أيام، مُصرّا على أن يرى وجهه معلقا في الشارع العام، وحاول إقناعي بذكائه الخاص، المكتسب من تجاربه في سن مبكرة، أن لوحة وجهه ستكون أغلى من كل اللوحات الأخرى، وسألني:

"أتعرف السبب؟".

في الواقع كنت أعرف السبب الذي سيجعل لوحة سيمون أغلى من لوحة لكاسترو أو

نيلسون مانديلا أو معمر القذافي؟!، وأدركت أن الفتى بدأ ينظر لنفسه بطريقة مختلفة. إلى أن انتهيت من تسجيل تفاصيل الوجه الكبير في جسد نحيل، لم أكن أتوقع أن أحقق من ورائه عائداً مجزياً، فقد بعت قبل يومين لوحة لرئيس البلاد، بخمسة آلاف جنيه فقط!!..

علمتني عمتي التي دائماً ما أتمثل بحكمها، ما لم تعلمني سنوات دراستي الأربع بكلية الفنون الجميلة بالخرطوم، وقد تذكرت ذلك عندما وقف أمامي سائح غربي، لم أعرف في البداية لأي بلد ينتمي وسألني: "How much".

كان يشير إلى اللوحة التي انتهيت منها للتو، ولم أعلقها بعد، إذ كان سيمون يحاججني بأن اللوحة ملك له، لأنه لولا وجهه لما كانت اللوحة.

قالت عمتي ذات مرة:

"تعلم يا ولدي أن تدرك أن الأشياء التي تبدو تافهة في حياتك، هي الأشياء التي تحمل قيمة الحياة".

الآن يصدق الحال، مع لوحة سيمون.

دفع لي السائح مائة ألف جنيه، ودسّ في جيب سيمون مبلغاً من المال، لم أتبين كم يكون، ولم أهتم بذلك كثيراً.

كان سيمون قد تلاشى سريعاً من أمامنا، قبل أن يخبرني السائح بأنه صحفي في الأصل، جاء من جنوب الولايات المتحدة الأمريكية لينتج فيلماً تسجيليا عن الحياة في الخرطوم في ظلال الحرب الدائرة في جنوب وغرب البلاد، يعني حياة الأطفال الذين شردتهم المطحنة وأصبحوا ضحايا لها، وحياة النازحين على أطراف المدينة، والذين يعيشون حياة أبئس من البهائم.

كان سيمون يصرُّ على أن لوحة وجهه ستكون أغلى من كل اللوحات الأخرى، ويكرر سؤاله لي:

"أتعرف السبب؟"

ثم غاب دون أن يخبرني بسببه الخاص.

قلت لنفسي:

"حتى لو أخبرني فلست متأكداً أن الطريقة التي جرت بها الأحوال، هي التي كانت في ذهنه".

* * *

سادساً

العزيز هامسون

".. في السماوات يرقبني الله بعين يقظة ويسهر على أن يكون انحداري انحداراً منظماً مستمراً، وعلى مهل، وبدون أن يصطدم بتقديرات الزمن. غير أن الشياطين اللعينة كانت تطوف في قرار الجحيم تتطلع من القلق، لأنني تأخرت طويلاً في ارتكاب إثم عظيم لا يغتفر، فتلقي بي من أجله عدالة الله في الجحيم.."

الكاتب النرويجي
كنوت هامسون

-1-

المكان: منزل من أربعة طوابق.. منطقة ألكسندر بلاس.. برلين
الزمان: صباح غير محدد من عام 2015

تنهض ميركل من النوم فزعة بعد أن رأت في الحلم تلك الفتاة التي سبق أن رأتها في المسرح، تحديداً في دار أوبرا توي. كانت فتاة جميلة ذات ابتسامة غير محددة الملامح. يكشف وجهها عن عبقرية مخبأة وراء شيء من الجنون أو الخبل. لا تبدو المستشارة متأكدة جيداً، فذاكرتها لا تعمل بشكل جيد هذه الأيام.
لا تعرف ميركل السبب الذي جعلها تحلم بهذه الفتاة؟ ولا أين هي الآن بالضبط؟ فكرت بهذا الشكل. وحاولت تناسي الموضوع قبل أن تدخل مطبخها وتعد بنفسها ساندويتش من الجبن الألماني وقليل من البيض المقلي. تذكرت أن الجوع سيء للغاية، لاسيما إذا نمت دون أن تتناول عشاءك، وفي العادة فإن ميركل لا تتعشى لعدة أسباب ليس أولها رغبتها في تخفيف الوزن. قد يأتيها هذا الخاطر مرات، بيد أن ما يشغلها بجد هو الانهماك في التفاصيل اليومية، فالحياة السياسية في بلد كألمانيا أمر مرهق، تخيل أن تحكم شعباً يعمل كالساعة ليس سهلاً أن ترى كل شيء. حتى لو أن العكس هو الصحيح إذ يفترض أن الدقة هي التي تجعلك لا ترتبك. لكن ألمانيا اليوم هي جزء من عالم كبير ومعقد، يشبه الوضع معادلة فيزيائية.
تذكرها للجوع ومن ثم انهماكها في السياسة فالفيزياء، جعلها تعود وهي تمسك بمضرب البيض لتلك السنوات من أوائل السبعينات، عندما كانت طالبة بجامعة كارل ماركس.. جامعة لايبزغ.. كانت طالبة مجدة لا تفكر بسوى الدروس إلا أن يشغلها الجوع، وكانت تقضي أغلب الوقت في المكتبات بحثاً عن المعرفة، في الفيزياء العلم الذي أحبته وتمنت أن تعمل فيه إلى الأبد إلى أن أخذتها السياسة، لكنها استفادت من الفيزياء في تطويع قدراتها في إدارة جمهورية معقدة بعد الاتحاد تحديداً الذي أعاد تشكيل كل شيء تقريباً لوضع قد لا يكون مفهوما إلى اللحظة. لم يوقفها عن التفكير العميق في الفيزياء إلا صوت زوجها الأول ميركل الذي سوف تحمل اسمه.. السيد أولريش ميركل.. لتصبح أنجيلا ميركل.. كان رجلاً يتمتع بصفات عظيمة،

ومن الصعب إلى اليوم تحديد الأسباب التي جعلتها تهرب منه. كان هروباً حتى لو يُسمى هكذا.
قلبت البيض ثم جعلته يهدأ قليلاً في النار، قبل أن تزج به في الشطيرة. وهي تتذكر أن عليها واجبات كثيرة اليوم، وما يشغل بالها بالدرجة الأول الاجتماع الذي سوف تعقده مع جماعة من المتطوعين الذي يقولون إنهم يناصرون قضايا اللجوء في ألمانيا، وهي إلى الآن مترددة بخصوص هذا الموضوع. ليس لأي سبب سوء الخوف من أي قرار غير محسوب يأتي كردة فعل من الحزب. تناست الحزب، أنهكت في الأكل بهدوء، وسرحت بعيداً في ثنايا غيب تلك السنوات.. كان أولريش قد عاد من رحلة قام بها إلى النرويج، وفرنسا، كان قد ذهب لإلقاء بعض المحاضرات في نظريته التي كان يروج لها؛ بعض المبادئ المعقدة في الفيزياء والتي كان يصعب فهمها حتى لميركل، ويبدو أن ثمة خلل ما، واجهته بالأمر:
"لا يمكن لأحد أن يفهم ما تقول"
"ليست المشكلة عندي.. لابد من تغيير الأفهام"
كان نقاشاً حاداً، انفعل الطرفان، ثم عادا للهدوء بعد أن اكتشفا أن الأمر لا يستحق، فحبهما أعمق من ذلك.
هل يكون ذلك اليوم بداية لشرخ توسع مع الزمن. لا تعرف ميركل أن تجيب على السؤال، اليوم، كأمور غامضة ظلت في حياتها. مسارها المضطرب. تبدو حياتها متماسكة للناس من الخارج، في حين أن معاناتها النفسية تتسع يوما بعد يوم.
شعرت بغضب مفاجئ تتعمد أن تمسكه أمام الجمهور، حفاظاً على صورتها. تضرب على الطاولة في المطبخ ثم تدفعها بقدميها لتنهض إلى الحمام، تغسل وجهها وتستخدم منشفة زرقاء قبل أن تفكر من جديد في ذلك الشرخ الغريب.
كان كتاب "الجوع" لكنوت هامسون على الطاولة في الصالة الكبيرة من البيت، منذ يومين بدأت في قراءته دون أن تكمله، مزاجها مع الروايات غريب، ولا يتعلق ذلك بمشكلة في الوقت وإنما بالقصة نفسها، فهي تريد أن تقرأ ما يجعلها تفهم العالم بشكل أفضل، يتوفر ذلك في الحياة السياسية العملية والاحتكاك بعصابات السياسيين والاقتصاديين أكثر من الانهماك في الكتب، فالروائيون أناس محدودي التجربة برأيها، ماذا يعرفون سوى اختراع أبطال أغلبهم يعانون شروخاً نفسية إنهم لا يفعلون في

الغالب سوى العزف على الوتر الذي يوجعهم. بعكس السياسي فهو إنسان يرى الصورة كاملة ويفكر بواقعية.

مرة قابلت غونتر غراس في مناسبة عامة، لا تتذكرها بالضبط الآن. كان قلقاً أمامها وهي لا تعلم السبب طبعاً، وعندما واجهته بأنها لم تحب رواية "طبل الصفيح" بدأ أكثر كآبة. تتذكر بشدة أنه رد قائلاً:

"السياسة تجعل الإنسان يفقد الخيال"

نعم هي تحتاج إلى الخيال تعترف بذلك، وقبل يومين كان نقاشاً عاصفاً في اجتماع الحزب حول كيفية التعامل مع أزمة اللاجئين، ولم يكن لديها الخيال لتبلور رؤيتها بوضوح. تلعثمت في الحديث، وكان أحد الأعضاء كأنما سمع غراس يومها قد خاطبها:

"الخيال.. سيدة ميركل"

ابتسمت باقتضاب.. وهاهي الآن تفتح صفحات رواية "الجوع" لذلك النرويجي الذي كان نازياً هذا ما تعرفه عنه، لصدفة ما أو شيء مخطط له ليس لديها أفكار عن الأمور القدرية.. كما أن الفيزياء لا تفسر ذلك. كانت صحيفة الصباح "دي فيلت" أمامها تحمل صورة في الصفحة الأولى لكاتب رواية الجوع.. ومكتوب أسفلها.. "الهروب".

فكرت ما الذي يطاردها في هذا الصباح؟ الهروب من الماضي.. الطلاق القديم. ثم الهروب الآن.. نظرت إلى المقال سريعاً يتحدث عن قضية الرأي العام.. اللاجئين بوجهة نظر رجل جائع.. يبدو أن الصحفي الذي كتب المقال كان جائعاً ليس من شك وكان يفكر في عشرة ماركات تجعله يحس بالشبع، تماماً مثل بطل رواية "الجوع" الذي يكتب المقالات لكي يسد رمقه. هذا ما تتذكره السيدة من الصفحات الأولى للرواية. قبل أن تفكر مجدداً في متابعة قراءة الرواية، يكون السيد "يواخيم زاور" قد نهض من النوم، يبدو وجهه شاحباً، تتذكر أن عيد ميلاده مضى نهاية السنة دون ذكرى. لا أحد تذكر إلا الآن.. تعني نفسها طبعاً. كانت مشغولة أو نست ليس لها من عذر يمكن تقديمه، وهو لم يسألها.. تريد أن تقدم ذلك الاعتذار ثم تؤخره لأن الشأن العام يبدو أهم الآن، تخدع روحها وتمضي في تصديق الكذبة.

بعكسها كان يحب الروايات جداً، طالما تناقش معها لكن ميركل عنيدة جداً:

"حققت ما أريد ماذا سوف تضيف لي رواية اقرأها"
أمسك بالكتاب وضعه فوق رف بعيد.. حذرها بقوة:
"لا تفتحيه مرة أخرى.. هذا ملكي وحدي"
كانت تعلم أنه يمزح.. غير أن بعض المزاح يتحول لجد خاصة عند كبار السن من العلماء.. فهم أناس يأخذون الحياة بمنتهى الجدية. فالجلوس الطويل في قاعات الدرس والمحاضرات وبين الكتب والمجلدات المعقدة تحول الإنسان إلى كائن متكلس. هكذا يبدو يواخيم متكلساً ومتكسلاً وثقيل الظل وغير محتمل. مرات تراه هكذا في شعورها الباطني ولا تخرج ذلك، وهو يحس به لكنه لا يقول شيئاً.
مرة كان الرئيس الروسي بوتين ذكياً، لا تعرف ميركل إن كان يتمتع بالذكاء على المدى المستمر أم أنها مجرد خاطرة استطاعت أن تثبت نجاحها. كان الوقت مساء في الكرملين، على طاولة العشاء.. وكان يواخيم ليس كالعادة قد سافر مع زوجته إلى موسكو. وجّه بوتين كأسه يلامس كأس يواخيم، قال له هامساً:
"هل تراك ميركل ثقيل الظل؟"
شعر يواخيم طبعاً بالغضب ولأنه أمام مضيفه فقد آثر الصمت. ولم يعرف كيف يرد على بوتين الذي ابتسم ابتسامة مقتضبة لم تفهم ميركل مغزاها، وقد تأكدت أن هناك آخرين غيرها قادرين على فهم زوجها، رغم ذلك شعرت بالغضب هي الأخرى أن قرينها يتعرض للإهانة أمامها. ولم تسأل بوتين وكانت ردة فعلها أنها قطعت زيارتها وعادت لبرلين.. أحياناً تحدث أشياء مؤسفة وأمام الملأ، وبالنسبة للناس الذين نحبهم فإننا لا نرضى لهم الإهانة أمام الآخرين حتى لو أننا درجنا على إهانتهم سراً أو جهراً.
أخبرت يواخيم بذلك، دون أن تثرثر بعدها بخصوص الموضوع. كان مساء ذلك اليوم قانياً، وكانت السياسة الدولية عاصفة بحروب في شتى بقاع الأرض. كان على المستشارة التركيز فيما هو أهم.

-2-

المكان: منزل من أربعة طوابق.. منطقة ألكسندر بلاس.. برلين
الزمان: مساء غير محدد من عام 2015

تتخيل ميركل أن كنوت هامسون، كان من الممكن أن يكون مقبولاً بشكل أفضل لولا أنه لوث تاريخه بدعم الهتلرية، وتتخيل بشكل أعمق أن أفضل سنوات نضجة تلك التي قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية، ربما يرجع السبب إلى إعجابها الشخصي بأمريكا. ما زالت تحن إليها كلما زارتها، تراها عالماً مختلفاً للانطلاق بعكس ألمانيا التي ظلت لعقود طويلة مغلقة على المستقبل. الألمان عنصريون جداً، وفي لحظات تاريخية ادّعوا أنهم خلاصة الجنس البشري، خرج منهم هذا النمساوي التائه ليدمر العالم ويهلك اليهود لا لشيء سوى الكراهية.

وحدها الكراهية تجعل الشعوب تتأخر. هل اكتشفت ذلك الآن، صحيح أن المجتمع تغير كثيراً في السنوات الأخيرة لكن أمامنا طريق طويل. قالت ذلك لرجالات الحزب، كانوا ينتظرون منها قراراً. صدر القرار، البعض رفضه طبعاً ولم يتكلموا، لا أحد يقارع المرأة الحديدية.

"سنفتح بلادنا لهم.. لن نتوقف عن استقبالهم"

كانت تعني آلاف اللاجئين الذين عطلت الدول الأوروبية الأخرى طريقهم، فكرت في إقامة السياجات الحديدية، أغلقت محطات القطارات، هددتهم بالموت في العراء من البرد. كان العالم يتداول صورا مأساوية، تحرك العواطف الإنسانية، في حين كانت ميركل تفكر في الوطن الأمريكي.

"لقد صنعوا بلادهم من تركيبة المهاجرين"

كان لها أفق بعيد.. بعض الجالسين في الصالة لا يعجبه الكلام، وقف أحدهم معارضاً ولكن تعالت الأصوات فسكت. توالى النقاش، في النهاية، مثل قاضي ضربت ميركل على الطاولة بمقبض خشبي كالذي يوجد في المحاكم، صمت الحضور.

تشعر الآن بالنعاس، يواخيم تأخر عن الحضور، ربما هو في الجامعة يحضّر لآخر نظرياته حول الكيمياء الجديدة، الذي يقول إنها سوف تغير العالم وسوف يحصل على نوبل في الكيمياء قصادها، كانت ميركل تمازحه:

"لو حصلت عليها فسأكون أنا السبب"

لم يكن يعلق وإن كان يغتاظ أحياناً، ويستمر في مراجعة أوراقه وملفاته، لا يزال رجلاً تقليدياً في هذه الأمور لم يتحرر من التعامل مع الأوراق يشعر بملمسها ويرى أنها تزوده بطاقة في رؤية القضايا الفلسفية بشكل أفضل. وبالنسبة لعلم الكيمياء فهو علم حسي في المقام الأول، حسية ذات طابع فلسفي. ينهي اليوم يلملم ما عنده من ملفات متبقية لم يدخلها في الدرج يحملها ويعود، تستقبله ميركل بنظرات باردة، وهي تنظر في وجهه تشعر كما لو أن في نظراته صورة لتلك الفتاة التي تطاردها من الأمس. ما الذي جاء بها من جديد؟! فكرت أن تسأله، فأحياناً لديه قدرة على فهم الأمور الغيبية وبعض الغموض في الكون.

"هناك فتاة سقطت مرة على المسرح.."

فهم يواخيم باقي الحكاية، لأن السيدة نست أنها سبق أن روت القصة نفسها في الأيام الأولى لحدوثها، وهو بذاكرة حديدية لا ينسى في الغالب. رد على ميركل:

"ربما لديك إحساس بذنب ما.. حققي في أمر إخراجها من المستشفى إذن"

"التحقيق تم فعلياً منذ شهور"

"وما النتيجة؟"

"لا شيء.. أعتقد ان الملف أغلق.. لم أتابع، هناك من تولى ذلك من مكتبي"

"حاولي أن تعرفي. أنا أعرف مدى قلقك باتجاه أمور تسيطر على دماغك وتبقى فيه مرات لسنين"

تضحك فهي تفهم أنه يعرف الكيمياء التي تكونها جيداً. انطوت على نفسها، تغطت باللحاف.. كانت تشعر برجفة غير مبررة. ربما خوف من مجهول لا معنى له. لا أحد يتخيل أن المستشارة يمكن أن تخاف، همست لنفسها في حين كان يواخيم قد أغلق باب مكتبه وبدأ في العمل إلى آخر الليل. كانت مرهقة جداً ونامت دون أن تنتبه إلى أن الأفكار التي كانت برأسها لم تحسم بعد، أكثر من موضوع متداخل.. اللاجئين.. رواية الجوع التي تحس بشغف أنها يجب أن تكملها، تشعر بأن فيها ما يمكن أن يقدم لها إجابات حول المعضلة التي تعيشها أوروبا اليوم. هذا التدفق الغريب لأناس الشرق الأوسط إلى القارة العجوز، يسمونها هكذا وما زالوا يرون فيها أرض الأحلام والمجد.

تذكرت سنوات من طفولتها كانت قد زارت الأماكن المقدسة في الشرق، في أورشليم مع والدتها وعادت بشغف للعودة وفي إحدى الزيارات لاحقا لإسرائيل انتباتها مشاعر بأن هذه الأرض عظيمة، ولهذا فإنها تستدر الحروب لا يمكن لها أن تعيش بهناء. إنهم في الواقع لا يتقاتلون من أجل النفط الذي بات كاسداً ولا الذهب ولا الشواطئ والموانئ العسكرية. إنه سحر الشرق وعبق المسيح الذي يشع في المكان إلى اليوم.

يا للبؤس، يتركون أرض الأرواح الخالدة لأرض الماديات، بظن أن الحكمة ولدت هنا.. قالت لنفسها ما بين اليقظة والنوم في حين ظلت الفتاة السورية تطاردها، وهي غير متأكدة من اسمها ولا جنسيتها، فقط تستعيد صورة مؤلمة لما جرى وهي ترسم بشأنها فكرة ما لا تعلم ما هي، تنوي أن تنفذها في الغد. تكون قد نامت مضت في عوالم الأحلام والكوابيس التي تطاردها بقوة هذه الأيام.

في النوم تتجول مجدداً في القدس القديمة، وتصلي كثيراً، تكون قد عادت هي، تلك الطفلة التي تشبه الفتاة السورية. تكتشف أنهما مركبتان من روح واحدة حتى عشق ليدي غاغا، كأنهما طفلة واحدة تناسخت لروحين. وترى نفسها أنها تلاعبها لعبة البوكر مع موسيقى هادئة تنبعث من مكان مجهول في المدينة القديمة. وراء الأسوار العتيقة والزمن.. ربما يخرج طيف لا يمكن التكهن بلونه، ووراءه دخان غريب أيضاً.. إنها أحلام لا قواعد لها.

-3-

المكان: أوسلو.. غرفة في شارع مظلم في الليل
الزمان: مساء غير محدد – سبعينات القرن التاسع عشر

كان كنوت هامسون يضرب على الآلة الكاتبة بقوة وهو يتضور جوعاً يحاول أن ينهي بأي شكل الورطة التي وقع فيها، هذه الرواية المجنونة، التي لا يعرف إن كان سيكون مصيرها النجاح أم الفشل. لكن عليه أن يُحضِّر كبطل رواياته مجموعة من المقالات يبعث بها للصحيفة حتى يعرف كيف يكمل الرواية، فالإنسان يريد طاقة على الأقل ليكون حياً، وفي حال كونه يكتب فإن الاحتياج يتضاعف كثيراً. يحاول أن يتذكر إن كان معه مال، ولكن لا شيء. لا شيء مطلقاً.
يبصق على البلاط القذر في الغرفة التي تركها لأكثر من شهر دون أن ينظفها أو يزيح شيء عن مكانه، أوساخ متراكمة، وعفن في المكان وفي جسد الرجل الذي منذ شهر أيضاً لم يستحم، بات هاجسه أن يكمل الرواية لا غير. يتحمل العفونة والأوجاع لجلوس طويل، فقد بدأ الظهر والرقبة يتعثمان شديداً. مع ذاته يحس أنه إنسان خيّر ويستحق أن يكون مقبولاً من قبل الرب، والناس لا تراه هكذا، فهاهي مؤجرة الغرفة امرأة وقحة لا تعرف الصبر تريد الحصول على المال فحسب، إنها يهودية شمطاء لا تعرف الإيمان الحقيقي ولم يدخل قلبها. مرة واجهها بالأمر فردت عليه لتلقنه درساً:
"الإيمان لا علاقة له بالحقوق يا هامسون. أنت شاب ويمكن أن تعمل"
"لكني أعمل وأكسب مالاً.."
تبتسم العجوز ابتسامة يظن أنها الأخيرة وبعضها ستكون شهقة الوداع، ليرث الغرفة، فلا أحد يعرف لهذه السيدة من قريب ولا معين سوى نفسها وأملاكها من عقارات متجاورة لا حصر لها.
"تعمل.. هاهي.. أتعني هذه المقالات التافهة التي تكتبها للجريدة..
ثم تكمل:
"لا أحد يقرأها.. لو كانت ذات قيمة حقة لدفعوا لك مالاً كثيراً ولكنت تعيش مثل أمير.."

يشعر بالغضب وعليه أن يسايرها لأجل ألا يطرد، إذ عليه أن يمازحها ويلاطفها ليمدد الأيام حتى يسدد الديون.. وهي لن تصبر، لو تطلب الأمر أي شيء ممكن سيقدمه لها حتى لو طلبت مضاجعتها رغم أنها قبيحة المنظر، غير أنها اجتازت على ما يبدو حد المرونة. تنظر إليه، كأنها تقول له ألا يفكر بشهوانية في عجوز عشقها في الحياة المال فحسب. يشعر بالجوع يداهمه، والأفكار تطارد رأسه، بطل روايته هو الآخر ينتظر أن يأكل.. عليه أن يشبع هو أولاً ليستطيع إطعام ذلك البطل التافه الذي لن يكون إلا هو.

يجلس في صالة مطعم قديم يطلب بعض النقانق.. لا يحب هذه الوجبة فقط لأنها الأرخص يكون عليه أن يرضى بها، يقف أمام البائع يخرج آخر ما تبقى معه من مبلغ مالي، يسدده ثم يغادر، لا يلتفت لصراخ الرجل أن المبلغ غير مكتمل، ثم يهرب منزوياً في الشارع المظلم، وعلى أي حال فسوف يعثرون عليه غدا فإلى أين سيهرب من هذا الجحيم. تحاول ميركل أن تفهم ما هي الأسباب المباشرة لتعلقها بهذا المشهد، وهل هو حقيقي أم لا، فالصفحات التي قرأتها تتحدث عن الجوع ولكن ليس بهذه الصورة. أسرعت لمراجعة الكتاب ولم تعثر على شيء. التزمت الصمت المطبق. السكون يخيم على البيت. يواخيم ليس موجوداً أين خرج في هذا الليل وعما يبحث، ربما يحاول أن يوصل لنتيجة جديدة بخصوص أبحاثه التي كلما قال إنها تطورت تعقدت من جديد.

بين اليقظة والأحلام والظنون الضالة، تعود صورة الفتاة من جديد. تشعر ميركل بمزيد من الرهق والحاجة لحل هذه المعضلة نهائيا، لابد من قرار بشأنها، ما السبب الذي يجعلها تطاردها هكذا. لابد من تفسير نفساني للأمر. أخذت سماعة الهاتف اتصلت هاتفيا بأحد المقربين لها من علماء النفس من زملاء الجامعة القدامى:

".. تقريباً هذه كل القصة.."

"..ليست الحالة معقدة سيدة ميركل. الوضع طبيعي جداً. لأننا للأسف إلى اليوم لا نفهم كيف تعمل أنفسنا ولا أدمغتنا.."

"إذن لا إجابة محددة.."

"الافتراض الوحيد أن ثمة إحساس بالذنب"

"هذا ما يقلقني.."

يمضي الليل في بطء.. في الصباح تصدر أوامر بالقبض على الطبيب المصري محمد عطا.. تم تقييده إلى المحقق الرئيسي في هامبورج وأخذ في سيارة سجون البوليس إلى برلين. كان القلق يسيطر على الموقف، والرجل لا يفهم ما هي قصته بالضبط، فقد أفرج عنه سابقاً. هل تمت إدانته الآن. قالت له فتاة رائعة الجمال في غرفة التحقيق:

"السيدة ميركل شخصياً مهتمة بأمرك وتطلب مقابلتك"

"لكنكم اعتقلتموني"

"هذا ليس اعتقالاً.. هذا تشريف لك سيد محمد"

"أنتم الألمان بتم تتعاملون مثلنا كعرب إذن.. تشريف واعتقالات وأوهام.."

يحاول أن يستعيد نظرياته حول الدماغ، وكيف اخترقت كل هذه الأحداث حياته ليتعطل فكره نهائيا في هذه اللحظات. رمى بصره بعيداً غير مهتم بشيء، سوى رندا هل ستكون بخير، يخشى أن يصيبها مكروه وهي وحدها مع طفلهم المرتقب. يعاين من خلال النافذة في الغرفة الصغيرة التي وضع فيها؛ ظلالاً لأيام طفولته وذكريات باهتة يحاول أن يجمعها الآن دون أن يدرك السبب، يمضي في التفكير البطيء كمن تم تخديره أو كمن يخضع لعملية جراحية معقدة، يكون قد فقد وعيه. يخال ذلك. ثم يكتشف أنه حي بل يعاين كل الأشياء بقوة، فقط باله مشوش.

تدخل امرأة ضخمة، إنها ميركل.. تقبض بشدة على يده، يحاول أن يزيحها يفشل، يخلط بين هذا المشهد والفيلم الأمريكي الذي رآه بالأمس في التلفزيون حول فتاة جميلة تطارد المجرمين والأشرار، يقف من على مقعده القصير، ينظر إلى وجه المراة بقوة، تسأله:

"أنت محمد إذن؟"

"نعم سيدتي.."

"أنت المسؤول عن حياة تلك الفتاة كان من الممكن.."

"لكنها سيدة ميركل حية ترزق.."

"أنا أتحدث عن الاحتمال والممكن"

"هل لي بسؤال.."

"لا وقت للأسئلة.. لدينا قضايا أهم"

خرجت السيدة، كانت قد أرخت أعصابها بهدوء وهي تتنفس بكثافة كمن خرج

من سجن أبدي، تعاين كل ما حولها من بشر وأشياء وأشجار ووقائع لا تعرف ماذا تفكر فيه بالضبط، سوى الإحساس بأنها قامت بتصفية تفاصيل قلقها الآن.. وقع الطبيب على محضر اللقاء.. وتم إلصاق مجموعة من بصماته التي أخذت بقوة، كانت يده لا تنفك بسهولة ولا يعرف هو السبب الذي يجعله يعجز عن فكها بعد طيها جراء ذلك السلام الحديدي.

* * *

أأنت المدينة التي رافقتني في الحل والترحال؟ وهل كنت أتقلب بمواجعي على شوارعك القذرة ذات مساءات غبية؟ هل حقاً أنني أعود إليك اليوم محمولاً على أحلام وطموحات جديدة؟! غير ما خرجت به قبل سنوات التيه الأرضي والعذابات.

تتغير الحياة، نتشرّد في بلاد الله الواسعة، لكننا نعود مأزومين ومطاردين بالذكريات وغربة الذات.

كم من الليالي عبرت؛ بهمس أو جنون، بنار أو نور، وأنت وحيد تعالج انكسارات زمان النزف، تحاول لملمة جراحك وأطرافك المبتورة.

تقلّب بصرك في الاتجاهات المجهولة، وراء الأشياء، والأمكنة. علك تجد موضعك، ذاتك.. لكن رحلة الغياب طالت بك، ودائماً ظلت الأقدار تطاردك من مطار إلى مطار، ومن جحيم إلى لعنة.

الآن.. أنت تجلس.. في ذات المقهى الصغير الذي جلست عليه قبل خمسة عشر عاماً، ربما أكثر بقليل من الشهور التي لا قيمة لحسبانها، إذ ليس بمقدور ذاكرة خربة أن تحدد بدقة كم من الزمن مضى بالضبط؟ أو كم تبقى من عمر استخفت به تصاريف العالم الحزين؟.

هو العالم حزين، لأنك حزين.. لأن جراحك لا تندمل، قواك خائرة، ومياه النيل الفوارة غير قادرة على الغوص بك إلى الأعماق البعيدة، حيث تصبح نسيا منسيا.

كل كائن بلا ذكريات ليس إلا قبر من قبور الدنيا.

كن صادقاً مع هذه الروح المتبلدة، وحدّثها قبل أن ترتشف القهوة الحبشية

بمذاقها الذي ظللت تنتظر العودة إليه طوال السنوات التي مضت.. قل للروح: "إنك مغامر فاشل، دون كيشوت القرن الجديد الذي أضاع أحلامه ورمى بها في مزبلة الحياة الجديدة".

هل كنت تدري أن كل ما حدث كان حقيقة؟.. أم أنك كعادتك تجرب الحلم والانتصار على خيالاتك المزيفة، المهزومة في معارك نسجتها الوحدة وانتهت هكذا، دونما أي تفاوض أو دماء؟

من حولك رائحة أخرى مختلفة للمكان الذي ألفك ولم تألفه، لكل مربع من مربعات البلاط الإنجليزي على رصيف الشارع القديم. لأصوات خبط الأرجل الحافية للصبية المتشردين، لم ينته تشردهم طوال خمسة عشر عاما، أصبحوا رجالاً وما زالوا في تشردهم. عبثت بهم سنوات الحروب ودوختهم، بعد أن انتهت الحرب كما يقال دون أي انتصارات مؤكدة لطرف معين، كل كان يطارد السراب، الوهم.

"يقولون أن البلد تغيّر يا صديقي؟"

لم يرد الرجل الذي يجلس قابلتك على ذات الطاولة، في نفس المقهى المشبع بروح الحنين.

لم يرد عليك، وأبداً لن يرد، فعيناه غائبتان وراء الأنوار البعيدة في سماوات أخرى، غير التي تعلونا. أهو هائم في ذاته، أم مُسبّحٌ في ملكوت الله العلي؟.. لماذا ضعضعت الأيام الحارقة، تحت شمس مرعبة، هذا الجسد القوي وحولته لشظايا متناثرة أمام رعب أنهار الزمن الجديد؟!

لا شيء يحمل خواصه القديمة، هذه قاعدة اكتشفتها للتوّ.. دون أي ذكاء كبير، ودون أن تفكّر كما كنت تفكّر من قبل. أما أن يتغير صديقك، فذاك ما لا تحتمله القواعد!!.

"كل شيء انهار.. لا أمل!"

قال مجذوب الذي غسلته الأحزان فحوّلته لعجوز بشعر أبيض وصلعة غزت الرأس، إلا قليلاً.. حتى أذناه الكبيرتان تراجعتا متضائلتين، غير قادرتين على سماع ترهات المدن الملعونة.

لساعة، ساعتين، كنتما تتحدثان.. أو تصمتان.. ليس بإمكانك أن تميّز المسافة

الفاصلة بين الأفكار والكلمات، حدود الماضي ومرايا الحاضر. ثمة جيوش من الاستياء والغرابة، وبحار من الحيرة وذرات من غبار الأحلام الحلوة؛ الأشياء جميعها تائهة داخلك.. ومجذوب غير قادر على أن يلخص حجم ما جرى في العالم الصغير، في البلد الكبير، في المدينة التي أصبحت وحيدة لا رب لها، تعالج توحدها بالفوضى والجنون. لا تسمع إلا أنات رجل وحيد يجلس إلى جوار رجل وحيد، كلاهما أعزب، كلاهما غائب في مهرجان ذاته المنهوبة.

أمام هذا المقهى، تحديداً في الساحة المحاطة بمحلات الأقباط واليهود من بائعي الأناتيك الساحرة، كانت الخرطوم قطعة من أوروبا. كان النظام يجعل للأشياء رونقاً، والشوارع جميلة، مزروعة الجوانب. كان المكان غائماً من أعلاه ومن أسفله، مبللاً برذاذ الأحلام. وفجأة، ذات نهار اختلفت الأشياء، وعبثت الفوضى بالنظام، لتقرر قرارك الذي ستندم عليه لاحقاً.. الهروب بعيداً عن هذا المستنقع الآثن بنبيذ لا يُسكر.

عادة الخيارات المريرة، أنها تترتب بعد قرارات متتالية، متعرجة، يكون أخرها هو المقصود، ولا يعني أنه الأصح أو الأفضل، إنه النقطة التي يتوقف عندها لهاث الروح، ويكون على الجسد أن يرتخي على كرسي الحياة.

جاء القرار.. أي دنت لحظة نقطة التلاشي.. لكن الجسد لم يرتخ. كنت قد لملمت بقايا أحلامك ودفنتها في كراسة المشيئة، تعزي الذات بحياة طويلة، قادمة بالتوقعات والآمال، فالحياة لم تبدأ بعد.

كان أن لملمت أوراقك وألوان الرسم من محابر وريش وألوان مائية وزيتية، وهوامش من الأفكار التي كنت تنوي تجسيدها إلى لوحات جديدة، تُعبّر فيها عن أمزجتك المتقلبة مع بوصلة المناخ القلق. ووقفت تتأمل اللوحة الأخيرة، لم تكتمل بعد. ملامح من وجه زعيم الحركة الشعبية، جون قرنق.. ربما حاجبيه الباهتين، أو دبابيره السوداء.. إذ أنك كنت ترسم بالفحم. ليس مهماً ما هي الملامح، إذ أنها واحدة، فالجنرالات هنا جميعهم من مواليد برج الجدي، مثابرون، قلقون، يحبون الشهرة، يتمتعون بالغرور المغلف، الأجوف، العمى، الحول.. كل الصفات الجميلة والقبيحة.. إنهم أنصاف آلهة أرضية لزمن غريب ومرعب نهايات حكاياته، مفتوحة للفراغ.

خمس سنوات وأنت ترسم، الجنرالات، ضباط الجيش الذين يخربون البلد بانقلابات عسكرية خرقاء.. الزعماء العرب والأفارقة.. زعماء ثوريون أو يدعون ذلك!!.. ترسمهم وتبيعهم في سوق (الله أكبر).. لا أحد يرضى بالسعر، يساومون لا يقدرون الموهبة ولا التعب، والبعض يمارس الصلف باسم المنصب أو الوظيفة أو الضريبة التي يمكن أن يفرضها على رسام لا يحترم القوانين ولا يدفع للحكومة ثمن المساحة التي يجلس عليها في الشارع العام. كانت لكل لوحة مساومة وحكاية، ومع الأحداث ترتفع المراهنات وتظل أنت فقيرا، لأن الفن لا يؤكل خبزا، يطاردك الجوع. لا أحد قدر موهبتك إلا ذلك الصحفي الأمريكي الذي جاء وذهب، ولم يعد له حس ولا خبر.

المساومون أغلبهم ثلة من الشباب، كانت أحلامهم معلقة بحلم القارة السمراء، بعضهم انخدع وبعضهم كان يخدع نفسه، وكثير منهم نسي ماضي الثرثرة، وانطوى مع شؤون المعاش باحثاً عمّا يحيى به الإنسان، الخبز. طاردوا الخبز وتركوه وراء ظهورهم، هم تركوا العقائد وآمالهم، فما بالك بالخبز. نسوا حلمهم مانديلا، وضربوا بنموذج جنوب أفريقيا عرض الحائط، ليس من أمل للتعايش بين البيض والسود، قالها (سيمون) ذات يوم بالنيابة عنهم.

ومضى الزمن.. لتجد أنك في شوارع القاهرة تقف مع عشرات، بل مئات من بني جيلك، لاحقاً ألوف.. طوابير أمام مفوضية اللاجئين، يحلمون بالهجرة إلى بلاد العم سام، بعد أن استبدلوا قراراتهم القديمة، فبعد أن كانوا يتوسدون (الحرب والسلام) لتولستوي، وروايات تشيخوف، وأضعف الإيمان جنكيز إيتماتوف وهو يودع حصانه غولساري. بعد كل ذلك، أصبحت قلوبهم معلقة على أجراس همنغواي ينتظرون أن تقرع تلك الأجراس الصدئة، تجرّ أرنست همنغواي على مواجهة الموت من جديد بمقاومة الحياة رفضا لا قبولا. أما هم فكانوا جبناء، غير قادرين على الحياة أو الموت، كانوا يترنحون في سراديب مجهول غامض.

كنت واحداً من هؤلاء الذين اصطفوا في الطابور، في صباح مربك، تنتظر مجيء مبعوثة العون الإنساني التي ستحكم على حالة كل من يقف أمامها: هل يستحق اللجوء السياسي أم لا؟.

"أنت يا عيسى فنان.. وأفضل مكان للفنان لكي ينجح أن يغامر في بلده"
"سأرسم للأمريكيين جراح بلدي"
"هذه هراء.. أنت لا تعرف كيف يفكر الأمريكي بعد، فكيف تضع أحكاماً مسبقة؟!"
"لقد قرأت كثيراً.. كثيراً جداً عن أمريكا"
"الكتب شيء.. والواقع شيء آخر"
"ثقي بما شاهدته في أفلام هوليوود"
"أفلام"
تضحك.. لا تعلق.
"عليك الله.. أنا لا أحتمل العودة مرة أخرى"
"قل هذا من أول الأمر"
وقعت نانسي على الأوراق، وحملتها أجري بها في شوارع القاهرة، كأنني لست أنا، أحمل روحي مطارداً أزمنة متفاوتة. لم أكن محتاجاً لكي أفكر كثيراً، فقط عليّ أن استسلم للحظات نادرة، لن تكررها الحياة البائسة.
وقبل أن أنام مع زملائي في شقة استوعبت عشرين من المتبطلين في انتظار حلم الهجرة، كنت قد سرحت بخواطري بعيداً، أن الحياة ستبدأ الآن.. الآن.. لا غير.

* * *

سابعاً

الكاهن التركوازي

"..التركواز لون يعبر عن الذكاء والفطنة، فتتميز حواء العاشقة للون التركواز بالمهارة في التواصل مع الآخرين.."

من نظريات علم النفس والألوان

-1-

المكان: إيطاليا... روما.. مقهى ليلي
الزمان: تاريخ غير محدد 2015

يأخذ الشاب الإريتري طريقه إلى داخل المقهى في انتظار زعيم الطائفة الذي سوف يصل بعد قليل، والذي وعده بأن يجعل مستقبله أكثر سعادة. الشاب سبق له أن قابل أناس مدعين وكذابين أمثال العم أكس يتضح في النهاية أنهم تجار وطالبي دنيا، هل سيكون الكاهن "موسى حفتون" من هذا النوع أم هو إنسان آخر وصادق؟!
تمتلكه الحيرة ويعرف أن الإجابة معلقة على رؤية الرجل، وربما لا يمكن تحديد كل شيء منذ البداية، إذ يتطلب الوصول للحقيقة وقتاً طويلاً في عالم يخضع للتضليل.
يصل الكاهن بزيه التركوازي المميز، سبق له أن رآه به وهو يلقي محاضرة قبل سنوات في أسمرا، كان ثمة فرصة للكلام معه وقتذاك لكن الناس أحاطت بموسى ولم يتركوا له أن يصافح على الأقل الرجل. الآن يتحقق حلمه هاهما يجلسان وجها لوجه، في ما يشبه الحلم أن ينجح ذات يوم في حياته من رؤية الخيالات وهي تصبح واقعاً.
"أنا سعيد جداً سيد موسى"
قالها بأدب وخجل غير معتاد لم يألفه في شخصيته.
أخذ عمامته الحمراء قدمها للكاهن قائلاً:
"قالوا لي يوم تجد الشخص المناسب يمكن أن تهديها له. لا أعتقد أن ثمة أحد أهم منك بالنسبة لي الآن"
وضع موسى العمامة جانباً، ابتسم بطريقة غير محددة أو مفهومة، ليس للشاب إدريس أن يفهم بالضبط. وظل ينتظر أن يسمع كلمة شكر ولم يسمعها، وبدأ يخيب ظنونه باتجاه الزعيم الذي طالما حلم بلقائه، هل يعجز أن يشكره. ومن ثم أزاح الخواطر السيئة وهو يرهف أذنيه لالتقاط عبارات الكاهن التي تخرج بصوت هامس يتطلب جهداً كبيراً لفرز الكلمات.
يحاول بين الاجتهاد الشديد لفرز العبارات أن يقارن بين مالكوم وموسى، يبدو له الأول أكثر بهاء حتى لو أنه كان مجرماً. الآن مع اللقاء تبدأ إذن المفارقات في

التكشف وأن الإنسان يجب أن يختبر الأمور عن قرب لكي يفهمها بدقة. كان موسى ذكياً كعادة كل الناس الذين تكون لديهم قدرات معينة في الهيمنة على عقول الآخرين، سمعه إدريس يتكلم بصوت مرتفع:

"أتظن أنني أستحق عمامة جدتك؟"

"آوه.. كيف عرفت أنها من جدتي؟"

"نحن من بلد واحد ونفهم كيف تقوم هذه الطقوس.. منذ أزمنة بعيدة وبمجرد أن يرغب الشاب في السفر لأجل الرزق، تقوم جدته بإهدائه العمامة الحمراء"

لم يكن إدريس يعلم بذلك الطقس، هي إذن المرة الأولى التي يتعرف فيها على ذلك. قام النادل بوضع كأسين من العرق أمامها، لم يميز الشاب إدريس النوع بالضبط، واعتذر للكاهن بأنه لا يشرب. ضحك الرجل وهو يقدم له الكأس قائلاً:

"إذا لم تجرب لذة الشراب لن تفلح في أن تكون إنساناً"

لقد نشأ إدريس في بيئة مغلقة نوعاً ما، لم يكن له أن يخترق القيم والمواثيق العائلية، وكان غريباً له أن يقوم بشرب الخمر. ولم يسترسل في تأمل الموضوع، سمع موسى يكلمه:

" قليله لا يضر فهو ينفع القلوب"

تناول إدريس الكأس وسكبها في فمه دفعة واحدة إذ لم يكن عليما بطقوس الشراب، وشعر بشيء حارق في جوفه ثم تجشأ بقوة. بعد دقائق أحس برغبة في أن يشرب المزيد، وبدأ الكاهن يعبئ كأس الفتى من فترة لأخرى حتى سكر تماماً. وتركه وحيداً ثم هرب عنه. أيقظت إحدى النادلات الجميلات جداً الشاب إدريس، كان كمن نهض من قبر رائع وسط مقهى أو بار ليلي، اكتشف أنه في الأرض التي كان يحلم بأن يصل إليها لكنه تعرض لخديعة فعلية إذ أن الكاهن سرق ما معه من مال وأفكار، تعرف على تفاصيل من حياته ورحلته ما كان ليحصل عليها بأي ثمن. فبالنسبة لإدريس فالأسرار أهم من المال، هذه أحد الأمور التي تربى عليها.

عندما لامسته يد النادلة، فتح عينيه ثم تذكر أنه موجود في هذا الكون، في هذه الأرض اللعينة، المهم أنه ليس في البلاد التعسة جداً. ليس معه ما يوصله لأي مكان سوى أن يطلب المساعدة. قال بتثاقل للصبية الرائعة أو هكذا رآها بين خلسات السكر:

"هل يمكن أن تساعديني؟"

دققت فيه، يبدو لطيفاً رغم وضعه السيء مع الشراب، ولأنها خبيرة بهذا الأمور جداً فلديها تاريخ عميق مع السكارى فقد علمت أنها المرة الأولى وقد تكون الثانية التي يجرب فيها هذا الشيء. ولم يكن مستغرباً لها ذلك ففي السنوات الأخيرة تحدث مثل هذه التداعيات مع اللاجئين كثيراً هؤلاء الذين بدأوا في تغيير تاريخ الشراب في المدينة. أمسكت بيده قادته إلى الباب الخارجي، نادت على رجل كان يقف ليس بعيداً أن يسلمه لرجال البوليس.

-2-

المكان: درسدن شرقي ألمانيا
الزمان: ربيع 2015

فهم إدريس أنه خضع لتنويم مغناطيسي من قبل الكاهن، فالشراب وحده ليس كافياً لكي يقع في ما حدث معه، كانت تلك الفكرة قد قالت بها الشرطية الشابة، أخبرته بذلك وهي تصدر أمراً بإطلاق سراحه على أن يلحق بمجموعة من اللاجئين الذين يتم ترحيلهم إلى دول أخرى، ولم تقرر الدولة بعد، لم يكن لإيطاليا أن تتحمل الجميع وثمة اتفاق مع دول الجوار أن تتقاسم الحصص.

كان إدريس يفكر في خدعة اللون التركواز الذي كان الكاهن يلبسه، وأن المظاهر خادعة كما يقولون، وخاف أن يروي قصته لبقية الشباب القادمين من بلاده فربما أصابه مكروه فالجميع يتكلم عن الكاهن موسى بضمير كبير وأنه منقذ الآلاف من الذين فقدوا الأمل. عليه أن ينتظر ربما يفهم شيئاً مختلفاً ذات يوم، وإن كان يشك أن ذلك اليوم سوف لن يأتي أبداً.

تم ترحيل إدريس مع آخرين؛ مر بمتاعب كثيرة وقصص وبقي سر الرجل التركوازي إلى حين قتل إدريس في مدينة درسن الألمانية في حادث غامض، ولم تكن تلك الجريمة الأولى بحق لاجئ اريتري. كان الثاني الذي وجد يحوم حول بركة دم قريباً من سكن مجموعة من الشباب القادمين من أفريقيا، ورغم التحقيقات التي أجرتها الشرطة الألمانية إلا أن الحادث لم يكشف عنه، ثمة أقاويل غير مؤكدة عن دور غير مرئي للكاهن التركوازي الذي حضر جنازة الفتى الاريتري وأشرف على دفنه والتقاط الصور لوسائل الإعلام. كان ذلك جزءاً من العمل الذي يقوم به ليروج لنفسه من أجل الحصول على تقدير في الغرب.

تحدث الكاهن حفتون مع المحققة الألمانية باهية الجمال، كان عاشقاً للنساء بشكل غير معلن، أخبرته:

"خلال أيام سوف يكون ملفه مع السلطات في بلده"

رد عليها غاضباً:
"هم لم يهتموا به حياً فكيف سوف يهتمون به الآن؟"
قالت دون أي اعتبار لهوية الكاهن:
"نحن نتعامل مع جهة رسمية، سفارة لبلده؛ ما لم تصلنا تعليمات معاكسة"
بدا الغضب على الكاهن، أمسك بطرف ثوبه المجرجر بالأرض، كان اللون التركوازي يهيمن على الأجواء، لا أحد فكر بسوى ذلك الثوب المريب والكبير جداً، والذي يكفي لغطاء عشرة رجال على الأقل. كان الكاهن يبدو ممثلاً أكثر من كونه صاحب قضية كما أشار بعض الحضور، لكن لا أحد يملك دليلاً، فمحاضرات الرجل في مباني الأمم المتحدة بجنيف عن حقوق الإنسان وقضايا اللاجئين تشفع له، وسجله إلى الآن ناصع وجميل، كما كتبت صحفية ألمانية مشيدة بحضوره جنازة إدريس، لا أحد كان قد اقترب من ذلك اللقاء الغامض في ليل روما.
حملوا الجنازة ولفوها بالورد والياسمين بالتحديد، ومضى إدريس إلى مثواه الأخير، كان بعض الشباب الإريتريين من الواقفين بالوداع الأخير لزميلهم، غير قادرين على الإمساك بدموعهم التي انهمرت قوية، كانوا يبكون ذكرياتهم وآمالهم، مرات يبكي الإنسان لأجله وليس لأجل الآخرين.
في ملف ظل طي الكتمان لدى محقق المدينة الألمانية الشرقية، كتب بعبارة غامضة:
"ثمة إشارة أن جهة ما خارجية هي التي استقصدته ليس هو إلا لافتة لما وراءه".
كان المحققون يتناقشون دون أن يمروا على ذكر الكاهن موسى، لا أحد شك فيه، وليس لأحد طبعاً أن يثبت تورطه. أما تلك النادلة فقد رأت صورة إدريس في الصحف الإيطالية فتذكرته، قائلة دون أن يسمعها أحد... "يا للهول"، وبعد أيام كان الكاهن في المكان نفسه، كانت النادلة تعيد النظر فيه وهي تتذكر الشاب الذي كان يجلس معه، وهذه المرة كان ثمة شاب آخر أكثر بهاء من ذلك الأول، كانت نظرات الرجل التركوازي مريبة وغامضة، وخافت النادلة لشيء ما لا يمكن فهمه بالعقل الواعي، فهناك أمور لا يمكن لنا أن نفكر فيها بالعقل المباشر إلا من خلال ما وراء الوعي، هي تفهم ذلك لأنها سبق أن تلقت كورسات في علم النفس والإيحاء مع متدربين آخرين ضمن برنامج لترقية النادلين وجعلهم يساعدون في حل المشاكل التي تحدث ليلا في بعض البارات بسبب السكارى المشاكسين.

خرج الكاهن يجرجر ثوبه المميز، كان الجميع يبادلونه الابتسام فالرجل معلوم في أجهزة التلفزة، كان يمد يديه بتحية نصفية مختزلة وهو يرمي إلى الأفق البعيد أمامه، يفكر في ضحيته القادم من يكون؟

-3-

المكان: درسدن شرقي ألمانيا
الزمان: شتاء 2015

مجموعة من الشباب الأفارقة يتحلقون في غرفة صغيرة يلعبون الورق، يكاد إدريس قد أصبح نسياً منسياً، عندما يورد التلفزيون نبأ مقتل شاب اريتري آخر هذه المرة في فرنسا. هل يكون ضحية جديدة للكاهن التركوازي؟ لا أحد يمكن أن يفكر بهذا الشكل، ليس لأصابع الإتهام أن تمتد لرجل مجهول مثل دراكولا، ولا أحد في خاطره أن يربط بين الأحداث. كثير من أمور الغيب تبقى غيبا إلى الأبد، الحاجة إلى العدالة في هذا العالم تظل قلقاً مثيراً لا يمكن أن يحدث في أكثر الأحيان، كان مريود يفكر بهذا الشكل، وهو الشاب السوداني الذي كاد أن يكون أحد الضحايا، وعليه أن يكتم السر إلى النهاية، ألا يفصح عن التجربة القاسية التي مر بها إلى أن وصل هذا المعسكر المؤقت للاجئين.

اسمه الحقيقي ليس مريود، والشباب يلقبونه بذلك اللقب تيمناً ببطل الطيب صالح في إحدى رواياته.. ففي ساعات الضيق والملل الطويل، حيث يمكن للملل مثلا أن يكون له خواص الأشياء المقاسة بالطول والحجم، يقرأ الشباب روايات يتسلون بها، بعضهم يجيد القراءة بالعربية وثمة من بدأ في تهجيء اللغة الألمانية.. كان الوقت يمضي بطيئا نوعا ما.. كان الشاب واسمه بحر عاشقاً لرواية "مريود"، قرأها عشرات المرات في أيام وجيزة، وبات يحلم بها. وألقى مرة محاضرة عنها للشباب. فبين ساحات لعب الورق يمكن أن يكون للثقافة وجود. يكلمهم عن فكرة الحب وعن أن الأسطورة يمكن أن يكون لها وجود في واقعنا لا خيالنا فحسب، ثم يضع الكتاب جانباً، يعيد صورة ذلك المقهى الليلي المغسول بالأمطار، عندما دخله والرجل التركوازي.

الطقوس نفسها تعاد في كل مرة، يفقد الشاب ما معه من مال سواء كان كثيراً أم قليلاً، القيمة ليست مهمة. يكون الحصول على المال جزءاً من لعبة لا أحد فهمها بالضبط. هل هناك جهات تتواطأ مع الكاهن في جرائمه، يفكر مريود بهذا الشكل، يتذكر التحذيرات التي جاءته من جهة غير محددة، كانت ورقة مكتوبة وضعت على

الطاولة قرأها وهو يستيقظ من الشراب.. ولأنه مجرب للعرق منذ صباه ربما طفولته، فليس للكؤوس التي شربها أن تسكره أبداً.. هناك أمر ما يجري في الخفاء، في كوابيس الغيب، إنها حبكة سرية لا يعلم ما هي بالضبط. ولم يكن له أن يفكر فيها إلا بعد أن تذكر الورقة بعد مضي شهر، عندما كان قد روى خيوطاً من القصة لأحد الرفاق السودانيين.

الآن يمضي الوقت ببطء. لكن ثمة حذر وخوف حتى وهو يحاول أن يتناسى بقراءة مريود، يمكن للأدب أن ينسي الألم لكنه لا يقتله إلى الأبد، ويفكر أنه لو كان يعرف أن يكتب جيداً لكتب قصته للعالم، هل ستكون قصة فريدة، ثم يكلم نفسه أنه لا يستطيع أن يقول الأشياء الواجبة والمهمة. مرات تفقد القصص والحكايات مغزاها بمجرد أن تمضي في أمور غير مهمة، عندما تحوم في الحواشي وليس في المتون المفترض أنها تشكل الحبكة الأساسية، كثير من القصص تفشل لهذا السبب لأن الكاتب لا يقبض على الهيكل المفترض الذي يشبع خياله.

يفهم في تلك التكنيكات، له ذخيرة لا بأس بها من ناحية الأفكار، غير أن الكتابة شيء آخر. يخرج إلى الشارع يشتري باكيت سجائر، الدافيدوف الألماني الذي اكتشفه بديلاً عن المارلبورو الأمريكي والبرنجي السوداني، السجائر ليست بطعم واحد كما البشر، يعرف أن صدره يضيق غير أنه لابد له أن يدخن حتى يتعايش مع الأزمة النفسية التي يمر بها، وحده يعرف ذلك، قبل أيام عندما عرض على الطبيب ضمن الكشف الدوري للاجئين، بدأ قوياً، يعرف كيف يظهر شكلياً بشدة مبالغ فيها، غير أن الطبيب الألماني كان ذكياً، قال له:

"ثمة شرخ في صدرك.."

كان الطبيب يتحدث عن مسألة نفسية، وفي البداية ظن مريود أن الأمر متعلق بالتدخين، غير أنه أيضاً وجّه له نصيحة بأن يقلل من التدخين بعد أن وضع السماعة جانباً. كانت نظراته مريبة خاصة أن لياقة قميصه الطي الأبيض كانت تركوازية، وهذا يشعر بالخوف. أخذ الباكيت من البائع التركي في البقالة، هو من المهاجرين القدامى، قدم له قبل يومين نصيحة بأن يبحث عن عمل سريعاً، لأن ذلك سوف يساعده في أن يكون في وضع أفضل فالانتظار فقط في المعسكر لن يفيده.. الرجل رغم سنوات طويلة مضت ما زال تركيّاً لم يغير جنسيته، لم يصبح ألمانياً، كان فخوراً بقوميته كما فهم مريود.

لكن بحر لا يفكر بسوى ذلك القلق الذي يطل من مرة لأخرى، إلى أن وقع صريعاً في مساء شتوي، لكنه لم يمت مقتولاً كما يمكن أن يتوقع له، مات بذبحة صدرية مفاجئة.. قال الطبيب نفسه لزملائه:

"التدخين هو السبب. سبق أن حذرته"

كان الطبيب يغالط ذاته فهو يعلم حق العلم أن السبب وراء موت مريود يتعلق بحالة نفسية مستعصية يصعب تفسيرها أو شرحها، هو نوع من الأمراض العصابية الجديدة التي تؤدي لانهيار نفسي تام وفي النهاية تضرب بقوة في القلب، كان صعب عليه أن يشرح ذلك لرفاق مريود، خاصة أن هذه الأمراض حديثة التكوين لا تزال في طور الأبحاث لم تخرج من المعامل بعد، وهي إلى حد ما متعلقة بالجيل الجديد من المهاجرين، ثمة علوم كاملة الآن تنشأ في المستشفيات الجامعية في ألمانيا ودول أخرى تدور في هذا المجال الذي صار يستهوي الكثير من الأطباء، يرون فيه المستقبل والشهرة والمال.

دون الطبيب الألماني على مفكرته في الحاسوب الشخصي ماركة آبل بعض المعلومات التي سوف تعينه في تشريح أكثر للحالة وإفادة فرق العمل التي ينتمي له حول المرض، كان ينظر إلى فرضيات معينة يظن أنها سوف تكون مفيدة في المستقبل القريب وأن مريود سيكون قطرة في محيط حالات أخرى قد يفرضها الزمن مع هذه التغيرات التي يمكن أن يخضع لها الفرد بمجرد تعلق الأمل بالغيب والنوستالجيا وقلق وجودي لا يمكن تفسيره أبداً.

هؤلاء الشباب يقطعون البحار والفيافي، يأتون لأجل عالم جديد وحياة مختلفة، يصابون بالإحباط مرات وأحياناً يكونون مفعمين بالآمال العريضة، ثم قد يسقط كل شيء فجأة وتكون المواجهة العسيرة مع الحقائق المؤلمة. يضحك الطبيب بلا مبرر وهو يضع قبعته على الطاولة كاشفاً عن صلعة محاطة بشعر أبيض من الجانبين، يتنفس هواء بارداً من مكيف الهواء الذي يسرع لإيقافه، في انتظار الزبون القادم، قبل أن يشعل سيجارته هو الآخر، هو مطمئن أنه ليس لاجئاً ليموت بأي من الأمراض حديثة الاكتشاف.

-4-

المكان: إيطاليا... البندقية
الزمان: صباح.. شتاء 2015

يستطيع الكاهن موسى أن يتذكر كيف أن حياته مضت سريعاً في السنوات الأخيرة، وهو لا يعرف ما هو المصير الذي ينتظره في عالم لا يمكن التكهن فيه بالمقبل. ينتابه مرات بعض القلق، يقاومه بالصلاة العميقة التي يخدع بها الرب، فهو يعلم أن الله يراه ويطلع على خبثه وفعائله، المهم أن البشر لا ترى ولا تعلم، يسلي نفسه بذلك ثم ينظر إلى البحر الأزرق، الأبيض المتوسط، يرمي إلى مراقبة شيء مجهول في ذاته من خلال مراقبة حركة الموج الهادئ هذا الصباح.

كل الضحايا تقريباً لا يعلم عنهم الرب شيئاً، لأن الرب غير موجود في الأساس إلا في قلوبنا وعقولنا، وعليه أن لا يقول ذلك بصوت مسموع، يعيش من جديد حالة القلق الخفي ثم يتمشى علّه يكسر روتين التفكير المعتاد في أمور باتت بالنسبة له عادية جداً مع السنين القاحلة، حياته التي يعلم حق العلم أنها خاوية، لا عروش لها إلا في التيه والبحث عن أمور ليس لها من معنى سوف النزق، الإحساس بالتفوق الذي ظل يبحث عنه طوال عمره وهو على أعتاب عامه السادس والخمسين في الحياة.

في السنين البعيدة كان مقاتلاً في جيش التحرير الإريتري، كان أحد رفاق الشباب الذين صنعوا الوطن الجديد وفي النهاية تبددت الأحلام تحول الأوفياء والأبطال والثوار إلى لصوص ومجرمين، دائماً ما تتبدد الأحلام وتموت وتفنى في المجهول، كلنا نمارس لعبة غير مفهومة النهايات ضد كائن عجيب اسمه القدر، كان يسمونه براهب الرهبان، وكان ثمة شائعات أنه قادر على شفاء مرضى الجنود والمتقرحين، رجالاً ونساء.

كان يضع يده على فتاة مغتصبة من جندي متهور فقد عقله بسبب رصاصة كادت أن تقتله، فيشفي جراح هذه الفتاة لتعود صحيحة، يعني جراحها النفسية، يعلم الآن أن اعتقادنا بالآخرين يحقق لنا الصفاء النفسي وليس حقيقة ما نقوم به من عمل أو أفعال.. أن جدوى الشفاء متعلقة باليقين الكافي الذي يقطن في قلب الباحث عن

محو العلة. وضعوه في مراتب عليا، وحملوه فوق طاقته، صار الكاهن الأول والمبجل، رجل الجيش المنتصر والفاتح. وتحقق حلم الوطن المستقبل، ثم صارت الأيام الميتة كما يسميها التي جعلته بمضي الحياة إلى مظنتها المجهولة يقرر أن يكون ذاته المنهوبة. يختصر تفاصيل الزمن وترحله البطيء، يحاول أن يعيد صورته طفلاً لا يستطيع، ليس أمامه إلا صورة الرجل التركوازي يقف أمام البحر، يفكر في الضحية التالية؛ هذا العنف الغريب الذي يعشعش في دواخله، يعلم به ولا يقدر على مقاومته، يركل قدميه بقوة مزيحاً الثوب الفضفاض، ثم يدخل إلى أحد البارات ليشرب كثيراً جداً في الصباح، لا أحد هنا هذه المرة، كان يعلم بهوية الجالس في هذا المكان، ويبدو ذلك غريباً.. ما لم ندرك أن التركواز لون مضلل ويساعد على التخفي أحياناً.

يشاهد على شاشة التلفزيون أمامه في البار القصة الإخبارية المحبوكة بمشيئة الإعلام ونزواته هو الآخر، عن الشاب الذي قتل في فرنسا، يعاين كل شيء وهو لا يرى إلا الحقيقة من وجه واحد، تلك القصة الأخرى التي لا تروي سوى الزيف، إنهم يضللون العالم. جيوش من المصورين والصحفيين ووراءهم المبتزون وتجار المخدرات والمافيات واللاجئون. هل كان هو واحداً منهم؟

يهز رأسه بقوة كمن يعيش غيبوبه اسمها الحياة، يحن إلى بلده، إلى رائحة الساحل في مصوع إلى كسلا في السودان وإلى أرومة والقاش والنهر الفياض، إلى أن يرى من بعيد.. من وراء السنوات.. تلك الليلة التي قرر فيها الهرب من أسمرا إلى كسلا، يوم وجه طعنة بخنجره الصغير إلى ذلك الشاب الذي حاول مقاومته وهو يواجهه بزيفه:

"لن تكون إلا ذلك الرجل المحتال والكاذب والأناني"

"أسكت أيها الـ... إخرس"

يمد يده يطعنه مرة ومرتين.. يجز رأسه ثم ينظر إلى الدم متدفقاً، في قضية سجلت باسم مجهول، هل يا ترى يعلمون أم لا؟ حدث نفسه أنه كان من الممكن أن يقدم دفاعات عن ذاته وعن موقفه وأن النظام كان من الممكن أن يحميه، فالرفاق لا يضحون بالأحباء.. لا يمكن لهم أن يجعلوه يضيع في زخم الموت المجاني، "المهم أن تكون بطلاً في أعيننا"، طالما سمع هذه العبارة وكبر عليها.

إلى اليوم لم يفقد شهوة القتل والموت، يجري اتصالاً هاتفياً بأحد أعوانه من رقم مزيف سيكون عليه أن يتخلص منه، يستبدل يومياً الهواتف والشرائح.. ويلبس هويته

الملتبسة.. يتأكد من أمور كانت تشعره بالخوف من الغد، هذه الهواجس التي هي شيمة المقبلين على الحياة بقوة، لهم شغف الوجود الأبدي لا يهمهم إلا أين سيكونون في الصباح المقبل.

عندما شاهد صورة الشاب الإريتري إدريس وهو مضرج بالدماء، لم يحس بأي شيء غريب، كان قد تعود على الصور، تثيره ككائن يتعطش لمزيد من الضحايا والمال، لتلبية غموض يسكنه، أن يرى الفوضى تحدث من حوله ولا أحد سواه يتسلى بها، ألم يسمي نفسه دراكولا الجميل، التركوازي القاسي. وهو سعيد أن لا أحد يقترب منه، إلا بالتبجيل الرائع، الخطابات المدبجة في الهيئات الأممية، اللقاءات مع وزراء ومستشارين وعباقرة من زمرة العالم الأول، أناس متفوقين يشار إليهم على أنهم صناع المستقبل والذين يناط بهم صناعة حياة أفضل للإنسانية. هل يكونون مثله بهذا السر العميق؟ ليس لديه إجابة سوى أن يسكب المزيد من الكؤوس وهو يعاين لوحة في الجدار لفان كوخ.. انها اللوحة الشهرية الخشخاش، يخرج منها رجل له ملامح دراكولا.. رجل أسمر وفارع الطول وبهي الطلة، قادر على الإغواء ولا يعرف الهزائم.

وراء الخشخاش يقهقه طويلاً ذلك الرجل الطويل، يرى على الشاشة من بعيد مسيرة لحركة "بيغيدا" في واحدة من المدن، هي درسدن معقلهم بلا شك. لا يهتم بالمشهد كثيراً.. يخال أنه يرى خلفهم جيش من الشباب المجندين في الهضاب البعيدة وراء كسلا وجبالها وهم يجرون أنفسهم بصعوبة ماشين لمسافات طويلة، أرهقوا من عناء تكاليف الجيش البليدة التي لا تنتهي، يعانون القسوة حتى على أنفسهم يحلمون برائحة الأنثى والنعمة ولا يجدون سوى شمس صباحية حارقة تقصف بهم في جحيم المقبل من التيه والعذابات.

إدريس كانت له قصة، رواها له، يعيدها الآن كحكاية مستلة من كتاب مسل، لا يعرف مدى دقتها، لم يعد يثق في كثير من القصص المروية.. الناس تطور قصصها وحكاياتها تمزجها بالوهم والخيالات لتصبح أبطالاً في المجهول، كل كائن يمجد نفسه ليصبح البطل القوي والمغامر والشجاع، هو الوحيد المتأكد من ضعف البشر، من قدرته على الدخول إلى المساحات المتدثرة فيهم ليواجههم بضعفهم وهناتهم ويقول لهم، كفى، ثم يجرهم إلى متعه الخاصة وهواه ليحقق مبتغاه، ما يحقق له السرور في هذا العالم.

يروي إدريس قصة مزيفة إذن، وهو يحتسي الكأس الأول فالثاني، يرى رأسه تهتز وثمة لوحات أخرى غير الخشخاش المنوم والقاتل، يراها كأنه أمامه الآن. ثم يسأله أن يكمل باقي ما جرى. في حين تتدفق صورته في هذه الهنيهة مع لون الدم القاني، وصوت المذيع الغبي يسأل في قناة "موبو 24" التلفزيونية، وهو يهتز ببدنه الضخم وكرافته غير دقيقة الإحكام.. متكلما كمن أدرك كل الغيب.. "لا شيء يدل على العنف.. لا شيء يدل على الانتحار.." لا يسمع باقي الكلام، يدرك عمق هذه الترهات جيداً.

* * *

كان من الممكن أن تبدأ الحياة، لكن الأشياء تسلك دروبها الخاصة والغامضة. بإمكان المرء أن يفكّر، يحلم، ويخطط، لكن عصابة الأقدار وحدها تقرر في النهاية، ما الذي ينبغي أن يكون..

كنت تكلم روحك الميتة، وأنت تتحسس ذكريات الأمس في ملمس الحقيبة التي تحملها بيدك اليسرى.. ورأيت أن الحبر الأسود قد اندلق داخلها فأثار رائحة نفاذة ملأت فراغ الغرفة، لم تكتف الرائحة بالاختباء في جسم الحقيبة السوداء.

في الصباح التالي قابلت نانسي مجدداً. أخبرتك بما ينبغي أن تكمله من أوراق وإجراءات: البصمات، الكشف الطبي، سجل المحاكم الجنائية، سجل السجون، شهادة الميلاد الحقيقية، لكنك من مواليد الأول من يناير ككل سوداني.. السودانيون جميعهم ولدوا في الأول من يناير.

"عفواً سيدة نانسي.. لقد ارتكبت جريمة صغيرة في حياتي"

كلمتها بهمس.. سمعتني وقالت بحزن:

"آوه هـ !!..."

كان عليّ أن انتظر شهوراً أخرى حتى تحاول نانسي أن تقنع المسئولين في واشنطن، بأن عيسى كائن لطيف ووديع..

"أعرف يا عيسى أن وجهك الطفولي يحمل البراءة.. لكنني لست متأكدة هل ستكون مواطناً أمريكاً صالحاً أم لا؟!"

حاولت أن أجد لها المبررات الكافية:
"الإنسان الذي يواجه الفقر والقلق في مستنقعات العالم الثالث المتخلف، لابد أن يرتكب جريمة واحدة على الأقل"
ثمانية شهور مضت، إلى أن حملت لي نانسي البشارة التي ظللت انتظرها، لقد وافقوا أخيراً:
"أنت إنسان مبدع، والمبدعون في بلاد لا تعطيهم قيمتهم يمكن أن يتحولوا إلى مجرمين"
قلت لنفسي، الحمد لله.. أخيراً فهمت الأمر، كلمتها بلغة الفيلسوف الذي يسكنني، بصوت عمتي:
"لا يولد إنسان مجرم، فالإجرام في نظري ضد الفطرة الإنسانية، إنه وليد الظروف التي يمر بها الإنسان، هذه نظرية قديمة ومألوفة.. لكن الإشكال في نظري يا نانسي يتعلق بمفهومنا للإجرام، لا بوقوع الجريمة أم لا!!"
لم تكن السيدة الأمريكية تفهم كثيراً في إدراج الأشياء في غير العلاقات الطبيعية التي تؤلف بينها، لهذا لم تفهمني جيداً أو ربما لم تهتم بغير أن تؤدي عملها المفترض، نظرت إلي وقالت ببساطة:
"يا عيسى الحياة قصيرة ركز على الأهم.. أنت موهوب"
طوال أربعين سنة ظلت نانسي تعمل في منظمات العون الإنساني متنقلة من بلد إلى بلد، بدأت بكينيا التي تسميها مركز ثقل القارة السمراء، كانت تعتقد أن كينيا هي سرة أفريقيا..
"هذا إذا كان لقارتكم المعذبة من جسد قد تبقى.. جراء الحروب المنهكة في كل مكان"
تقول مازحة.
لم تقل لي كم من الزمن بالضبط قضته في نيروبي وضواحيها، أو في الصومال وهي تتنقل من قرية إلى قرية، دون أن يدرك أحد أنها أمريكية، فملامحها خليط عجيب بين وجه زنجي ووجه بريطاني، أو ألماني.. لا فرق.
لاحقاً عرفت أنها هاجرت إلى الولايات المتحدة قبل ستين سنة، ساعة كانت في الخامسة من عمرها. خرجت مع والدها من كيب تاون، أقصى نقطة في

القارة السمراء، بعد أن تزوج من والدتها هناك، والتي كانت تعمل ضمن فرقة موسيقية بريطانية جاءت في زيارة لجنوب أفريقيا، واستقر بها المقام في بلد اتخذ موقعه الجغرافي عن طريق الخطأ في القارة السمراء.

الأوروبيون انتبهوا لهذا الشيء، فحولوا جنوب أفريقيا إلى جنة حقيقية، نحتوا صخور الجبال، ورسموا تاريخاً مختلفاً للمكان، ينتسب لهم وحدهم، فالتاريخ يصنعه الأقوياء ويسجلونه على طريقتهم الخاصة. السود تحولوا إلى أناتيك ورسومات على الورق تباع في الشوارع وفي محلات متناثرة في الأسواق الشعبية، حتى أنهم عندما بنوا قلاعاً حديثة ليسجلوا فيها تاريخ الأرض، كقلعة بروتوريا العظمى، رسموا على جدرانها (قصة كفاح البيض)، لأن الكفاح في مفهومهم يقوم على الاختراق.. الذي ينجح في تعديل نواميس الوجود لصالحه، هو المكافح، المناضل الحقيقي والجاد، حتى لو أنه قتل وسلب ونهب. دائماً ظل التاريخ إلى جوار من يملكون البوصلة التي توجهه، حيث لا مكان للضعفاء.. ومن العار أنت تحاول زجّ نفسك في كتاب التاريخ وأنت لا تملك أي إنجاز حقيقي.

قد تكون نانسي مقتنعة تماماً بما أطرحه من أفكار، لكنها كانت سيدة جامدة المشاعر، من الصعب جداً أن تفهم الطريقة التي تفكر بها.. هل هي تفهمك وتدعي الغباء؟! أم أنها غبية فعلاً؟!..

كانت تسمعني وفي النهاية تنظر إلى ساعتها، لتقول لي:

"الوقت مضى يا عيسى.. أنتم الأفارقة تعرفون كيف تسرقون الوقت".

* * *

ثامناً

في أرض مجهولة

"كلنا لاجئون في كوكب لا نعرف تاريخه"

الطبيب الشاب محمد عطا
متكلماً مع زوجته رندا

-1-

المكان: شارع بيترشتراسه.. بناية قديمة
الزمان: نهاية مارس 2015

في أغنية البوكر ترتدي ليدي غاغا ملابس تركوازية عارية، لا تعرف رندا ما هي الإشارة التي تعنيها بالضبط، وفي أيام الصبا لم تفكر في ذلك، ربما هي مشغولة به اليوم، هل هي الوحدة أم العذابات التي دخلت فيها، دوامات غير معلنة من الحزن والقلق الإنساني. كيف لكائن أن يفقد كل الناس الذين حوله، كيف له أن ينسى تاريخه، يمكن أن يمضي الماضي ويتلاشى لكن لا يمكن نسيانه.

الوعي من الغيبوبة، والدخول في حياة جديدة مجهولة وغامضة كانت بداية لكثير من الاشتباكات الذهنية المثيرة، رغبات الذات في الاكتشاف لما وراء المعنى، ربما كان محمد قد حررها فعلياً من قيود كثيرة، بيد أنها ليست متأكدة تماماً، إذ لم تعد قادرة على فرز الأوهام من الحقائق.

واصلت النهار في غياب محمد، وهي تراجع دروس اللغة الألمانية، أجرت عدة اتصالات بالماسنجر عبر الفيسبوك مع صديقات ألمانيات وفتيات عربيات، يعملن على تشجيعها على تجاوز المحنة. في صفحتها التي كتبت باسم مستعار، كانت أثقال الماضي تطل من حين لآخر، تكتب خواطر متفرقة وتنشر صوراً مأخوذة من الانترنت، تعبر عن ذكريات في المدينة التي أحبتها، من حلب وقلعتها الشهباء ودير الراهب سمعان شمال غربي حلب، والبيوت القديمة التي كانوا يسكنون فيها، ترغب أن تنشر صورة لوالدها غير أنها لا تمتلك صوراً لأي من أفراد العائلة سوى في ذاكرتها، ذلك أمر فظيع أن لا تمتلك أي صورة لمن تحبهم في عصر سمته الصورة، كانت مفارقة بالنسبة لها غير مفهومة.

تفتح فيديو كليب الأغنية التي طالما أحبتها، غير أنها ليست بذلك المزاج القديم الذي كان يجعلها تتماهى مع اللقطات التي كانت تستفزها لتدخل في شبق فتاة عاشقة لجنسها، تشعر أن ما مرت به كان كافيا ليغسل خواصها الجنسانية وهي تحرك كرسيها المتحرك بنفسها إلى الحديقة الصغيرة المجاورة للبيت، في انتظار مقدم محمد

من المستشفى، هو مشغول هذه الأيام ببحوثه العجيبة التي تحاول أن تفهمها بدقة لكي تناقشه فيها، هو يحترمها جداً ولا يرهقها بالمعلومات وهي تعلم أنها يمكن أن تدرك كل شيء مع الأيام.

تغني مقطع read my poker face من الأغنية، يرتفع صوتها تنسى من حولها، لتعود بذلك الإحساس القديم الذي دفنته هناك وتحاول استعادته اليوم، هل يتكرر الماضي؟ هل يكون لنا أن نرى صورنا الغائبة والمستلبة؟ وتتذكر مع ذلك ربطة شعرها.. تلك الصبية التي يحل المساء وهي تنظر من النافذة إلى الورود في حديقة البيت إلى الشمس الغارقة وراء المدينة القديمة، حيث يتلاشى كل ذلك مع لون الشفق الأحمر وهو يغسل القبلات التي كان لها أن ترسخ بعينيها مثبتتين لا تفارقناها ولدقائق إلى أن تذهب لتصلي المغرب، ورنة "ماما ماه" ما زالت صداها في أذنيها.. كأنها تسمعها الآن.

تتحسس بطنها كم تشتاق لأن ترى طفلها المقبل، أن تتخيل شكله، هل سيكون شبيهاً بجده أو جدته أم سيحمل ملامح مصرية، مثل أبيه، أن يكون محمد عطا جديد، ترسم له أكثر من صورة، ولد أم بنت كان، هي تريد طفلة، البنات لهن عشق البنات دائماً تتذكر أن والدتها كانت تردد ذلك دائماً، في تلك الأيام يوم كان للحياة زهرتها، تقف ناريمان تنادي سليمان وهي تمازحه:

"نريد أن نفرح بالبنت الثانية"

تشعر رندا بالغيرة وهي التي ليس لها من أخ ولا أخت، لا تريد لأحد أن يشاركها في هذا العالم العطف والحنان الذي تجده من عائلتها، ولم تكن تدري أن الحياة سوف تضعها في يوم ما وحدها تماماً. يبدو ذلك قدراً عجيباً. ما زال صدى المطر يرسل رذاذه في الشوارع المغسولة للتو وللمقاهي وصالات اللعب والدخان الذي يرتفع من النارجيلة ورائحة الزهور اليانعة في الصباحات، ساندويتشات الفلافل الكبيرة والكباب والحمص. كم تشتاق لذلك العالم، تمارس نوستالجيا لا يمكن قهرها.

تبدو حلب كأنها خارجة من عالم لم يكن موجودا ذات يوم، كأنها مدينة أخرى في كوكب آخر، قبل يومين شاهدت صورا في الانترنت نشرتها فتاة تسمي نفسها ناشطة، كيف أن الحي القديم تم تدميره تماماً، ومن وراء الصورة تتلمس مع دموع انهمرت دون ترتيب ذلك الموقع الذي كان يقف فيه سليمان القيسي وهو ينادي

ناريمان وهما يتقافزان مثل طفلين، كان للحياة رونق آخر. تبدد كل شيء. يعلم محمد أن ترك رندا وحدها مؤلم لأن الدماغ البشري لا يترك للذات أن تعيش في حيز مستقل عن الماضي، ويحاول أن يوجد لها ما يجعلها سعيدة، ومن مرة لأخرى يشعر بأن هذه المهمة قد تكون عسيرة لأن التحدي متعلق بموضوع يعلمه تماماً تلك الشيفرات الغريبة للدماغ الإنساني، ثم يأخذه العمل فالجهد، يصل منهكاً بعض المرات يستغرق في النوم يحلم ببلده هو الآخر، ويستيقظ فزعاً كمن أدخل في كابوس مريع، فمن هي تلك المرأة التي تجر كرسياً بجواره، من أين جاءت؟

-2-

المكان: شارع بيترشتراسه.. بناية قديمة
الزمان: ربيع 2015

يدخل ثلاثة رجال في عتمة الليل، يبدون كأولئك الذين يظهرون في أفلام الرعب، لا تستطيع رندا أن تميز ماذا يرتدون بالضبط أم هم عراة بفعل الظلام الشديد، فهي ترغب دائماً أن تنام في الأسود المعتم لا تترك منفذا للضوء، منذ صغرها تخاف نفاذ الضوء في الليالي. ولا تعرف لذلك سبباً أو هي لا تفكر فيه.
يقود الرجال الثلاثة، محمدا، فليس ثمة أحد آخر ينام هنا في هذه الغرفة المستطيلة التي تنتهي بباب زجاجي مغطى بستائر وردية، تحاول أن تفهم أو تصرخ، فليست هي تدري إن كان ذلك حقيقياً أم داخل غيبوبة جديدة مرت بها، فالحياة لم تعد تخضع لقوانين المنطق التي تدربت عليها طوال سنوات طفولتها وصباها لتكتشف اليوم أن كل ذلك يتبدد، تتغير الفيزياء والمدركات ويصبح الإنسان في عالم جديد، يكتشف أن كل القوانين القديمة لم تعد ذات جدوى، حتى فكرة الظلام بدت مضللة ومخيفة. فقبل يوم طلبت من محمد أن يفتح النوافذ ليجعل الضوء يدخل لتشاهد من بعيد أضواء المدينة التي ستكون جزءاً من عالمها، أن يجد الإنسان نفسه أسير واقع لم يتصوره من قبل.
يلوح محمد بيده، كأنه يقول لها أنا قادم، غير أنها لا تدري. وتذرف دموعاً قوية، شديدة، وأنات تخرج من أمكنة مجهولة في هذا الغيب الذي اسمه الجسد. هذه الفنون الجديدة في فهم ما وراء المعاني والأشياء والتدقيق فلسفياً في معنى الوجود، الأسرار والحكايات التي غذاها بها محمد.. تصرخ، ولا أحد يهتم بها، فالرجال يغادرون، ومحمد مكمم الفم، فقط يحرك يده يرفعها لأعلى، اليمنى، ثم يغيب وراء العتمة.
تأخذ سماعة الهاتف تتصل برقم الطوارئ الخاص بالشرطة 110، بعد أن تكون قد تذكرته بصعوبة، فالمخ صار مستعصيا، إنه الخوف وأشياء أخرى. يصل اثنان من رجال الشرطة إلى العنوان المحدد.. شارع بيترشتراسه.. كان الباب مفتوحاً.. يدخلان، يفتحان الإضاءة. ثمة امرأة تجلس على كرسيها وهي بملابس النوم الداخلية، تبكي

ويصعب عليها أن تروي كل شيء:
"لقد أخذوه.."
لم يكن لها أي معلومات سوى ذلك. قام الرجلان بطمأنتها أن الأمور سوف تسير بخير، عليها أن تكون هادئة، وأنه سوف يوفر لها الرعاية إلى حين معرفة ما يحدث. كانت خائفة أن يؤثر وضعها النفسي على طفلها. مضى يوم، يومان، أسبوع.. لا خبر.. اختفى محمد.. ربما إلى الأبد.. كان ذلك لغزاً مفاجئاً، جعلها تفكر بأنها دخلت مغامرة ما كان لها أن تجربها، أبداً.. هل كان قراراً سليما أن تتزوج من رجل لا تعرف تاريخه، طبيب وشاب وهادئ، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ثم تكلم نفسها بصوت مسموع أن هناك أشياء لا نراها في أكثر الظروف، تتطلب وقتاً خاصاً لتظهر، هل يكون محمد مجرماً متخفياً، واحداً من أولئك الذين يظهرون كملائكة إلى اللحظة الأخيرة؟
الآن مع غيمة الشك تتماسك، فهي تحب الرجل الذي منحها كل شيء، والخيط الأخير الذي تبقى لها في العالم، وإذا ما فكرت فيه سلبياً فهذا سوف يدمرها، هل تقول له إذا عاد أنها خانته في فكرها وفي هواجسها، فالخيانة لا تتجزأ حتى ولو في الخيالات. كانت الصاحبات الألمانيات يقمن بمراجعة وضعها ومتابعتها من وقت لآخر، وقد وفرت لها الحكومة خادمة مؤقتة تساعدها لأنه يصعب عليها أن تتحرك لوحدها وتعمل في المنزل، مع أنها لا تأكل وهزل جسدها سريعاً، وقد رفضت الاستجابة لوصايا الطبيب النفسي الذي زراها ليخبرها:
"ليس من مصلحة مستقبلك في هذا العالم أن تتعاملي مع نفسك بهذا الشكل"
لم تهتم بأن تدقق في قوله، وبدلاً عن ذلك ردت عليه:
"لقد وصلت اليأس.."
كانت يائسة فعلاً، يصعب عليها أن تلملم جراح الأمس واليوم، والنافذة التي أغلقت بعد أن كانت مفتوحة قبل قليل. وفي الانتظار والوحدة وما يسميه محمد بالتوحش كما كانت تسمع منه أحياناً، يجد المرء نفسه قاسيا باتجاه ليس ذاته فحسب، بل كل العالم، ويبدأ الحب في التحول إلى كراهية، تأخذ كل الألوان صبغة غير محددة، ويتخذ الوجود شكل كائن خرافي لا يمكن القبض عليه، بحيث يظن الإنسان أنه شبح يهوم في فضاء مجهول أو عوالم غيبية لا عبرة فيها. تتخيل أنها تسمع صوته،

محمد. الطيف الأخير الذي تبقى لها، وتتذكر الانتظار الطويل في الليالي، ودخوله وهو يفتح الباب كالعادة:

"عذرا حبيبتي.. كان لدي عمل مهم.. هؤلاء اللاجئون المستشفيات تكدست بهم".

تضحك، وهي تشعر بأنها كائن خفيف قادر على الطيران:

"لولاهم لما وجدتني".

"كلنا لاجئون في كوكب لا نعرف تاريخه".

يعرف أنها لا ترغب في المسائل الفلسفية، يقبلها بحنان فائق، ثم يدخل الحمام يغني تحت الدش أغان قديمة لا يكاد يحفظها جيداً، يغني لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ثم يرسل الماء فوقه يجعله يغسل الذكريات والحنين للبلد، هل مصر لم تعد تهمه، هل بات ابن بلد أخرى هي خياله ومستقبله الذي يمكن أن يجده في أي مكان في العالم، ولماذا نسي عائلته والناس الذين أحبوه ذات يوم، حتى البروفيسور نور الذي فعل له جميلاً من المفترض ألا ينساه، ها قد نساه. لا يعني ذلك أنه ناكر للجميل أو غير طيب، أبداً هو يعرف أنه إنسان رائع ومسامح وطيب لكنها الآلة التي تسكن الدماغ والتي بات يفهم أنها تعمل بطريقة سوف يفك العلم شيفراتها في وقت قريب لنكتشف أننا كبشر نخضع لقرارات تتخذ بطرق مأساوية أغلب الأحيان. فالمأساة ألا تعرف ما الذي يحدث بالضبط.

لا يؤمن بالعشوائية أو أن الحياة تقوم على الفوضى، يؤمن بالنظام والقواعد الصارمة، ولهذا فإن الدماغ لابد أنه يعمل بهذا الشكل. لا يسترسل في الفكرة، تناديه رندا، يهرب إليها عارياً والماء يتقطر منه، يقف أمامها، تضحك كثيراً. لا حياء بينهما. يستعيد بخجل صورته أمامها يوم جيء بها لأول مرة. يشعر الآن بالخجل ثم يهرب من جديد إلى داخل الحمام. يلبس ملابسه المنزلية، يبدو فيها شابا عصريا زاهيا، كالفتيان الذين حلمت بهم في صباها، ثم فجأة تغيرت طبيعتها التي عادت لتكتسبها مع محمد، مع روحه التي منحتها ما لا يمكن روايته. حكاية مكانها في القلب.

يقف أمام المرآة قليلاً، يفكر في أمر ما، تعلم أنه مرات يقلقه هذا الشبه، ثم ينساه.. أن تشبه إرهابيا قتل ستة آلاف من الأبرياء لن تكون مرتاح البال، يحدثها مرات.. ثم تخبره أنه ما دام يعرف من يكون فليس مهما بقية الحكاية. لم تكن تعلم أن ذلك الشبه سوف يجر له المتاعب التي لم يتصورها في بحثه عن أسرار الدماغ البشري، فحن

نعيش في عالم يسود فيه المجرمون الذين يسعون لتوظيف خطايا الطبيعة لصالحهم، إن كنت تشبه أحدا فتلك خطيئة، عليك أن تتحمل وزرها.

كان محمد يجلس على كرسي مقيداً، ومعصوب العينين لا يعلم أين يكون بالضبط، يحدثه رجل ممتلئ الجثة، بصوت جهور، أن عليه الطاعة.. يأتيه الصوت من جهة مجهولة في هذا العالم ويتمنى لو أنه يحلم، ولكن هيهات، فمع إزالة العصابة عن العينين تبدو الوجوه في غرفة شبه مظلمة كأنه يشاهدهم في فيلم أسود وأبيض، تالف يتطلب التحميض، عليه أن يمارس هذه العملية.. أن يُعمِّل الرؤية بقوة لكي يميز، لكنه لا يعرف أي منهم، لم يحدث له أن رآهم، هؤلاء الكائنات التي تشبه البشر ولا تشبههم، ثم يتأوه بصوت عال غير مبال، يسألهم:

"أين أنا؟"

يرد عليه الرجل الممتلئ وصوته قد انخفض:

"أنت بخير.. لا تخف وتعاون معنا"

"ماذا تريدون مني؟"

"المهمة لا غير.. الخير والصلاح لك"

يصمت.. لا يعرف بماذا يرد وهو لا يعلم ما الذي جرى، يريد أن يسأل، يسرع الرجل لإغلاق فمه بعصبية، يقول:

"فقط منذ الآن سوف تسمع وتنفذ"

يتناسى أو يتقاضى، يدرب نفسه على واحدة من تجريباته البحثية في علم الدماغ، بأن يسيطر على المناطق الإيجابية فيه، مصادر القوة حتى لا ينجح هؤلاء المجرمون في تبديدها، إذا سيطر عليها ولوقت طويل وبنجاح سوف ينجو من ضمائرهم القذرة، لاشك أنهم قذرون وبائسون وما هو البؤس سوى أن تكون قاسياً لا ورع لك. وما هو الإيمان سوى أن تطهر قلبك لتصبح نقياً محباً للعالمين. هؤلاء هم مجرمون، هل هم مؤمنون.. لا يهتم بذلك، فلديه ما يشغله إلى حين تكشف الحجب ومحو العتمة التي طالما خافت رندا منها.

أين هي الآن؟ وهل هي بعيدة أم قريبة منه؟ كان يفكر بذلك. مشغول البال. وهذا يهدد قوة دماغه ويخصم من القوة التي تمنحها المناطق الإيجابية. وماذا سيفعل سوف يجعل نفسه أسير بعض إخفاقات كيمياء الدماغ التي تفرض قواعدها في الوقائع الحزينة والمؤسفة.

-3-

المكان: مكان غير محدد في الأرض
الزمان: مايو 2015

يحاول محمد جاهداً أن يفهم أين هو بالضبط وما هي هوية هؤلاء الناس الذين على ما يبدو لن يستطيع الوصول إلى أي نتيجة معهم، يدخلون ويخرجون ثم يتكلمون بلغة غير واضحة ربما لأنهم بعيدون عنه قليلاً أو لرغبتهم في التهامس. يود أن يصرخ ثم ينسى أن ذلك لن يُجدي وعليه أن يصبر أمام ورطة لا يعلم مداها! كان الرجل قد أزاح يده عن فمه، وقد أزبد محمد بشكل لا إرادي، ليس في ذهنه الآن سوى رندا كيف لها أن تكون وحيدة وطفلهما قطعاً.

لم يسبق له أن مر بتجربة من هذا النوع، هذا الانتظار القاتل وعليه أن ينفذ، ثم ماذا سوف ينفذ يا ترى، هذا يعني أن عليه أن يصبر.. الصبر وحده لا حل آخر.. في هذه اللحظات كانت أطياف متداخلة ما بين الحاضر والماضي تتداخل في ذهنه لتعطل فكره عن رؤية أي شيء.. كأنه سيدخل في واحدة من غيبوبات المهاجرين التي تأتي فجأة بلا مقدمات واضحة بمجرد أن يكون الفرد قد بدأ في التماهي مع لحظة غامضة من فضاء الزمان، تلك المعادلة المجهولة، التي يعجز العلماء عن تعريفها أو تفكيكها. يدرك محمد ذلك جيداً غير أن الوقت غير مناسب للتفكير في أمور علمية بحتة.

يأخذونه معصوب العينين، بعد أن يخضع لحقن بمادة ما.. أحس بما يجري حتى لو أنه لم يعد يرى. لم يكن خائفاً، كان شجاعاً إلى الاستمرار في هذه اللعبة السخيفة، طالما أن الناس إلى اليوم تعشق السخافات والتنافس الغبي لأجل أن تحقق مكاسب في هذا العالم الأرضي الدنيء. ولأول مرة يحس كأن الحياة قذرة فعلاً، هل كان قد انتابه هذا الشيء من قبل. لربما، لا يتذكر مطلقاً. أو يتذكر ليس مهماً.

عندما أزاحوا العصابة عن عينيه، كان في أرض مدججة بالمسلحين، وكان يلبس أزياء كالتي كان قد رآها في صباه في فيلم القادسية للمخرج صلاح أبو سيف، لم يكن قد تذكر ذلك الفيلم إلا الآن حتى خال أنه قد رحل إلى داخل تلك المساحة المتخيلة والواقعية.. أن ترحل لداخل فيلم رأيته ذات يوم أو أن ترحل إلى فضاء

التصوير حيث كانوا يعدون كل شيء. أو ترحل إلى حيث كانت القادسية التاريخية والحقيقية وهذه هي الصورة الأقرب، حيث في الموقع رجال بعضهم ملثم، يحملون سيوفا وبنادق وخناجر. رحبوا به بصوت واحد جهور:

"الإمام المجاهد الشيخ محمد عطا"

قال أحدهم ويبدو أنه كبيرهم:

"كم طال انتظارك وها أنت اليوم تشرفنا وهذه هي غاية النعماء"

لم يدرك ما الذي يحدث بالضبط، إلى أن أخبره رجل يقف بجواره همساً:

"الجميع هنا يعتقدون بعودة محمد عطا وهم يقدسونه، ولهذا عليك أن تعيش هذا الدور، وإلا تخلصوا منك، أعني الكبار الذين جاؤوا بك إلى هنا.."

سأل:

"ولكن أين أنا بالضبط؟ وماذا يعني أن أكون محمد عطا فقد مات الرجل منذ سنوات بعيدة؟"

أسرع الرجل لأخذه جانباً إلى داخل خيمة، وكلمه بأدب دون تحذير، قال له:

"محمد عطا ميت أم حي ليس مهماً.. المهم أن هناك من يعتقدون في حياته ولن يقوموا بواجبهم في مناصرة الحق إلا إذا أحسوا بأنك بينهم.."

".. وأين..؟"

"ليس مهماً.. مطلقاً.. أنت في الأرض.. أرض الله"

يبتسم الرجل، يأخذه إلى الخارج لا يعرف محمد من هو بالضبط، هل يعيش الدور لكي ينجو، فهو يحن إلى رندا وطفله وغرف المستشفى وزملائه، وأبحاثه حول المخ.. هذه المعضلة التي تتعقد الآن مع هؤلاء البشر الذين هو بينهم دون أن يفقه لهم كنها.

* * *

أنهيت قراءة هذا الجزء من الأوراق، لم يسمه فصلاً أولاً ولا ثانياً، وفي الواقع لم تكن الأوراق مرتبة، بل مبعثرة جداً. وهذا قد يعني أنه لم ينه عمله بعد أم ترك القصة قبل أن يكملها، ربما لأنه انتحر كما قالوا.

أعود لمراجعة الصفحة الأولى، الغلاف، نعم قد كتب كلمة رواية، وهذا يعطي انطباعا أن كل شيء مرتب، وبعد أن تعيش في الصفحات ستجدها على هذا

الوضع. إنه يربكني. ثم أغلق ذهني بعد أن أكون قد وضعت الورق جانباً، يدور بذهني قلق غير مفسر، لا أعتقد أن له علاقة باضطرابي الأخير إنما باستفهام يشغلني عن السبب الذي اختارني فيه عيسى لأكون أمينا على روايته، والموضوع الآخر أن استغرابي من عائلته التي لم تهتم بالقصة كثيراً سواء أن كتب رواية أم لا، والده لم يقف ليسأل ماذا قد يكون كتب ابنهم بالضبط، ولكن ليس هم فقط، فالأوروبيون، النرويجيون أيضاً لم يحفلوا. وما أدراني قلت لنفسي فربما نسخوا صورة من الورق، فنحن في عالم بات فيه كل شيء مستنسخ حتى من على البعد، لا أسرار ولا حكاية يمكن أن تندس.

أترك كل ذلك، أفكر في أمر آخر، إلى الآن لا يبدو في هذا الجزء ما يدعو للكآبة أو الانتحار، كما أنه يصور قصصاً قديمة لم تعد قائمة اليوم، حلم الهجرة إلى أمريكا كان موضة في التسعينات وبداية الألفية الثالثة، كان كل شاب يطمح أن يصبح حاملاً لـ "الجرين كارد"، لم ينته ذلك تماماً غير أنه لم يعد كسابق عهده. لماذا فكر أن يبدأ بهذا الشكل، بهذه القصة ومن هي نانسي هذه التي اخترعها هل جاء بها من خياله أم استلها من وحي شخصية واقعية قابلها خلال هذه الفترة التي مضت من موظفات شؤون اللاجئين العجائز.

في سنوات الجامعة كان لديه مثل هذا الحلم أن يسافر إلى أمريكا، تحديدا إلى أركنساس، ولا يعرف السبب لماذا يعشق أركنساس. ثم قبل أن ننام ليلا في غرفتنا بالسكن الداخلي للطلبة، يغني قليلاً، لم يكن صوته طروباً ولم يكن موهوبا في الغناء إذن، ومن يغني في الغالب ويطرب نفسه لا يعلم أن صوته يمكن أن يكون مزعجاً للآخرين أو غير مسل. أتركه يسلي حاله، ثم أسمعه يخبرني بالأغنية التي ألفها عن أن هناك امرأة جميلة تنتظره هناك يسميها نانسي.. أتذكر الآن السبب لماذا اسم نانسي بالتحديد، يا لهذه الذاكرة اللعينة التي تنسى ثم تتذكر فجأة تقفز بالمدفون إلى السطح.

مرة قال لي لماذا لا نجرب أن ندخل السفارة الأمريكية، بأي شكل كان، نقف أمام سورهم نصرخ بأعلى أصواتنا أننا أصبحنا ملحدين، كفرة، أننا لا نحب حكومتنا

القاهرة التي تعذب شعبها كالبهائم، بل البهائم أهم منا في هذا البلد يقدمون لها العلف لكي يحصلوا بالمقابل على الريالات من السعودية. ثم يطرق ليسألني:

"هل تظن أن السفير سوف يخرج ليسأل من هؤلاء ويطلب مقابلتنا؟ ثم نفوز بتأشيرة إلى هناك"

أضحك ثم أقول له:

"سوف لا يهتم بنا وسيأتي واحدة من حراس السفارة الضخام ليزيحنا جانباً"

كانت السفارة الأمريكية وقتذاك غرب شارع الحرية تطل على شارع علي عبد اللطيف الرجل الذي صنع ثورة 1924 ضد الإنجليز، لم تنتقل إلى موقعها الجديد جنوب مدينة الخرطوم في مساحة أكثر اتساعا. وتخيلت أن الحارس الزنجي الضخم يجرب فينا مهارات الملاكمة، قبل أن يحملونا إلى السجن.

قال لي:

"أتعني أن الحكومة الأمريكية سوف تتواطأ ضدنا".

أجيبه:

"غالباً سيحدث ذلك. هل تصدق أن العلاقات بين البلدين بهذا السوء، لماذا لا يغلقون هذا السفارة إلى الأبد إذا كانوا لا يحترمون هذا البلد ولا حكومته كما يقولون"

يطرق قليلاً لا يكلمني بعدها يكون قد نام، يحلم بنانسي وأركنساس. أغلق الورق في دولاب صغير بطبلة، وأتجهز للخروج، فثمة قلق مستمر لم يتوقف؛ يتفاقم الآن مع هذه الأوراق حتى لو أنني لم أر إلى الآن ما يجعلني أشعر بالضيق، ربما خوفي من الصفحات المقبلة، فدائماً يحرك فيّ المستقبل والآتي الكآبة أكثر مما أعيشه في الراهن.

* * *

تاسعاً

البؤساء يضحكون

"إن السجن ليس حانة دعهم يلقون القبض عليك لأفتح لك"

فكتور هوجو

في رواية البؤساء

-1-

المكان: معسكر اللاجئين.. هانوفر ألمانيا
الزمان: يونيو 2014

يقضي عجيب أغلب الوقت في المعسكر بين زملائه دون أن يشعر بأن ثمة جديد قادم وراء الأفق، مضى عليه الآن أكثر من عام ونصف تقريباً وهو في الانتظار، أكثر من ثلاث مرات وطلب لجوئه يرفض من السلطات الألمانية، بحجة أن لا مشكلة لديه وأنه يجب أن يعود للسودان، إذ ليس لديه المبررات الكافية ليبقى هنا. يشعر عجيب بالخوف من المستقبل رغم أنه يبدو هادئاً، يمازح زملائه وهم يخرجون إلى الشارع القريب من المعسكر، يشترون بعض الأغراض، تجهيزا لوصول وفد من المعارضين في نهاية النهار، الذين قد يتوسطون لدى الخارجية الألمانية لحل المشكلة. لكن عجيب يبدو فاقداً الأمل:

"لا أعتقد أنهم سوف يفيدوننا بشيء.. لقد جاؤوا قبل ستة أشهر ما الذي حدث؟"

سمعه منصور زميله، لم يعلق، واصل عجيب:

"الحكومة الألمانية باتت أكثر تعسفاً معنا نحن السودانيون بالذات، إنها ترى بلادنا جنة.. تحسنت علاقتهم جداً مع النظام في الخرطوم.. ليس لديهم قناعة كافية أننا نعاني"

هل كان يكلم نفسه؟ أم يكلم زميله؟ يبدو كل منهما كما لا يهتم إلا بنفسه. وهما يسيران في الشارع، يعبران ممرات مبلطة وحدائق صغيرة دون أن يهتما بما حولهما كثيراً. الاستغراق يتمكن من النفوس، حيث لا بوابات مشرعة. يتخيل عجيب أنه لو كان في بطن حوت مثل يونس النبي، لكان أفضل له، بشرط ألا يغادر بطن الحوت مطلقا إلى أن يموت أو يفنى ليصبح عصارة في دم ذلك الحيوان الهائل.

الصورة الأخيرة وهو داخل بطن الحوت، جاءته من زعيم الثوريين الذي وصل قبل ستة أشهر، هل سيعيدها اليوم مجدداً؟ هل سيكرر القول إن البعض أكلته الأسماك والحيتان وهذا لم يكن محظوظاً وأن المحظوظين وصلوا إلى هنا، بعد أن اجتازوا البحر. يبدأ عجيب في كراهية هيئة ذلك الزعيم الثوري وهو يعبر بذهنه، يراه مبتزاً بلحيته

الصغيرة وعينيه الغائرتين ورغبته في أن يبدو أذكى من الآخرين، يكلم منصور ولا يحفل إن كان يسمعه أم لا:

"تركنا التجار وجئنا لنجدهم هنا. إنه البؤس يا صديقي"

كان قد استعار عبارة البؤس، فهو في هذه الأيام يقضي أغلب الوقت في قراءة روايات كلاسيكية قديمة على رأسها أعمال فكتور هوجو، البؤساء وغيرها، يعود إلى عشقه القديم، محاولاً بهذه الكتب أن يقتل الألم الذي يسكنه. ففي تلك الأيام البعيدة كان للمطالعة مذاقها، ولم تكن الحياة واضحة بالضبط. لم تكن ثمة حروب ولا مضايقات ولا جنون يمكن أن يشعل الرأس.

في المرة الأخيرة التي قرأ فيها بؤساء هوجو، إذا كان له أن يتذكر، كان يفكر أن الإنسان قد يصل إلى الإذلال في هذه الحياة، لكن يجب أن يكون كريم النفس، ولم يكن مقتنعاً بأن ثمة مبررات كافية تجعل المرء يتدنى ويصل لأن يركع للجبناء ويصلي من أجل الحضيض، وهاهو اليوم يفعل ذلك ما الفرق بينه والحيوان، وهذا ليس تعبيره هو.. هي العبارات التي كان قد أطلقها أحد زملائهم في المعسكر لينعت بها ذاته، فنال غضب الزائرين الثوريين.

لم تمض سوى أسابيع وقد انتحر ذلك الزميل، البعض يقول إنه قتل ليس من رواية واضحة ومحددة، وكل يفيد بالطريقة التي تناسبه. يتذكر أنه رآه قبل يومين من وقوع الحادثة، كان سعيداً جداً لدرجة اعتقاده، بأنه قد نال موافقة على اللجوء، وعلم منه ألا جديد والانتظار هو البديل.

كان جالساً في إحدى الغرف قبيل الفجر، مع أكثر من ستة من زملائه ينامون على لحافات فرشت على البلاط البارد، في حين كانت رياح قوية تضرب بالخارج. لم يتعودوا على الطقس الألماني كما لم يعتادوا بعد على مفردات اللغة المستعصية، كان منصور يقول مرات ساخراً، كيف استطاع نيتشه أن يفكر، ثم لا يواصل فكرته لأنه لا يفهم في الفلسفة، ولا يهتم بها، كان يؤمن بأن الحياة معاركة وطريق طويل يجب أن تسير فيه بلا تردد إلى أن تصل، حتى لو طال السفر كما يردد الناس عادة.

ارتفع ضجيج في الخارج، كان زميلهم معلقاً في الشجرة، عالياً يلوح بيد واحدة كأنه يقول وداعاً، كيف فعلها، وكيف ارتفعت هذه اليد بهذه الطريقة الغريبة؟ ليس من إجابات. تبقى الأسئلة معلقة كما يقول عجيب! ثم تمضي الأيام. تُجري السلطات

الألمانية التحقيق تلو الآخر ولكن ليس من نتيجة واضحة، وفي النهاية أغلقوا الملف. كان عجيب مشغولاً بالتفكير، هل يكون الإنسان سعيداً بعض الأحيان وهو يقترب من النهاية، من موته المحقق؟

ليس له من إجابة إلا أن يجرب، وهو على العكس يحب الحياة، يريد أن يعيش طويلاً، كواحد من أفراد عائلته. بالتحديد عمه الذي يعود تاريخ وجوده على الكوكب، إلى القرن قبل الماضي. هكذا كان يؤمن أغلب الناس في القرية البعيدة قبل أن تأتي الحرب وتقتلعها اقتلاعاً عن مكانها، ويكون النزوح الكبير باتجاه تشاد الجارة، كانت النيران قد اشتعلت في القرية لا أحد علم من كان وراء ذلك. الأقاويل متضاربة. العم العجوز كان ملتهب الجسد، لم ينجو من الحياة ولم يدخل الموت. ظل في فراغ معلق بين المجهولين، كأنه يهزئ بفعل الألم القاسي، فما أبشع الموت بهذه الطريقة أن تحترق.

قال العم المسن، إنه رأى الأحصنة وهي تنهب الأرض مثل ملائكة مدججة قادمة من السماء.

يتذكر عجيب ذلك، ثم يحاول أن يمسح المشاهد الفظيعة عن دماغه، يكون ذلك صعباً إلى اللحظة التي كان قد دفن فيه عمه تحت الثرى في الأرض المبتلة بماء الأمطار الكثيفة في تلك السنة. كان عاما مضجرا ومخيفا، مجرد عبور الذهن به يشعر المرء بالخوف من المزيد، من غموض هذه الحياة واحتمالاتها المفتوحة للفراغ.

وضع عمه في المقبرة، تأمله كضحية لصراع لن تندمل أفته على المدى القريب. يتخيل أنه كان يمكن أن يعيش عشر سنوات أخرى على الأقل، أيضاً كان من الممكن علاجه إذا ما تم دهن جسده بعناية فائقة وتقديم المسكنات والحقن التي تسرع بالشفاء، ولم يحدث ذلك؛ لم يكن من أحد يهتم. المنظمات التي كانت تأتي بأسماء وشعارات مختلفة تكتفي بتوزع أدوية مثل البندول وأقراص منع الحمل ويلقون محاضرات حول الإسعافات الأولية، يراها عجيب سخافات ليس لها معنى. يحتقرهم هؤلاء الموظفين النظيفين، بعيونهم الخضر وملابسهم الزاهية، يشعر أنه كان من الممكن أن يكون عظيماً لولا البؤس.

يوم سافر في رحلته الأولى إلى الخرطوم ليواصل الدراسة، كان يحمل تلك الأيام وكيف أن الآمال يجب أن تتعزز، يفكر في صورة هؤلاء الشباب الذين كانت كاميرات التلفزة

تصورهم وتعرضهم على أنهم المنقذون. يقف رجل بمكبر صوت يتحدث باستفاضة عن كيف أن العون الإنساني يقوم بدوره، مع وصول وفد من ممثلي هوليوود الذين سوف يلتقطون الصور هم الآخرون مع الأطفال والشيوخ، يتخيل أن عمه التقط صورة معهم بعد أن خرج من قبره وعاد ليواصل هجعته الأبدية. يمضي في تصويراته الساخرة من الوجود.

يضع كتاب "البؤساء" جانباً، اشتراه قبل أيام من مكتبة صغيرة لم يكتشفها من أحد سواه صاحبها عراقي جاء قبل عشر سنوات إلى هانوفر، هارباً من الفتنة التي أحرقت بلده، كانت له دار نشر صغيرة ومكتبة في بغداد تركهما ووصل هنا لأجل أن ينشد حياة جديدة، اكتفى بأن صنع هذه المكتبة لأنه يحب الحياة من خلال قراءة الكتب.

ناوله كريم الكتاب، أمسك به، حدثه:

"إذا كنت تريد أن تفهم العالم المعاصر فاقرأ روايات القرن التاسع عشر.."

".. ولكن؟"

".. نعم يا ابني.. الأفكار لا تتغير كثيراً.. أغلب الفلسفات تظل كما هي؟ الناس تتغير شكلياً فقط"

يأخذ الكتاب ويقدم له معه كتاباً آخر، كهدية. يرفعه يقرأ على الغلاف.. "وصايا الطهواني".. ليس لديه فكرة عمن يكون الطهواني، ولا موضوع الكتاب.

سأله:

"هل هو قصة. أعني رواية؟"

ابتسم كريم.. هز رأسه بما يعني أن الإجابة لا، رد:

"هو مجموعة من الحكم عن فن الحياة.. كتبها الشيخ الطهواني"

"ومن هو الشيخ الطهواني؟"

"سأخبرك.. هو عالم جليل من علماء العراق.. عاش في القرن العاشر الميلادي.. لم يخلف إلا هذا المؤلف الذي يقدم فيه عصارة حكمته حول الإنسان وغاياته ومتعه وفساده"

يشعر عجيب أن ثمة ما سيقال. لا يقاطع الرجل. فعلاً يواصل:

"إن أجمل ما كتب في تاريخ تلك الفترة هو هذا الكتاب الذي لا يعلم عنه إلا القلة.. بالمناسبة هو عاش معاصراً للحلاج.. أتعرفه؟"

يشعر عجيب بالاستفزاز، من لا يعرف الحلاج، ولا يهتم كريم بردة فعله، يقول: "الطهواني كان أعمق من الحلاج لكنه لم يكن مناكفاً للسلطة. كان يداهنهم عن علم.. وعن وعي.. لكنهم أيضاً اكتشفوه ولهذا سجنوه في بيته إلى أن مات غريباً ووحيدا.. منعوه حتى من القراءة والتأليف".

لا يعرف عجيب السبب الذي جعله لا يهتم بالكتاب رغم صغره، ولا يتذكر أين رمى به، فقد يكون مختبئا تحت لحاف ما أو في أحد الدولايب المكدسة بحقائب تنتظر السفر إلى المجهول. يتأبط "البؤساء" يسرع إلى الخارج ليكمل فصلاً جديداً عن ذلك الرجل الذي هرب من السجن دون أن يغير طبعه رغم أنه قضى ربع قرن كامل في العذاب.

-2-

المكان: طائرة في سماء البحر المتوسط
الزمان: سبتمبر 2014

في ذكرى سبتمبر التي لا تشغل عجيب كثيراً، يصدر قرار نهائي برفض طلب اللجوء، ولابد من مغادرته فورا على نفقه الحكومة الألمانية.. سيختار أن يعود إلى بيروت مؤقتاً، فعودته إلى السودان تعني العودة إلى الجحيم. وهو لا يعرف تماماً ما المصير الذي ينتظره هناك. "بيروت.. بيروت" هاهي تبدو من السماء المدينة التي سوف يحبها رغم اللعنات.. تذكره بصنع الله إبراهيم في روايته بهذا الاسم.. "بيروت.. بيروت".. والرجل السعودي الذي كان يقرأ الصحيفة بجوار الراوي، يعني بجوار صنع الله.. ذكريات الحروب والأيام المكلومة. ثم ينظر إلى البحر أسفله.. في حين كانت الطائرة تصدر أزيزاً قوياً كأنها ستخترق غلاف الأرض.

ذي قبل بدأت الرحلة من هنا، كان يجلس لساعات طويلة تحت الشمس أمام مبنى المفوضية ينتظر مع آخرين من الشباب والأسر بأطفالهم قراراً بأن يتم نقلهم إلى دول أوروبية أو إلى أمريكا أو كندا، أن يغادروا هذا العالم الثالث البغيض. كان يشعر بأنه مقيد وأن ذاته الحقيقة وإبداعه وحياته سوف تبدأ هناك. واليوم هاهو يعود إلى البداية، دون أن يدرك ما الذي سوف يحدث بعدها. هل يعود باحثا عن المطبعة التي عمل بها لأيام مجلدا للكتب، وهل سوف يستقبله ذلك الشيخ الدروزي، ويتقبله بعد أن تخاصما في المرة الأخيرة وتسابا وخرج عجيب منه إلى الأبد كما كان يظن وقتذاك.

ثم يقرر البحث عنه، يذهب إلى المطبعة، المكان يبدو هادئاً رغم أن صوت الماكينة الكبيرة لا يهدأ. كان قد تعود عليها في تلك الأيام، ينام في هذا المكان. يستيقظ ويغفو ثم ينام، ويدخن سجائر رديئة، يخرج إلى تدخينها في الفناء الخارجي للمطبعة لأن الشيخ الدروزي سوف يغضب حتما إن رآه. سبق له أن زجره كالكلب أن لا يكرر هذا الفعل. كيف اختلفا؟ هل كان السبب متعلقا بالأجرة اليومية البائسة التي كان يقبضها أم تلك الحزمة من الأوراق التي سرقت ذات ليل وقام الشيخ بتحميله المسؤولية، كيف يحدث ذلك وماذا تفعل هنا بالضبط، فيرد:

"لكنني لست حارساً.. أنا مجرد مجلد كتب!"
"يفترض أنك ستلاحظ أن كائناً غريباً دخل هنا"
"يفترض ولكن ليس واجباً"

تتعارك الأيادي، يبدو الشيخ قوياً جداً. وعجيب لا يرغب في معركة خاسرة، يفكر في البلاد البعيدة الجميلة التي سوف تمنحه الدفء والحياة اللذيذة والأمان. وهاهو الزمن يتأخر لتعود عقاربه الصدئة إلى المنطقة التي تحركت منها. ويكاد يصرخ من الغضب الإلهي الذي حل به. في المطبعة ليس من أحد سوى مجموعة من الكلاب الضالة التي اتخذتها مخدعا لها تهجع فيها ليلاً.. هل بات العرب لا يقرأون، وأين ذهبت الماكينة والأوراق والأنين القديم؟

وأخيراً يجد الشيخ الدروزي، أو هكذا يتخيل. ينتبه أن ما وجده شيخاً في خياله، فهو يستعيد صورة تلك الليالي عندما يتقدم أمامه شبح في الظلام، يأتي ليتفقد العمل فعلى الكتب أن تنتهي اليوم تجليدا وتوضيبا في الكراتين، ففي الصباح يجب أن تسافر إلى غينيا حيث العهدة المدرسية التي تسلم لوزارة التربية هناك. كان الشيخ يسافر مرات إلى كوناكري ويعود، وبات هاجس السفر عنده يقل بعد أن فقد أولاده الثلاثة في حادثة تحطم طائرة فرنسية في سماء مالي كانت في طريقها إلى بيروت من كوناكري. بكى جداً وشعر عجيب يومها أن للشيخ الدروزي وجها آخر إنه كائن له قلب. الآن يشتاق له رغم كل شيء، لكنه لا يجده، ولا حتى أشباحه الليلة، أين ذهبت، يا رب أين هو، هل مات، ولما هذا المكان بات فارغاً؟!

يغادر الموقع، يعلم بعدها وليس الآن أن الشيخ قد مات في العام الماضي ولأنه ليس له من وريث فقد انتهى كل شيء. لا أحد قدم الرواية المفقودة بخصوص المطبعة ما الذي جرى معها وأين ذهبت الماكينة وبقية الحكاية المجهولة. يأخذ عجيب نفسه، إلى أن ينضوي مع رفاق قدامى، لأيام لا يوجد ما يفعله ثم ينضم لفصل دراسي يعلم شباب من الوطن عابرين إلى أوروبا اللغة الإنجليزية التي يجيدها، دون أن يعرف السر وراء ذلك، فالمدارس في السودان لا تعلم شيئاً، لكن ذلك حدث. ومع مرور الوقت سوف يندمج في الحياة في بيروت، يتخيل ذلك إلا أن يحدث العكس.

-3-

المكان: مكتبة السيد كريم.. هانوفر ألمانيا
الزمان: نوفمبر 2014

يستيقظ السيد كريم العراقي، وهو يكح بصوت عال، كأنما ثمة شيء غير طبيعي يحدث في هذا الصباح، منذ أيام تطارده أضغاث مزعجة حول الموت، فهل يكون قد اقترب. في الماضي لم يكن يخاف هذا الشبح الغامض أبداً، فلما ينزعج منه اليوم. ولكن له حق، فالحنين إلى البلد والأهل قاتل جداً، فهو يحن إلى رفاقه الذين تركهم في بغداد، إلى شلته وزبائنه من عشاق الكتب الذين كانوا يتلمسونها بشقاوة قبل أن يفتحوها، لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويسرعون إلى شرائه، يبحثون عن الجديد والمثير. أين هم الآن، هل شردتهم الأيام كما شردت كريم العراقي؟

يريد الرجل أن يبحث عن الماضي، ثم يفشل لأن الأمس لا يعاد إلا في الذاكرة، وهو رجل مرهق ذاكرته قد لا تعمل بالشكل السليم. ينهض إلى الطبيب الألماني، يخبره بما يحدث معه. كان طبيباً متخصصاً في الأمراض العامة، يمكن أن نقول أنه طبيب عمومي، قام بتحويله إلى طبيبة نفسية مختصة، بعد أن أقنعه أن مشكلته لا تتعلق بالجسد وإنما بالروح. وقد كان ذلك مثار تعجب كبير له، كيف لكائن مثله قضى السنوات وهو يحفز الروح دائماً بالقراءة والصلوات الخاصة التي يتقنها كمتصوف. كيف له أن يشعر اليوم بالأزمة النفسية، شعر كما لو أن قرار الطبيب خاطئاً، وتحت وطأة الإلحاح الذي فرضه عليه التأزم قرر أن يذهب إلى هذه الطبيبة المتعجرفة، التي لا تهتم بمرضاها جيداً، هي الأخرى تسبب الأمراض النفسية، لكنه تورط.

كان قد دخل إلى الغرفة ذات الجدران الزرقاء، لون فاقع وغبي. لا يحب هذا اللون مطلقاً وعليه أن يصبر عليه لبعض الوقت. إلى أن تفرغ الطبيبة من التشخيص وهي تسأله أسئلة قد تبدو عادية..

"نعم.. إذن أنت من أحفاد حمورابي؟"

يضحك، يكاد ينفقع من القهقهة المرة، يقول لها:

"أي حمورابي؟ مضى ذلك الزمن.. نحن أبناء التيه الآني"

لم تعلق، ظلت تتأمل في أوراق أمامها، لا يدري إن كانت هذه الأوراق تخصه، لها علاقة به، وبمرضه أم لا. ليس له من دليل ولا إثبات ليدينها ويصرخ فيها إنني أكرهك أيتها الطبيبة السيئة والقاسية القلب. وظل يسأل نفسه، هل كلهم هكذا أطباء النفس، أم أنهم فقط في ألمانيا على هذه الشاكلة، ثم قطع تفكيره بضربة مطرقة كالتي يستخدمها القضاة في المحاكم. ضربت بها المرأة قوياً ولمرتين على الطاولة. النساء الألمانيات في مراكز السلطة، يعشقن هذا النوع من المطارق.

استفاق كريم العراقي، نظر نحوها، قائلاً:

"سأكون مجنوناً وسأخرج من هنا.. دعيني وحالي"

قالت له وهي تستدير بكرسيها العالي:

"هذا ليس قرارك لأنك الآن أصبحت تحت مسؤوليتي.. والقانون لن يسمح لي.. نحن في بلد تحترم القانون.. لا تنسى السيد حمورابي وشرائعه التي وضعها للبشر.. يجب أن تكون رجلاً مطيعاً للقواعد"

قال لنفسه، يبدو أنني بائس، هذا اليوم لن يمضي بهدوء.. ماذا يجب علي أن أفعل لأتخلص من هذه المصيبة؟! أخضعته لتنويم مغناطيسي دون أن ينتبه أن ذلك حدث، أدخلته في عوالم غامضة من حياته، رأى طفولته وصباه وشبابه، رأى سنوات الحرب المدمرة التي حدثت على الحدود، وكيف أنه وقع في أسر القوات الإيرانية، وكيف أطلق سراحه بعد أن اكتشفوا أنه لا يحب صدام حسين وأنه يعود لعائلة شيعية، لم يصدق ما حدث. كما لا يصدقه الآن في غيبوبته.

وتسارعت به الأيام إلى أن خرج من العراق تدريجياً، إلى سوريا، حيث أقام فترة من الزمن في حمص ومن ثم بيروت، حيث حاول صقل مواهبه في عمل النشر، أصدر مجلة لسنة واحدة ولم تستمر، أسماها "البؤساء" لم يكن اسماً موفقاً كما اكتشف لاحقاً، وهذا لم يمنعه من عشق رواية البؤساء والاستعانة بها في الأزمات. كانت تلك المجلة عبارة عن مقالات وأشعار يفترض أن من يكتبها هم أناس على شاكلته بؤساء بحق، غير أن تعريف البؤس كان إشكالاً في حد ذاته.

طاردته المطابع بأن يدفع المال، استمر في العمل لأيام وشهور إلى أن دفع الديون ليقرر مغادرة بيروت، ويترك الهم الثقافي والأدبي، ليس لهذا مكان في عالم مقرف اسمه البلدان العربية، أوروبا هي الحلم والملاذ، وألمانيا تحديدا سوف يستطيع أن يؤسس

دار نشر هناك ويصنع حياة جديدة له، وكل عام يمكنه أن يأتي إلى المعارض العربية ويشارك فيها ويبيع ما تيسر له من الكتب ليشرف على حاله، والحمد لله أنه لا زوجة له ولا ولد. قد يكون له ولد في تلك الأيام القاحلة البعيدة، ثم يغلق ذهنه عن تذكر نساء كان قد طاردهن في حين يعجز دماغه عن التذكر تماماً، أين كان ذلك. لا يدري أين هو بالضبط، مضى الزمن. هل دخل مسرح الموت دون أن يعلم ذلك، أين هي الطبيبة المتعجرفة، وداعا ألمانيا.. وداعا لجنون الحياة ولهفها.. كل اللحظات التي عشتها في هذا العالم الدنيء. كان ثمة طيف يرفرف في فضاء بعيد، أشياء غامضة في مجهول وسماوات لا أحد يقدر على القبض عليها. هل مات؟

* * *

أحاول أن أبدأ من جديد كعادتي إذ أنهي مسودة ثم أخرى على الجهاز ثم أرمي مرات بكل شيء، وأنسى الموضوع برمته. هو قلق البناء والهدم والإنشاء كما يسمونه. أن تكون أمام فكرة تنطلق بها إلى نهايتها وأنت على قناعة بها، ليست هي القناعة وحدها بل القدرة على التماهي مع الفكرة ومحبتها بشدة. الكتابة غامضة كما الحياة، ولذتها في ذلك الغموض. السر الإلهي الذي يمكن له أن يحفز الذات نحو أن ترى عوالم جديدة وأن تصنع تصورات غير مسبوقة للعالم، تعيد ابتكاره وتشكيله.

أجلس وحدي في الغرفة، أغلق الباب ورائي، ليس لي ما يشغل بالي سوى إكمال الرواية، انتظر أن أعرف مصائر الناس الذين تركتهم، رندا السورية التي تسير على كرسي متحرك، جعفر السوداني الذي فشل في اختبار عرض الأزياء في لندن ويحلم أن يعاود الكرة، الكاهن الإريتري الذي يبتز الناس ويريد أن يخلق الثراء بأي شكل كان كي يحقق أحلاماً ضائعة عجز عنها في الماضي أيام كان يخدم في جيش بلاده، وكان رجلاً مقدساً بحق.

شخصيات كثيرة تحوم في رأسي صحبتهم طوال الشهرين الماضيين، لاجئون في دماغي يبحثون عن وطن يحتويهم اسمه رواية، أليست الروايات أوطان في الغيب يسكن فيها هؤلاء الناس المجهولون الذين يصنعهم الكُتاب في لحظات

يرغبون فيها الفرار من وطأة الحياة وجنونها. يتحرك أبطالي حولي، أراهم مشخصين، أحسهم تماماً في الأماكن التي تركتهم فيها أخر مرة، أعيش يقيناً بأنني لو ذهبت الآن لوجدتهم جالسين في تلك المواقع نفسها.. في المقاهي والحانات والفنادق والمستشفيات والبحار وعلى الحدود وفي القطارات وفي الشوارع وشقق سكنية مغلقة. سأتأكد من هوياتهم، وأحاول أن أعرفهم، فهل يا ترى إذا قابلتهم سوف يعرفونني، سوف يعترفون بي يقولون هذا خالقنا قد وصل.

أشعر بالإجهاد النفسي ربما رغبة في أن أغرق روحي في مجال آخر غير الكتابة، ليس لي من متعة منذ يومين. ربما هي الكتابة تصبح في بعض الأحيان نوعاً من الروتين الملل. قلت لنفسي ذلك وقررت أن أفعل شيئاً مختلفاً، لكن الناس الذين تركتهم – أبطالي – لم يكونوا قادرين على مفارقتي في الصحو والمنام بل يذهبون معي إلى مكتبي بالصحيفة، ويتسللون وسط التقارير والأخبار اليومية التي أكتبها للجريدة. أبدو بينهم مهرجاً، رجلاً فقد ومضته في الحياة بل سيئاً باتجاه أن يفهم ذاته بشكل أفضل، ثم يحاول لا يعرف اليأس. أليس الكتابة هي محاولة لفهم من نكون؟ وماذا نريد؟

نحن نكتب في اللحظة التي نرغب فيها من التحرر، في تشكيل إدراكنا الذاتي للأشياء من حولنا، شكل العالم وماذا يعني لنا بالضبط. بالنسبة للمهاجرين – أمثالي – والناس الذين يتركون أوطانهم لسنوات طويلة فثمة أمور كثيرة يصعب وعيها بدقة، أولها هوية الذات التي تصبح كائناً غامضاً لا يمكن القبض عليه أو التكهن بكنهه بالضبط، ربما في صباي أستطيع أن أفهم من أنا، الآن هذا مستحيل تماماً. هناك شبح يتحرك في هذا العالم، يمكن أن أسميه السيد اكس أو أنا.. مرات أتخيل أن الأبطال الذين اكتب عنهم هم جزء من هويتي المنهوبة ومن وطن سرق أحلامي وأشياء كثيرة فشلت فيها أو حققتها ليس من فرق أبداً. فالحياة في جهة معينة تستوي فيها المكاسب بالخسائر.

إن مأساة اللاجئ هي مأساتي.. أكرر ذلك، حتى لو أنني لم أخرج من منطقة

بها حرب أو عنف دموي، بلدي فيه من الدماء والموت المجاني في مناطق أخرى غير البيئة التي جئت منها في شمال السودان، وهذا ليس مهماً أبداً. إن الطريقة الصحيحة لفهم العالم تتطلب منا أن نكون غير تقليديين البتة، يجب أن نحرر أدمغتنا من الأشكال القديمة للوعي، وهذا يمكن أن يفسر لماذا أن فكرة خروجك من مناخ الحرب أو عدمه ليس كافيا أبداً لوعي الصورة بنقاء.

تعيدني صورة الحرب إلى بلد كان من الممكن أن أكون فيه اليوم، وربما صادتني رصاصة وكنت في عداد الموتى إنه رواندا.. التي عاشت حربا أهلية مروعة في الربع الأخير من القرن الماضي.. رواندا هي مأساة حقيقة وتصوير مستوفي الشروط لقصص اللجوء المنسية. لأنه العالم سرعان ما ينسى وينشغل بوقائع جديدة يفترض أنها الأهم، ثم تمضي الحكاية. يسقط أبطال وينمو آخرون مثل الأعشاب التي يتم قصها وتأتي غيرها في الحدائق. هل يدرك هؤلاء العمال التابعون للبلدية أنهم ينسفون تاريخا ليرسموا واحداً آخر جديداً، وهل للعشب من تاريخ، هل يا ترى فيهم من يفكر بذلك الشيء؟!

إذا فكرت في هذا فيعني أنني من جديد بجوار البحر، أجلس تحت واحدة من المظلات، اليوم لا نوارس لأن الوقت عصرا، والعمال في هذا الوقت لا يقومون بأي شيء سوى التسكع البطيء والاقتراب من الناس في محاولة للالتصاق بالأجساد بأي شكل كان لهدف واحد هو التكرم عليهم بالمال. إنهم يمارسون شتى صور التزلف ليحصلوا على الريالات، التي تشعرهم بالسعادة.

كنت قد تخرجت من الجامعة، صدفة وأنا في مكتب أحد الأصدقاء، من السياسيين، قال لي:

"يمكن أن نوفر لك وظيفة في رواندا"

كانت عندي فكرة عن الحرب وأنها انتهت. وامتلكتني حيرة هل يريد الرجل أن يتخلص مني لأني رفضت أن أنضم لتنظيمهم السياسي.. يسمون أنفسهم الأخوان المسلمين.. والعمل يتبع لمنظمة كويتية تبني مساجد وقرى هناك. وصداقتي مع هذا الزعيم الأخواني كانت مريبة بحد ذاتها، كان يحاول استغلالي

لأن أكتب له مذكرات الفترة التي قضاها في السجن أيام النميري، في مطلع سبعينات القرن الماضي. ذات يوم أخرج لي رزماً من الأوراق الصفراء المغبرة، هزها وعرضها علي ثم أدخلها مرة أخرى في الدولاب، قائلاً:

"هناك أسرار كبيرة عن هذا البلد"

لا أعرف الآن مصير هذه الأسرار، يعتقد الرجل أن ثمة مؤامرة ماسونية يقودها أناس معينون يحكمون السودان.. ولا يهمني كثيراً إن كان هناك أناس على شاكلة بوشكين الشاعر الروسي أم لا، فقد قيل عنه أنه كان عضوا في جماعة البنائيين الماسونيين في زمانه. طبعاً لم أسافر إلى رواندا، بالتحديد إلى كيغالي العاصمة، لأن الحرب عادت شرسة وتساقط الرصاص عبر نوافذ فندق وصل منه رجل تعرفت عليه صدفة بعد أيام وجيزة، وأخبرني بكل شيء. حمدت الله أنني نجوت من قبر كنت سأجد نفسي متورطاً فيه. وأنا أتذكر كلمات الشيخ الكويتي في مكتبه بالعمارة الكويتية في الخرطوم، يقول لي:

"سنوفر لك ألفي دولار راتباً مبدئياً ومسكناً وزوجة، عليك أن تكمل نصف دينك.. وسنهبك جهاز جوال ماركة الكاتل"

كان الحديث وقتها عن جهاز نقال أمراً مغرياً، وأصابتني لهفة أنني سوف أعثر على بلد أستطيع أن أجد فيه وقتاً للقراءة والكتابة، هوايتي المفضلة، ثم انتهى كل شيء قبل أن يبدأ، تساقط الرصاص في الخرطوم. في الحرب الرواندية، وخلال مائة يوم فقط أدت المذابح الجماعية إلى مقتل نحو 800 ألف شخص في عام 1994، حيث قضى رجال الهوتو الذين يشكلون الأغلبية على الأقلية من التوتسي، انتقاماً على أنهم حكموا البلاد لفترة طويلة منذ عام 1959 في شكل حكم ملكي نالوا فيه كل شيء تقريباً.

طبيعة البشر هي الانتقام لا ينسون أبداً مهما طال الزمن، يعودون بعد عقود وأحياناً قرون إلى الأرض التي خرجوا منها أو المواقع التي فقدوها ليمارسوا أشد العنف والقسوة ضد الأحفاد الذين كان أجدادهم سبباً في الموت والتهجير والعذابات. المعركة لا تنتهي ولا تحسم بين ليلة وضحاها، فالحرب تستمر

عشرات السنين والقرون مرات. بدأت المجزرة بإسقاط طائرة الرئيس الرواندي آنذاك جوفينال هابياريمانا ونظيره البوروندي سيبريان نتارياميرا وقتل جميع من كانوا على متنها، وأنحى متشددو الهوتو باللائمة على جماعة الجبهة الوطنية المتمردة من التوتسي، وبدأوا على الفور حملة منظمة لقتلهم. لكن التوتسي قالوا إن الهوتو هم من أسقطوا الطائرة كذريعة لتنفيذ الإبادة الجماعية.

في التاريخ دائماً هنا أحداث تفسر بأكثر من علة، ومع الوقت لا يعلم الناس الحقيقة، كيف حدث هذا ولماذا؟ وفي قصة الهجرة إلى أوروبا، أي في قصتي عن "ماما ميركل" يبدو لي أن الأسباب تظل لغزاً كذلك، ليس من أحد متأكد من النقطة الصحيحة والنهائية لفك الشيفرات. ثمة من يرى أن الهجرة الكبيرة للسوريين إلى أوروبا دافعها الحرب والعنف بعد أن فقد هؤلاء الناس كل أمل، وهناك من يربط الوضع بدخول تركيا في الحرب والتي تستضيف ملايين اللاجئين، وقد باتت تضيق ذرعا بعد أن بدأت العمليات الإرهابية تنفذ في عقر دارها، جراء ذلك كان على السلطات في أنقرة أن تتخذ إجراءات حاسمة بأن تمنع دخول لاجئين جدد، ما حتم على الكثيرين أن يفروا سواء عبر تركيا سراً أو لبنان بالبحر إلى اليونان أو أقرب الجزر التي تنقلهم إلى أوروبا.

هناك من تكلم عن هجرة منظمة ولطبقات راقية من المجتمع السوري ومن أحياء في وسط دمشق وأن النظام السوري نفسه يساهم في ذلك، لا أحد لديه تأكيد. الشيء الوحيد والمؤكد أن مشهدا خياليا يصور لحظة فارقة في التاريخ، يتكرر في عصور كثيرة ولكنه عمى الإنسان بعد أن ينتهي كل شيء، ويبدأ حدث جديد يكون سيد الموقف. تحدث المؤامرات في أحداث كثيرة كما في رواندا أو غرب السودان، غير أن ما يبقى واضحاً هو غرور البشر وتعسفهم السيء، تلك الحماقات التي لا تنتهي ولا يمكن كبحها أبداً. كنت أفكر في ذلك وأنا في أشد الحيرة، ما الذي يجعل الإنسان يقرر أن يكون سيئاً ولأبشع درجة.

كان ذلك السؤال متعلق بطبيعة الأبطال الذين تعرفت عليهم في روايتي وصحبوني، هل البشع منهم هو كذلك، أم أن ثمة ظروف هي التي أوجدت البشاعة، وهل يمكننا دائماً أن نجد الأعذار للناس أم يجب أن نكون قاسين في الحكم على الدوام؟ ولي أن أتخيل لو أنني كنت في كيغالي، لابد لي أن أحمل مسدساً إن لم يكن بندقية، وماذا لو تمت وشاية مزيفة أنني من التوتسي مثلاً، هل كنت سأنجو. في كل الأحوال ستكون النجاة صعبة، سوف يحملون جثتي إن وجدت عائدين بها بطائرة عسكرية إلى الخرطوم إن كان لهم أن يكرموني، وقد أكون ضائعا إلى الأبد في مقبرة وسط هؤلاء البشر الذين أبيدوا بلا عناء.

كنت لا أزال أعاني الإعياء، لهذا فإن خيالي لم يكن مستعداً لتقديم الإجابات، فعندما تكتب رواية فإن خروجك إلى مسار آخر وتفكير في موضوعات هامشية قد يعطلك عن رؤية الطريق الذي يجب أن تسير فيه. نصيحة تافهة قالها روائي في أحد وصاياه للشباب. تذكرتها الآن وأنا أعلم حق العلم أن أي قصة هي أكثر من حكاية متشعبة، فحياة الإنسان، أي كان، ليست خطا مستقيما بأي شكل كان. هي ذلك اللولب المعقد الذي يبتعد ويقترب من العقدة الرئيسة ومن ثم ينأى عنها، إنه الجنون البشري في أن يكون لهذا العالم معنى من خلال المزيد من التعقيد والرغبة في رؤية الغموض جميلاً.

* * *

المحتوى

أولاً غاغا تغني وجه البوكر 13

ثانياً خيالات مالكوم إكس 49

ثالثاً بيونج 727 73

رابعاً الساعات المعلقة 97

خامساً جبال تور بورا 121

سادساً العزيز هامسون 141

سابعاً الكاهن التركوازي 161

ثامناً في أرض مجهولة 181

تاسعاً البؤساء يضحكون 197

مكتبة نوميديا 200
Telegram@numidia_Library

الطيور، النوارس، تتمدد كسلى على الشاطئ أمام المياه الزرقاء، والملوحة تفيض على الرمال، تغطس فيها الأقدام العارية.. العديد من البشر يتجولون في الصباح الباكر.. من شتى بقاع الأرض، هنود وعرب وفلبينيون وأمريكيون.. ليس لي أن أحدد من أين جاء كل واحد منهم بالضبط، ولي أن أتفحص فقط ملامحهم، القصة التي يمكن أن ترويها الوجود، فوراء كل وجه حكاية مستترة يمكن أن تضمها دفتي دفتر، كتاب.

ISBN 978-9948-02-635-8
9 789948 026358

مداد
Midad Publishing & Distribution